# الطيور المهاجرة

## (وقصص أخرى)

## مختارات من القصة القصيرة التركية

ترجمة

د. الصفصافى القطورى

# الإهــداء

إلى كل من تتوق نفسه إلى التعرف على الآخر،
ليكتسب خبرة جديدة.. أو تزداد الرغبة لديه فى
التسامح.. والتواصل.. ومواصلة المسيرة إلى الأمام...

الصفصافى أحمد القطورى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عالمية
2005
(44)

# الطيور المهاجرة

تصميم الغلاف : الفنان/ أحمد اللباد
المراجعة اللغوية :عادل سميح
الطبعة الأولى : ٢٠٠٥
رقم الإيداع :١٦١٦٩/ ٢٠٠٥

المراسلات باسم مدير التحرير :
على العنوان التالى :
١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى -
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

الطباعة والتنفيذ
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

# كلمة لابد منها

عاشت الأمة العربية عامة والمصريين بخاصة مع الأمة التركية فترات تاريخية طويلة.. كان فيها اندماج، وتنافر أحيانًا.. تصارع، وتسامح وتصالح أحيانًا أخرى.. ولكن مهما اختلفت الرؤية، وتباعدت المسالك فقد عاشا معًا تحت مظلة واحدة، ألا وهى مظلة الحضارة الإسلامية.. ورغم هذه المظلة التى شملتنا جميعًا، فقد كانت لهم تجاربهم، وعوالمهم.. ربما تتشابه أو تختلف مع تجاربنا وعوالمنا.. ولكن مما لا شك فيه؛ أن هذه التجارب، وهذه العوالم لو تعرفنا عليها، فلسوف تزيد من رصيد تجاربنا، ولسوف تجنبنا بعض المسالب.. وانطلاقًا من الرغبة فى معرفة الآخر والتواصل معه.. كانت هذه المنتخبات.. وما أجدرنا وأحوجنا إلى التعرف على تجارب الآخرين.. وتزيد الحاجة وتصبح ماسة إذا ما كان هذا الآخر قريبا منا.. لصيقا بنا.. لا تصارع أو تصادم منافع فيما بيننا..

بل الهموم واحدة.. والطموحات قريبة.. والرغبة أكيدة فى أن

نعرف بعضنا البعض..

وإذا كان دور المثقف هو مد الجسور، والتعرف والتعريف بتراث الآخر.. فالأحرى بمن يعرفون لغة هذا الآخر وتراثه أن ينقلوا عن لغته مباشرة.. وهذا ما كان فى هذه المنتخبات.. فهى ترجمة عن اللغة التركية الحديثة والمعاصرة مباشرة.. وما هى إلا محاولة محدودة جداً فى إلقاء إطلالة على بعض من نماذج القصة التركية القصيرة فى العصر الجمهورى..


أرض الجولف – القاهرة

د/ الصفصافى أحمد القطورى

أستاذ الدراسات التركية

# إطلالة على القصة التركية
# فى العصر الجمهورى

### نشأة القصة التركية

أثبتت الدراسات النقدية والأدبية الأخيرة أن فن القصة القصيرة كنوع أدبى - بالمفهوم الغربى الحديث - لم يسد إلا قبيل نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، فمع (ثروت فنون)[1] و (فجرآتى)[2] بدأنا نرى نماذج من القصة القصيرة تحتل مكانها بين الأنواع الأدبية الأخرى، ولكن عند بناء الحدث، واستعمال الأشكال الفنية، وتأسيس الأسلوب القصصى، طغت المقولات الشعبية، وأخذ الكتاب بالمغامرات، والموضوعات المسلية وخلطوا - فى الوقت نفسه - بين لحظات العرض القصصى الحكائى والأسلوب الأدبى والعلمى.

١ - ثروت فنون :

مجلة أدبية صدرت فى إستانبول فيما بين ١٨٩٦ و١٩٠١م. تهتم بالفنون والآداب، التف حولها الأدباء الشبان المؤمنون بالانفتاح على الآداب والفنون

الغربية، وخاصة الفرنسية، يهتمون بالوحدة الموضوعية فى القصيدة الشعرية، حاولوا نقل المذاهب والمدارس الأدبية الفرنسية كالرمزية، والبرناسية والواقعية إلى الأدب التركي. وتمكنت من تشكيل تيار أدبى واقعى وفكرى مهم فى الأدب التركي مع بداية القرن العشرين، أشهر روادها: زجائى زاده أكرم (١٨٤٧-١٩١٤)، وتوفيق فكرت (١٨٦٧ - ١٩١٥)، وخالد ضياء (١٨٦٦ - ١٩٤٥)، وحسين جاهد (١٨٧٤ - ١٩٥٧) وأحمد مدحت (١٨٤٤ - ١٩١٣).

**٢ - فجرآتى :**

الفجر القادم؛ تيار أدبى جديد ظهر بعد إعلان دستور ١٩٠٨م فى الدولة العثمانية، وفى أعقاب «ثروت فنون»، وقد ركز على الرمزية الفرنسية، قاده الشاعر أحمد هاشم (١٨٨٤ - ١٩٣٣م)، العراقى الأصل. وكان يسعى إلى تطوير الأدب واللغة والحياة الفكرية والثقافية مما يؤدى إلى تطور المجتمع بصفة عامة، يبشر بالفكر الجديد ويتبناه.. وأشهر رواده: أحمد هاشم، أحمد صميم، على سها، جميل سليمان، أمين بولند، فؤاد كوبريلى، حمد الله صبحى، عزت مليح، رفيق خالد، تحسين ناهد، يعقوب قدرى.

وكل من «ثروت فنون» و«فجرآتى» تعاصر مدارس التجديد والتنوير فى الأدب العربى الحديث والمعاصر.

يعتبر أحمد مدحت أفندى (١٨٤٤ - ١٩١٣) مؤسس القصة الحديثة فى الأدب التركى، وظل ممثلاً لهذا النوع على امتداد عقدين من الزمان، ومجموعته «أقاصيص تربوية» تشكل معبرًا بين النكتة الفولكلورية وحكايات الحيوان نحو القصة الأوروبية المبكرة وكان الجديد الذى قام به فى إعادة الصياغة؛ هو الأفكار التنويرية التى أوردها على شكل أقاصيص حياتية قصيرة.

تابع أحمد مدحت أفندى منهجه فى التنوير فى «سلسلة أقاصيص مرحة» التى صدرت فى خمسة وعشرين كتابًا، وتشتمل على ثمانية وعشرين عملاً معظمها من تأليفه، وإذا كان إنتاجه المبكر تحت تأثير الكلاسيكية الفرنسية.. فقد تطور بها حتى وصل إلى الواقعية التنويرية.

لقد خطا سامى باشازاده سزائى (١٨٦٠ - ١٩٣٦) ونابى زاده أكرم (١٨٦٢ - ١٩٣٢) بتلك الأعمال التى تجاوزت الواقعية التنويرية إلى الواقعية النقدية، وكانت قصته «القطط» إنتاجًا واقعيًا تامًا لسامى باشازاده سزائى. أما نابى زاده ناظم فإذا كان واحداً من مؤسسى الواقعية.. فهو ممن مهدوا الطريق لظهور الأدب القومى التركى. تحتل قصته الطويلة «قرابيبك» Karabibik مكانًا خاصًا، فلأول مرة يكون بطل

القصة من الفلاحين الأتراك ومحور القصة هو الانقسام الطبقى فى الريف التركى.

خلال أوائل القرن العشرين، توطدت العلاقة بين الأدب التركى والأدب العالمى بصفة عامة، والفرنسى بصفة خاصة، وذلك عن طريق الترجمة، ومن خلال النقد الأدبى، والتراجم تعرف المثقف التركى على أمهات الأعمال الأدبية لكبار كتاب الأدب الغربى الحديث، وقد ساعد هذا على إنماء الذوق الفنى للكتاب، والمتلقى على حد سواء، كما تعمقت المفاهيم الفنية والفكرية للكتاب الذين اتخذوا – فى غالبيتهم – مواقف معادية لتسلط الإقطاع.. واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

جاءت تجليات القصة النفسية على يدى خالد ضيا اوشاقلى غيل (١٨٦٦ – ١٩٤٥) مستلهمًا الأسس النقدية لروائع الأدب الفرنسى والأدب الإسكندنافى والروسى مع امتلاكه لتجربة حياتية غنية، وقدرة إبداعية قصصية لا تنازع.

لقد اتجه خالد ضيا إلى الطبقات الشعبية ليستقى منها موضوعاته، وحواراته، وأحداثه، وشخصياته.. أبطاله هم الطبقة الدنيا.. الفئة الثالثة.. الموظفون العاديون.. العاملون فى القرى والمدن.. من أهل الفن.. والطبقة المثقفة.. عرف أخلاق

البورجوازية الناشئة.. تصدى لها وللعلاقات الرأسمالية المستغلة في تركيا..

فى بناء فنى رائع، وموضوع اجتماعى هام، وبنظرة نفسية إنسانية، مؤسسة بعمق تغلغل خالد ضيا إلى الروح الإنسانية.. أظهر حساسية مفرطة تجاه التفاصيل الواقعية والهموم اليومية.. هذه الخصائص جعلته فى مقدمة الواقعيين، بل جعلته يصل بالقصة التركية إلى مصاف الأدب العالمى، وجعلت الناقد الأكاديمى أ. كونراد يضع أعمال خالد ضيا ضمن الأدب الواقعى العالمى، وفى مصاف ستاندال، وبلزاك، وديكنز، وجوجول، وتورجنيف، ودستويفسكى، وتولستوى، وتشيخوف.

وتابعت خالدة أديب آديوار (١٨٨٤ - ١٩٦٤) التحليل النفسى فى قصصها القصيرة مركزة على مشاعر المرأة التركية خلال حرب الاستقلال التركية التى قادها مصطفى كمال أتاتورك وانتهت بإعلان الجمهورية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ لقد كانت هى ويعقوب قدرى قرة عثمان أوغلو القاهرى المولد (١٨٨٩/٢/٢٧) من أوائل من خرجوا تمامًا من محيط إستانبول، واتجهوا فى أعمالهم القصصية القصيرة إلى أعماق المواطن التركى فى محيط الأناضول وقراه..

أكمل حسين رحمى غوربينار (١٨٦٤ - ١٩٩٤) هو وأحمد راسم (١٨٦٤ - ١٩٣٢) الخط الذى بدأه أحمد مدحت، فأبطال قصصهم هم أيضًا أناس عاديون من ضواحى إستانبول، دون التطرق إلا نادرا لأحاسيس وهموم هؤلاء الأبطال، وتوقف أحمد حكمت مفتى اوغلو (١٨٧٠ - ١٩٦٧) عند مسأله التوجه غير النقدى تجاه الثقافة الغربية.

شهدت الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ إلى إعلان الجمهورية فى عام ١٩٢٣ صراعًا حادا بين أفكار وأيديولوجيات متضادة، كانت الغلبة فيها للفكر القومى.

**التيار القومى**

ساد هذا التيار القومى فى القصة التركية خلال الفترة التى ظهرت فيها تحت تأثير الحركة القومية، وإن حاول بعض الكتاب الآخرين الجمع بين الأفكار الصوفية الشرقية والفلسفية وبين الرمـــزية فى الأدب الغـــربى.. هؤلاء هربوا من الواقع المادى المتردى بعد الحرب العالمية الأولى، ومعاناة حرب الاستقلال، واحتضنوا الفردية المثالية والتآلف النفسى الروحى، والوجدان الأخلاقى للإنسان. وقد التزم كتاب هذه المرحلة بقضايا المجتمع التركى فى الأناضول، ومشاكله.. وكان عندهم المجتمع المستقل

ينتج أدبا مستقلاً..

ظلت الواقعية أحد الملامح الأدبية الأساسية، خلال فترة الأدب القومى كنهج فى القصة.. ورويداً.. رويداً، أصبحت الواقعية النقدية هى المسألة الرئيسية.. وليست العلاقة بين البورجوازية التركية وطبقة الإقطاع الزراعى، بل التفاعل بين قوى الشعب المناضل.. بين الشعب التركى، وهذه القوى هى محط الاهتمام.

مع احتدام الصراع بين الدول الإمبريالية على إعادة تقسيم العالم.. وخاصة ممتلكات الدولة العثمانية، وعشية الأزمة العامة للاقتصاد العالمى.. أخذ الإحساس القومى والمشاعر الوطنية والاتجاهات المعادية للاستعمار منحى أكثر عمقا وحدة فى القصة التركية.. وتحت تأثير الواقع المر الجديد.. تعمقت بدورها التيارات القومية الواقعية عامة، والواقعية النقدية خاصة. ولم يكن هناك مفر من تجسيد الصراع بين الشرق والغرب فى النتاج القصصى لهذه الفترة.

وها نحن نرى عمر سيف الدين (١٨٨٤ - ١٩٢٠) يتجه إلى التاريخ العثمانى، والإسلامى ليستمد فهم موضوعات بطولية.. ظهر عمر سيف الدين كأبرز ممثلى الاتجاه الواقعى، فى تلك

الفترة.. وقد مزج فى أعماله بين الوطنية والنزعة الإنسانية العامة.. وكان يصل فى أعماله بالموقف الدرامى إلى أقصى درجات التوتر.. ويترك القارئ فى انفعال شديد.

ثم جاء رفيق خالد قاراى (١٨٨٨ - ١٩٦٥) ليقف ضد السياسة المعادية للشعب، ويعتبر أبرز الممثلين البارعين للواقعية النقدية.. وبسبب معارضته لأقطاب الاتحاد والترقى تم نفيه إلى آسيا الصغرى فيما بين ١٩١٣ و ١٩١٨.. فطاف قرى الأناضول متجولاً ودارسًا.. ومتأملاً.. وما إن عاد إلى إستانبول حتى كان مفعمًا بقصص التحرر الوطنى للشعب التركى. وظف رفيق خالد قدرته الإبداعية ضد النظام الحاكم، وأصدر مجلته الساخرة (آى دده) التى لاقت رواجًا كبيرًا.. فاصطدم.. فغادر تركيا وعاش فى المهجر (١٩٢٢ - ١٩٣٨) إلى وفاة أتاتورك، ولكنه لم يتوقف.. فأصدر أعمالاً نقدية واقعية تمثل تطورًا مرحليا..

أعاد رفيق خالد قاراى خلق حياة الشعب التركى فى الأناضول.. اتجه إلى الفلاح.. وإلى الرعاة.. عرف القارئ التركى - ولأول مرة - بقضايا الفلاح فى «الحمار الأغبر».. وقضية العامل وعلاقات العمل.. وبيروقراطية الإدارة فى المدن الريفية، وعمال المصانع فى «ثمن الصمت»، وعرَّى الدور

التخريبى لجنود البحرية الأمريكية فى الموانئ التركية، والاعتزاز الوطنى المتنامى للشباب التركى فى: «فى مواجهة القوة». استقطبت الجمهورية ورجالها مجموعة من الأدباء الذين كانوا يلهجون بفضائل النظام الجديد، وعظمة رجاله، والتغنى بأمجاد حرب التحرير.. مما أدى إلى ظهور طبقة من الأدباء الموظفين، الذين لا هم لهم إلا إرضاء رجال النظام، والتحلق حول أهدافهم.

سعت هيئة النظام إلى الإيحاء لهؤلاء الأدباء بالسعى نحو تخليص المجتمع - على حد تصورها - من سطوة الإسلام، ورجال الدين، وخلق نمط جديد من المواطنين، يكون الفكر العلمى، والعلمانى والعقلانى وسيلتهم إلى خلق المجتمع الثورى الجديد.. تجاوب مع ذلك المثقفون أكثر من غيرهم... وفى مقابلهم.. وعلى النقيض منهم كان القرويون، وسكان المراكز والقصبات والقرى الريفية محافظين على معتقداتهم الدينية وعنعناتهم الإسلامية الصوفية.. فى مثل هذا الجو المتصارع والمتصادم، ظهر ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣) بمفهومه التحررى للشعر خاصة، والأدب عامة... كان ظهور ناظم حكمت، صوتا جديدا.. أو لنقل نغمة نشاز؛ لأنه اكتشف أسرار اللغة

التركية.. واستلهم فى أدبه تراث الشعب التركى.. وملاحمه.. وسير البطولة القديمة مع إضافة عنصر الحداثة والمعاصرة .

كانت كلمات ناظم حكمت تبشيراً بالثورة ضد الجمود والاستغلال، وإيمانًا راسخًا بالحاجة الماسة إلى العدالة الاجتماعية، والإخاء الإنسانى.. لذلك اصطدم بالبيروقراطية الثقافية.. والفاشية السياسية.. والسيطرة العسكرية.. فسعت كل هذه، إلى خنق هذا الصوت الجديد.. فكان «أن حكمت عليه بالسجن لأكثر من ربع قرن..».

على صعيد القصة طرح الكتَّاب، جانبًا، إغراءات الرومانسية، والرجعية، والصوفية الشرقية الجديدة.. وانتقدوا سياسة الطبقة البورجوازية.. وخيانة الرجعية، والإقطاعية، واتسعت حلقة القصاصين الواقعيين، والواقعيين النقديين. طالعنا صلاح الدين أنيس (١٩٨٢ - ١٩٤٢) بقصته «زهرة المستنقع» التى أظهر فيها ميلاً واضحًا إلى الناس العاملين، مظهرا العلاقة التبادلية بين الشخصية والبيئة... وتبعه على الدرب نفسه عثمان جمال فايغيل (١٨٩٠ - ١٩٤٥) بمجموعته «حسناء العياد» سنة ١٩٢٥م التى استخدم فيها لغة الصحافة اليومية. مازجًا إياها بروح الدعابة والفكاهة...

لقد تم تقديم الإنسان العادى، وبطولته، والنضال ضد المحتلين الغربيين من أجل استقلال التراب الوطنى، فى هذه القصص.. وترسخت الواقعية النقدية كاتجاه أدبى، وفى داخلها تفرعت تيارات مختلفة.. وظهرت شخصيات فاعلة، فكان رشاد نورى كَون تكين (١٨٨٩ - ١٩٥٦) أكثر الأدباء الأتراك رواجًا آنذاك، وأصبحت مقولة «الإنسان البسيط» فى المجتمع الرأسمالى معتقده الأساس؛ فعرى الرجعية، وممثلى النظام الإقطاعى.. وأثارت المسائل الأخلاقية السائدة فى المجتمع اهتمامه فبحث عن «الإنسانية النقية النظيفة»؛ لذلك فهو يقيم موضوعاته على عنصرى الحب والشفقة اللذين يهدفان إلى صلاح الإنسان ذاته. وتبعه فخرى جلال الدين (١٨٩٥ - ) بتياره الاجتماعى الساخر، والذى ارتكز فى أسلوبه على الخصائص العامة للحدث، والشخصية، مع حوارات طبيعية، دون تدخل من جانب المؤلف.. وقد جسد ذلك فى «طلاق ثلاثة» و«الطاعون» وهما نموذجان فذان للهجائية اللاذعة.

كان لصدور مجلة الوجود «وارلق» سنة ١٩٣٠م = ١٣٤٩ هـ صدى كبير، وانعطافة كبرى نحو الاتجاه إلى الأدب الاجتماعى حيث انضم ناظم حكمت مع مجموعة الأدباء الشبان إلى هيئة

تحريرها... لقد حاولوا دراسة مشاكل الريف التركى.. لإيجاد الحلول الشافية. وقد استطاعت هذه المجلة - التى مازالت تصدر - مع تيار المشاعل السبعة خلق مدرسة أدبية أثرت فى كل التيارات الأدبية فى تركيا.

أدى هذا الالتفاف حول هذه المجلة، إلى تحريك الوضع الثقافى بعض الشيء.. حيث قام ناهد سرى أورك سنة ١٩٣٢ بطباعة ثلاث قصص قصيرة على حسابه الخاص، كما شهدت سنة ١٩٣٣ صدور عدة مجموعات قصصية بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على إعلان الجمهورية.

أصدر صدرى أرتم (١٨٩٨ - ١٩٤٣) كتابين إلى جوار إسهاماته فى توسيع المقولات الفنية للواقعية النقدية.. كان ماديا، وينتسب إلى الجناح الأكثر يسارية بين الكماليين.. اتسمت أعماله بالسرعة، والتدفق الحى، واللغة السهلة البسيطة.. وكانت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية هى المحور الذى دارت حوله موضوعات تلك الفترة.

اشتدت وطأة ديكتاتورية الحزب الواحد.. حزب الشعب الجمهورى.. وهدد أهل الفن فكريا.. فتراجعت مجموعة عن قناعاتها الديمقراطية.. وهادنت فئة أخرى، وتراجعت عن الاتجاه

الفكرى الجاد.. وعن الحداثة.. ومعالجة المشاكل الأساسية.. فانغمس البعض فى التصوير التأملى الذى لا يحمل همًا.. واتجه آخرون بالظروف الحياتية وجهة مثالية، وعضدوا الاتجاهات البورجوازية.. وهاجرت طائفة أخرى حفاظًا على إنسانيتها.. وعلى عقائدها...

خلال هذه الفترة المضطربة.. وخيبة الأمل.. والذهن المريض ظهر صمد آغا اوعلو (١٩٠٩ - ) الذى وقع تحت التأثير القوى لدستويفسكى. ثم برز يشار نابى نابر (١٩١٠ -) بمجموعته «توجد نار تحرقنى»، وصباح الدين على (١٩٠٦ - ١٩٤٨) بـ«الطاحونة» لتجسيد هذه الفترة المضطربة.

**الاشتراكية الواقعية**

بظهور أقاصيص ناظم حكمت، وأعمال صباح الدين على، ظهر ولأول مرة فى النثر التركى مفهوم جديد حول الإنسان، المناضل الجديد، والمنظم الثورى للمجتمع، كما أوجدا رابطا بين كدح الفلاحين، ونضال الطبقة العاملة من أجل إحداث تحولات ثورية فى المجتمع.. أدهش صباح الدين على الأوساط الأدبية فى سنة ١٩٣٦م بعمله المميز «عربة الثيران»، الذى صور فيه حياة المجتمع الأناضولى بشكل مفجع، مستفيدا من عمله

مدرساً فى مدن وسط الأناضول.. وقد ابتعد عن التكنيك القديم فى فن القصة، وتبعه آخرون.. حيث عرضوا الفوارق الطبقية، والخلل الاجتماعى، والتضحيات الجسام.. التى قدمها «أناس الأناضول».

خلق هؤلاء نمطا قصصيا جديدا فى الأدب التركى.. فبالنسبة لهم، فإن الأدب ليس وسيلة فنية لكشف الواقع وتصويره فقط.. بل - هو - أيضا سلاح قادر على تغيير المجتمع، وخلق الظروف الملائمة لتطور منسجم للإنسان، لهذا.. أعطت عندهم القصة الواقعية، الاشتراكية، حلولاً لمشاكل زمنها المعقدة.. ووجد ممثلوها فى العامل العادى، والفلاح الكادح، والمثقف الشعبى، أفكارا خصبة، وأحاسيس إنسانية عميقة.. البطل الإيجابى عندهم هو الشعب الذى انتظروه سابقًا.

جمعت الواقعية الاشتراكية فى داخلها مكاسب الاتجاهات الديمقراطية، حتى ذلك الوقت، فى كل فروع الأدب التركى، فطورتها، وأثرتها بقيم فكرية جديدة.

يتحدث صباح الدين على عن خصائص أدب الاشتراكية الواقعية التى يمثلها قائلا : «.. بالنسبة لى.. فإن الفن.. له مهمة تعرف الإنسان على الإنسان.. والحياة.. ومعناها.. هكذا فقط..

تتأسس الآمال والطموحات.. والرغبات، لطبقة واسعة.. لتكون أكثر إنسانية.. ولتصل إلى حياة أجمل وأفضل.. الفن يجب أن يمسك بالحياة.. بكل تفاصيلها.. ويجب أن يثير الرغبة.. بل الحاجة لدى الإنسان فى أن يعيش، فى أن يحيا بشكل أكثر إنسانية.. فى أن يحيا بطموح.. نحو الأفضل.. والأسمى.. والأشرف.. الفن ليس غاية... بل وسيلة.. الغاية هى الحياة..».. هكذا يربط الواقعيون الاشتراكيون.. مهمات الأدب بغايات.. وبالمثال الاشتراكى - آنذاك - وبالشعب...

لكن سعيد فائق عباس يانيق (١٩٠٦ - ١٩٥٤) الذى كان مستقلا يصدر سنة ١٩٣٦م عمله «السماور» فيهز به القارئ.. ويلفت الأنظار حيث كان - حتى هذه السنة - منكفئا على نفسه، ومنطوياً فى إستانبول بعد عودته من أوروبا.. ثم أعقبها بقصة «المنديل الحرير».. وقد جسد فيهما حرارة.. وتدفقًا للعواطف.. وجاذبية للكلمة.. وواقعيتها..

أمسكت الفاشية بزمام الناس فى إيطاليا.. وتهيأ النازيون فى ألمانيا.. تقوم العسكرية الفاشية باحتلال الحبشة، فينشر ناظم حكمت رسائل إلى «ترانتابابو» يندد فيها بالاحتلال.. ثم يتبعها بملحمة الشيخ بدر الدين التى تحض على الكفاح...

ويكتب عبارته الشهيرة «الفاشية تسير فى شوارع إستانبول» فتتمكن منه الأوساط الفاشية فتحكم عليه بالسجن لمدد متداخلة. أرادت الفاشية إرهاب الأقلام الشابة.. الحرة.. لاسيما وأنها قد اعتقلت معه أيضا الشاعر والرسام عز الدين داينمو، والكاتب اورخان كمال وحكمت عليهما بأحكام مختلفة.

بموت مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٣٨ يسدل الستار على قضية ناظم حكمت ورفاقه حتى سنة ١٩٥٠.. وبموت أتاتورك أيضًا يبدأ عهد جديد من الديكتاتورية والفاشية بعد تولى عصمت ايتونو الحكم.. فالأحزاب ملغاة.. والأفواه مكممة.. فلا صحافة حرة.. بل رقابة متسلطة.. سيطرة الحزب الواحد.. والزعيم الواحد...

خلال سنة ١٩٤٥م = ١٣٦٥هـ وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية... بدت فى الأفق إرهاصات التعددية الحزبية.. وفى سنة ١٩٤٦ م انتقل النقاش من السياسة والديمقراطية.. إلى الدين والعلمانية.. وإعادة تناولها وتوجهاتها؛ فالدين ضرورة ملحة لتطور الجانب الروحى والأخلاقى.. وحق من حقوق الإنسان.. مادامت الحرية الدينية مكفولة.. وأن الدين الإسلامى لا يمانع فى الأخذ بمتطلبات التحضر للمجتمع المعاصر حتى وإن كان

ذلك مأخوذا من الصين. وعلى النقيض كان هناك من يرفض ذلك شكلاً مضمونًا..

**الديمقراطية والإبداع**

التعددية الحزبية أفسحت المجال لنشوء أحزاب عمالية.. فلاحية.. إسلامية.. نقابات عمال.. تُحلُّ.. وتعود فتظهر.. تصدر مجلات تقدمية، ويقابلها مجلات محافظة.. أو إسلامية.. وقومية.. طان = الفجر.. وكَون= اليوم.. والحرية المقيدة...

وتدعم موقف الإصدارات الدينية بعد وصول الحزب الديمقراطى إلى الحكم من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ وظهر ما يمكن أن يعتبر تمزقًا.. أو تناقضًا.. أو إفلاسًا.. ومرجع ذلك فى رأى البعض هو فقدان التوازن بين القيم الروحية والمادية.

هذا الجو المشحون بالتوتر.. والترقب.. والتضاد.. والتصارع أدى إلى ظهور نتاج قصصى فيما بين ١٩٤٣ و١٩٤٩م يعكس هذه الأزمات النفسية.. والضائقة المالية.. والمرضية.. فطالعنا أحمد حمدى طانبينار (١٩٠١ - ١٩٦٢م) بـ«أحلام عبد الله أفندى».. وحسين رحمى بـ «الشيطان الذى ظننته ملاكا»، وصباح الدين على فى «الدنيا الجديدة» وقد تخلص فيها من العناصر الرومانسية تماما واستمد شخصياته من قاع المجتمع

الأناضولي... بواقعه.. وحقائقه.. وتناولها بمسئولية الفنان تجاه وطنه.. ودوره المؤثر فى علاج تلك المشكلات.. وأعقبهما.. خالى قارناص باليقچى (١٨٨٦ - ١٩٧٣م) بمجموعته «مرحبا البحر الأبيض» وقد عقد فيها مقارنة طيبة بين إنسان البحر.. وإنسان البر؛ قدرهما، حياتهما، معاناتهما.. وذلك بأسلوب متدفق ينم عن ثقافة واسعة وذوق رسام رفيع المستوى، وحساسية مفعمة، وارتعاشة روحية متنوعة .

تألق سعيد فائق بكتابه القصصى الجديد «رجل لا لزوم له» وقد صور فيه معاناة إنسان الجزر القريبة من مدينة إستانبول.. وخاصة الصيادين منهم، وسكان العشوائيات. وبهذا الكتاب ترك سعيد فائق عزلته، وسلبيته، وانخرط فى الحياة اليومية بكل مآسيها وآمالها وتطلعاتها.

كما ظهرت خلال هذه المدة أيضًا : «مسافر عربة النوم» لبكير صدقى قونت، و «أمريكا بخمسة وعشرين قرشًا» لنعيم تيرالى. وحملت مجلة «وارلق» (الوجود) على عاتقها إصدار سلسلة للقصص القصيرة للكتاب المتميزين.. واضعة نصب عينيها الواقعية فى كل القصص، وقد ساعد ذلك على تنشئة جيل جاد.. وإسقاط القصص المصورة، وقصص التسلية من

الاعتبار.

وإذا كان «اوقتاى إقبال» (١٩٢٣ -) الذى كان يعيش الماضى قد خرج علينا بـ «ناس بلا حب» بحضور فاعل، ونشط، وأحداث مستوحاة من الماضى.. تتحرك بين الطيبة العميقة، والطهارة النقية.. يبحث عن الأطفال السعداء بوحدتهم.. والارتباط بالجمال المهمل.. مكتفيا بتعرية الواقع، والعودة إلى الطفولة الماضية، والهرب من المشاكل الحياتية، دون أن يشير إلى مخرج.. واصلاً إلى الرومانسية السلبية فى «الكنز البيزنطى».. فإننا نرى اوخان كمال (١٩١٤ - ١٩٧٠) فى «معركة الخبز» و «ولدنا» يقدم نفسه على أنه أوقف نفسه على التنقيب فى أوضاع المجتمع وحقائقه.. ليس بهدف الوصول إلى الكنز، بل للوصول إلى تشريح لقضايا المجتمع، وأحداثه.. وفى قصته الرائعة (النوم) جسد حياة المصنع، والورشة.. وأثرهما فى المجتمع.

شهدت السنوات الأخيرة، من النصف الأول من القرن العشرين، بزوغ نوع قصصى جديد.. كان موجودا بين الأتراك ولكنه مهمل.. ذلك هو القصص الهزلية الساخرة.. كان خلدون طَنَر (١٩١٥ - ١٩٨٦م) سبَّاقا إلى هذا النوع فى مجموعته

«لتحيا الديمقراطية» وتبعه ايلخان أنغين (١٩٢٥ -) بـ «آه.. لو كان الناس يعلمون» وأنور ناجى كَوكشان (١٩١٦ - ١٩٨٦) بـ «رجل فى المحطة» وكلها كانت من النوع الهزلى الساخر.. الظريف.. والتى لعبت دورا.. مؤثرا.. وفاعلاً فى تهيئة الأذهان للتغيرات التى سوف تطرأ على المجتمع، ووصل هذا الطراز من الكتابة على يدى الساخر الباكي، الضاحك.. المضحك عزيز نسين (١٩١٥ - ١٩٩٥) فى مجموعاته المتتالية، التى فاقت فى أعداد طبعاتها وتأثيراتها كل تصور..

توالت نجاحات هذا النوع الأدبى.. خلال سنوات حكم الحزب الديمقراطى (١٩٥٠ - ١٩٦٠).. وتوالت المجموعات القصصية سواء المترجَم منها أو المؤلف، وخلال هذه الفترة أيضًا تناول الإنتاج القصصى مشكلات الميكنة الزراعية فى الريف.. والمعيشة اليومية فى القرى النائية.. وفى الأحياء العشوائية التى بناها الفلاحون النازحون من القرى إلى أطراف المدن بعد الميكنة.. تجسد قصص هذه المرحلة.. جرائم الفقر والعشوائيات.. وفازت «العم سام» التى جسدت هذه الموضوعات بالمركز الأول فى مسابقة القصة التى نظمتها مجلة (إستانبول الجديدة) و «السكارى» لاورخان كمال.. ففيها، مثلما كان فى

«معركة الخبز»، تدور صراعات البسطاء ومشاكلهم الحياتية، وقد مهد هذا التيار لظهور تيار جديد فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة بصفة خاصة، ألا وهو: التيار القروى..

هذا التيار استهدف دراسة الحياة الشعبية فى القرى والريف التركى من خلال دراسة مشاكل الفلاحين والقرويين، الذين يشكلون أكثر من ٨٠٪ من سكان الجمهورية التركية. وقاد هذا التيار، القاص التقدمى محمود مقال (١٩٣٣-)، لاسيما بعد أن نشر روايته الشهيرة «قريتنا» التى ترجمت إلى ما يزيد عن خمسين لغة، واختير بسببها المؤلف كمواطن عالمى فى مهرجان أدب الشباب الذى عقد فى إيطاليا سنة ١٩٦٨. وقد تابع المسيرة فى هذا التيار نخبة كبيرة من كتاب تركيا أمثال: صباح الدين على، وكمال طاهر، ويشار كمال، واورخان كمال، وطالب آيدين، وفقير بايقورت.. ومحمد باشاران.

يعد تيار الأدب القروى خلاصة التجارب الاجتماعية.. ورابطة بين التراث الشعبى الحى، والفولكلور القديم.. ومزج بين لغة الشعب ومشاعره وواقعه، فى إطار من الصميمية، والحميمية، التى تعتمد على الواقعية والصدق والموضوعية فى التناول والمشاهدة الحية.

استـهدف الكتّاب بعد الحـرية السـيـاسـيـة التى ظهـرت مع التـعـددية الحـزبيـة، وتناوب السلطة – إنسـان الأناضـول.. بكل مناطقـه وأينمـا يكون.. فى الشـرق أو فى الغـرب أو فى جنوب شرق الأناضول.. فـ يشار كمال (١٩٢٣م – ١٣٤٢هـ) بمجموعة قـصصـه الطويلة «الصـفـيحـة»، و«الرضيع».. و«الدكـانجى».. و«حكاية قذرة».. وابلخان طاروس فى «جحر النملة» قد عبرا عن النظام القـائم بمعـاناته.. والنظام المشوق إليـه.. وتأسـيسـه.. ونشـره بين الشـعب. وبنى اورخـان كـمـال تكنيكه فى «بنت الغسالة» على ثلاث ركائز: الحب والخبز والشرف..

شـهد عـام ١٩٧٠م بعض التـغيرات السـيـاسـيـة؛ فقـد وافق البرلمان على بعض المعاهدات التى رأى فيـها البـعض مـسـاسًا بالوطن تحت دعوى «إدارة المصالح»، فحركت الشـبـاب، وقـامت المظاهرات والمسيرات الاحتجاجية، ومصـادمات العنف والعنف المضاد، واتجـه الكتاب الشبـاب إلى المجتمع، حتى أصبح ذلك شبـه اتجـاه عـام، ولم يعـد هناك من يُخفى اتجـاهه الفكرى أو السياسى، أو يستخدم الرمز أو الإمالة فى التعبير عما يود قوله، بل اتضـحت هوية كل الأفكار، وكل الكتـاب، وكل التيـارات: من اشتراكية وقروية وإسلامية وتجريدية وحداثة، ولم يعد هناك من

يخشى الصدام أو يخاف النزال الفكرى، وظهرت مجلة «أصدقاء الشعب» وملاحق أدبية جديدة للجرائد اليومية، فى محاولة من طرف الكل للدفاع عن هويتهم الفكرية، متدثرين بالأدب ومستفيدين من مستجدات العصر فى عالم الطباعة والنشر والاتصالات.

لهذا، نرى أن سنة ١٩٧٠م شهدت زيادة ملحوظة فى المجموعات القصصية الجديدة، وإعادة طبع بعض المجموعات لأصحاب الأسماء اللامعة، التى قدموها هدية للمطابع، وقامت على طبعها بعض المؤسسات الخيرية والأوقاف الثقافية كوقف سعيد فائق الذى أوقفته الأم إثر موت ابنها بسبب مرض بسيط.. فهالها المصاب.. فأوقفت كل الدخل من إعادة طبع أعمال ابنها، وبعضًا من الميراث على جائزة تمنح سنويا، باسم: «جائزة سعيد فائق فى القصة القصيرة» وحولت منزله إلى متحف ودار للشفقة، وتشكلت لجنة من كبار النقاد والأكاديميين والمفكرين للإشراف والمتابعة، وكانت نهضة.. وكانت قفزة. وزاد المجتمع من رصد الجوائز السنوية لمضمار القصة...

إذا كانت الاشتراكية الواقعية.. والأدب القومى قد ازدهرا على أيدى كتاب هذه الاتجاهات فإن الإسلاميين لم يتوانوا عن

دخول مضمار السباق.. وتناولوا فى أعمالهم الفكر الإسلامى، والأبطال، والرموز، والنقوش الإسلامية فى أعمالهم.. وتحلقوا جميعًا حول نجيب فاضل قيصه كورك (١٩٠٥ - ١٩٨٣) ومن بعده تلميذه سزائى قره قوچ (١٩٣٣) وحكيم اوغلو اسماعيل (١٩٣٢ - ) وعلى حيدر حقصال (١٩٥٠ -) وشكرى قراجه وحليمه طوروس التى نشرت أولى مجموعاتها القصصية سنة ١٩٩١م ولفتت الأنظار بحداثة أسلوبها.. وأنماطها البشرية الإيجابية، وعالم الطفولة.. والعلاقة الواجبة من الأم حيال أطفالها الرضَّع..

ولم يكن التجريديون الذين ساروا على نفس درب التجريديين الغربيين بأقل مهارة عن سواهم.. فها نحن نرى ليلى أربيل (١٩٣١) توالى إصدار أعمالها اعتبارا من ١٩٦١ بـ«الحلاج» ١٩٦١م، و«فى الليل ١٩٦٩»، و«امرأة غريبة ١٩٧١»، و«الحبيب القديم» ١٩٧٧، ثم يعقبها فريد أدغو الذى ولد فى إستانبول سنة ١٩٣٦ وظل فى باريس لمدة ست سنوات لدراســة فن الرسم، والتحق بالجيش لأداء الخدمة العسكرية.. فكان الانتقال من باريس إلى قرى الأناضول مما سبب له صدمة.. قد انعكست على مجمل أعماله، التى كانت بدايتها سنة ١٩٥٩، وقد جمع كل

قـصـصـه ونشـرها سنة ١٩٩٣.. ثم كـانت طومـريس اويار (١٩٤١- ) التى تخـرجت فى الجـامـعـة الأمـريكيـة، وعـملت بالترجمة، وتزوجت من الشاعر طورغوت اويار، صاحبة باع لا يستهـان به فى إرسـاء مفـهوم التجـريد فى الفن القصصى.. ولفتت الأنظار بأعمالها التى بدأت فى نشرها فى مجلة «وارلق» منذ سنة ١٩٨٠، ونجحت طومريس فى تحليل أسباب انطوائية أبطالها أو انزوائيتهم.. ويمكن أن نعتبر نديم غورسيل- الذى ولد فى غازى عينتاب ١٩٥١ وأنهى دراسته باللغة الفرنسية فى مدرسة غلطه سراى بمدينة إستـانبـول ليسـافر إلى باريس ويتخرج فى جامعة السوربون فى قسم الأدب المعاصر- آخر التجريديين الكبار فى الأدب التركى المعاصر، والذى لم يرض بالعودة المباشرة لأرض الوطن، بل ظل فى المنفى الاختيـارى ليتابع أبحاثه الأكاديمية وأعماله الإبداعية.. وتتمحور أعماله حول فكرة الحرية التى حرم منها فى بلاده، وإن كـان البعض يأخذ عليه ميله للدعاية الغربية أكثر من ميله إلى تكريس مشاكل الحرية فى وطنه الأم تركيا، وهو يعيد إلى الأذهان فكرة هرب ناظم حكمت إلى روسيـا والعمل من أجل الفكر الاشـتـراكى، فإنهم يرون فى نديم غورسيل بوقًا فرنسيا للدعاية للديمقراطية

الغربية المزيفة .

لا يمكن أن ننهى الحـــديث فى هذه الإطلالة، دون أن نلقى نظرة على ما بعد الحداثة فى القصة التركية المعاصرة، فما بعد الحداثة مازال مصطلحا مبهما فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة خاصة.. وخلاصة القول إن ما بعد الحداثة ليس مصطلحًا أدبيًا أو فنيًا، إنما هو مصطلح فلسفى وفكرى قد بدأ يطفو على السطح مع نهايات القرن العشرين.. ومن هذا المنطلق لا يمكن القول بأن هذا المفهوم قد استقر فى أذهان الكتاب الأتراك.. وإنما المروجون له إما أنهم مقلدون، أو أنهم يستلهمون الفكر الغربى ويكتبون على شاكلته.. فما بعد الحداثة لم يستقر حتى فى أذهان هؤلاء الذين ابتدعوه أو الذين يروجون له.. ومن هذا المنطلق لا نستطيع أن ندعى أن هناك تيارا أدبيا قصصيا يجد ما بعد الحداثة فى القصة أو الرواية أو الشعر التركى المعاصر.. وإن كنا لا نعدم وجود بعض الأسماء التى تسعى إلى التعريف به والترويج له فى الرواية والقصة فى تركيا.. ويأتى على رأس هؤلاء يوسف آتيلغان (١٩٢١ - ١٩٨٩) وأغوز آتاى (١٩٣٤ - ١٩٧٧) وحلمى ياووز (١٩٣٦ - ) واورخان باموق (١٩٥٢ -) ولطيفة تاكين (١٩٥٧ -).

إن أنصار تيار ما بعد الحداثة قد بنوا جميعا شهرتهم أولاً في عالم الرواية، ثم انطلقوا إلى القصة القصرة، وإن لم تتأكد شهرتهم في هذا المضمار بعد.. فعلى سبيل المثال نال اورخان باموق شهرته على رواياته «الظلمة.. والضياء..» سنة ١٩٧٧ و«جودت بك وأولاده» ١٩٨٢، و«القلعة البيضاء» سنة ١٩٨٥ و«البيت الصامت» ١٩٨٨، و«الكتاب الأسود» سنة ١٩٩٠.. وأخيرًا «الثلج» ٢٠٠١، و«الأحمر» ٢٠٠٢.

ومما لا شك فيه أن التطورات السياسية التي تحدث في تركيا تجد صداها في كل الأعمال الأدبية، والقصصية بصفة خاصة.. وسوف نرى في النماذج التي سوف نطرحها لنلقي من خلالها الإطالة أنها كانت عاكسة للوضع السياسي والاجتماعي، أو أنها كانت بوتقة تنصهر فيها المشكلات الحياتية التي التقطتها حاسة القصاص وموهبته.. في المنتخبات؛ استعرضنا مع عمر سيف الدين (١٨٨٤ - ١٩٢٠م = ١٣٠٢ - ١٣٣٩هـ) في عملين من أعماله الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية التي لم تحاول فهم أو استيعاب الثقافة الإسلامية.. كان هذا في «المعبد السري».. وبالاهتمام نفسه لم يتورع أو يتأخر عن نقد الذات الإسلامية وتعرية هؤلاء الذين يعتمدون على

الخرافة لتحقيق المنافع الشخصية. ونرى عند خالده آديب آديوار التى عاشت حرب الاستقلال تمجيد البطولة لدى أفراد الشعب، وحتى فى سن المراهقة.. نرى «الصبى همت» يقوم بإعاشة العائلة، وبإرشاد القافلة إلى حيث تريد الذهاب. أما عند سعيد فائق فنرى ثورة جديدة، وعاطفة مفعمة، تدفعك أن تأخذ موقفاً، ففى «السماور» و«المنديل الحريرى» نرى عالم سعيد فائق بعد عودته إلى العالم الذى كان قد انزوى عنه طويلاً.. وكانت عودة حميدة.

وإذا كنا قد رأينا ضواحى إستانبول عند سعيد فائق، فها نحن ننطلق إلى ريف الأناضول لنشاهد تعرية كاملة للمستغلين فى القرية.. فالاستغلال لا يأتى من إقطاعى الأراضى الزراعية فقط، بل من بقال القرية، حيث نرى فى «الدكانجى» رصد الحياة فى القرية بنماذجها.. واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. وفى «الطيور المهاجرة» يقدم لنا يشار كمال نموذجا للمرأة القروية ومعاناتها بعد هجرة زوجها ليكسب لقمة العيش بعيداً عن القرية.. الأناضول عند يشار كمال تتجسد فى القرية، والقرية الصغيرة هى تجسيد لكل مشاكل الأناضول الكبير..

وإذا كان يشار كمال ركز على إنسان الأناضول بخاصة..

فإن عزيز نسين الساخر قد شمل بسخريته كل فئات المجتمع التركى، بكل فئاته وطوائفه وأعراقه، لم يترك أحداً لم يسخر منه، وإذا لم يجد فقد كان يسخر من نفسه على حد قوله هو.. كان عزيز نسين بالبسمة يعالج أصعب المشاكل.. البسمة هى سلاحه الذى يقتلع به الحقد من النفوس، لا يخشى فى الحق لومة لائم، انتقد رجال الشرطة والأمن رغم أنهم يرصدون خطواته، عرى أسلوب الضبط والربط فى «خدمة وطنية»، وركز الانتباه على المطامع والمطامح السياسية فى «مجنون على السطح»، وتغنى بالحرية الحقة فى «القطة السعيدة»، ومرغ بالذكاء الأمريكى المزعوم التراب فى قصته الجميلة «أليس فى بلدكم حمير..!!»، كما عرى الاحتكارات الأسرية والعرقية والخبث التجارى فى «مدفأة الكيروسين».

ورغبة منى أنا أيضاً فى أن أساعد فى رسم البسمة، بل فى إطلاق الضحكة، بل أقول فى إطلاق القهقهة، التى تسقط بعدها الدمعة أفضت قليلاً فى نماذج عزيز نسين، ولم أستطع أن أترك القارئ إلا مع «ناس ظرفاء» لنضحك مع هؤلاء الناس حين القراءة، ولكن لنصب عليهم جام غضبنا عندما نكتشف أنهم يتاجرون بمشاعر الجوعى والفقراء..

كان لابد من أن نعود إلى الريف التركى المعاصر، ونشاهد مشكلة تعانى منها كل المجتمعات الفلاحية ألا وهى «قطف الثمرة قبل أن تنضج بعد» ليعرض علينا فقير بايقورت زواج القاصرات رغم أنوفهن فى الريف التركى حتى فى نهايات القرن العشرين..

وإلى اللقاء فى المنتخبات التى أود أن تنال القبول .

الصفصافى أحمد القطورى

أرض الجولف . م . نصر

القاهرة

# المنتخبات

# عمر سيف الدين
# (٢٨ فبراير ١٨٨٤ - ٦ مارس ١٩٢٠)
# (١٣٠٢ - ١٣٣٩ هـ)

ولد فى جونان، وتوفى فى إستانبول بمرض السكر ١٩٢٠م .
من كبار القصاصين الأتراك. ترك ما يقرب من ١٤٠ قصة فى عشر مجموعات.. بالإضافة إلى ثلاث روايات.

تخرج فى المدرسة الحربية، وانضم إلى الجيش.. ثم استقال سنة ١٩١٠م.. وجاء إلى سلانيك، وانضم إلى مجلة «الأقلام الشابة» التى كان يرأس تحريرها ضياكَوك آلب، وضمن محرريها الأديب على جانب. وقد بدأ فى نشر مقالاته وقصصه بها.

انضم إلى حرب البلقان، وأبلى بها بلاء حسنًا، إلا أنه وقع أسيراً فى أيدى اليونانيين، وعندما عاد إلى إستانبول ترك الخدمة العسكرية، وتعاطى مهنة تدريس الأدب حتى مات سنة ١٩٢٠م، وإن كان قد اختير عضوا فى مجمع البحوث اللغوية فى

جامعة إستانبول..

تناول فى أعماله شتى الموضوعات الحياتية، وتصدى للهجوم الغربى على الحضارة الإسلامية وعرى جهل الحضارة الغربية بالثقافة الإسلامية الحقيقية، كما سخر ممن يستغلون الدين..

طبعت أعماله عدة طبعات، ومازالت تطبع وتترجم.

## المعبد السرى

## كيزلى معبد - *GIZLI Mabed*

أمس.. قدَّم إلىَّ سرمد شابا إفرنجيا كان صديقه فى السربون.. كان شابا وسيما.. رقيقا.. أشقر.. ذا عينين زرقاوين... صينية الملامح... مفتون بالشرق إلى حد بعيد.. كانت أولى كلماته إلى :

- يا عزيزى.. أنتم لا تعرفون قيمة أنفسكم.. تظنون أن أوروبا هى كل شىء.. ولذا فلا ترون محاسنكم.. أو جمالكم.. ولا تعيشون حياتكم.. أو تعرفون أسراركم..

لم أدرك فوراً مغزى هذا التقريع.. وهل هو محق.. أو غير محق فى ذلك.. فابتسمت له قائلاً :

- وما أدراك أننا لا نعيش حياتنا.. أو أننا لا ندرك جمالنا..؟

- لقد رأيت ذلك بأم رأسى - قال ذلك هائجاً - فأنا أعيش فى بيت سرمد منذ ثلاث سنوات.. كل شىء فيه تأورب.. الحياة فيه أصبحت «آلافرنجه».. من الصالون.. إلى مائدة الطعام إلى

غرفة النوم... طاقمها.. ملابس زوجته.. وأخواته.. حتى حركاتهن.. بل زينتهن.. ومشربهن أصبح «آلافرنجه» بالكامل.. آه.. أين تركية «لوتى» وشرقه الفتان.. ؟

فأجبته :

– إن تركية «بيير لوتى» فى الطرف الآخر.. على الجانب الآسيوى من البوسفور..

– نعم.. نعم.. هكذا يقولون.. ولكنه عالم يصعب الدخول إليه.. من المؤسف أنكم لا تحبون عالمكم الروحانى المنير...

فأجبته :

– ولكن هناك منا.. من يحب هذا العالم...

– وهل أنت منهم... ؟

– نعم.

قلت ذلك.. وهززت رأسى بشكل مبالغ فيه للتأمين على ما أقول.. فكم هم أبرياء هؤلاء الأوروبيون الذين لا يملكون القدرة على التخلى عن أفكارهم الثابتة.. وكان هذا الشاب الإفرنجى من ذلك الصنف.. بدأنا نتحدث عن تركيا.. وكان يصر على ادعائه بأننا لا نعرف أنفسنا.. ولا نقدر قيمنا.. فنحن نطلق على شوارعنا الجميلة.. الغنية بكل ما هو بديع ومثير.. أنها قذرة..

وأصبحنا نعطى جل اهتمامنا.. وتقديرنا لتلك المبانى الأوروبية.. المحرومة من الجمال.. ونعجب بشوارعها الفسيحة.. وبالرسوم الهندسية الأوروبية التى تقتل الطبيعة.. وصب جام غضبه.. وحنقه على الرومان.. وعبر عن نفرته.. واشمئزازه من حى «بك اوغلى» :

– «كم هو كاريكاتور غربى مقزز».... يا إلهى...!!

كانت سحنته تزداد اصفراراً.. وهو يعبر عن هذا الاشمئزاز.. فقد كانت مخيلته مشحونة بخيالات «بيير لوتى».. فقد كان يرى تخلفنا الذى نعبر عنه بالجهل.. والسفالة.. والتخلف.. على أنه «خوارق» وكان يقف مشدوها أمام الخرابات التى نسكنها اليوم.. والمزابل التى لا نهاية لها.. كان يعبر عن دهشته لعدم تمتعنا بهذه الروائع.

أخيراً رجانى أن أصطحبه إلى منزل تركى أصيل.. لم «يتأورب» بعد.. ولم تصبه حمى التغريب..

تبادر إلى ذهنى على الفور بيت مرضعتى المسنة.. التى تسكن فى حى «قره جمرك».. إنها سيدة متدينة جدا.. محافظة على التقاليد الإسلامية العريقة إلى أبعد الحدود.. تسكن وحدها مع خادمتها التى تكبرها سناً وتعيش قريرة البال بما ورثته عن

زوجها من إيراد بسيط.

فقلت :

– مادام الأمر كذلك.. فسوف أصطحبك إلى بيت إحدى السيدات اللاتى تعشن وحدهن.. ولم «تتأورب».. أو تصير غربية بعد... فشكرنى وهو سعيد بذلك.. وسألنى :

– متى.. ؟

– اليوم.. والآن.. إن شئت..

– هل هذا ممكن... ؟

– ممكن... ولكن عليك أن تضع طربوشاً على رأسك...

قلت له ذلك، وأنا أفكر فى أن هذه الزيارة المفاجئة لن تترك مجالاً للتكلف والتكاليف المعروفة عن الأتراك... وستظهر الطبيعة المثيرة والمدهشة لهذا الإفرنجى المفتون بالشرق. ولم يستطع سرمد أن يمنع نفسه من الضحك من فرحة هذا المسكين.. فودعناه... وألقينا بأنفسنا فى عربة.. ونزلنا فى حى بايزيد.. واشترينا طربوشاً أحمر قانى اللون لهذا الإفرنجى... فلبسه حسب الأصول.. ولم يوافق على ركوب الترام.. وسأل :

– هل من هنا إلى هناك كلها أحياء تركية.. ؟

– نعم كلها أحياء تركية..

– أرجوك.. دعنا نذهب راجلين..

– لك ما تريد...

وافقته على طلبه.. ومررنا من وسط أطلال الحريق.. كان الجو معتما والسماء ملبدة بالغيوم.. مليئة بالضباب.. وكأنها تشارك البيوت المتهدمة والخرابات المتناهية فى سكونها الأليم.. وفى الطريق، أصدرت إليه التعليمات وأننى سأقدمه إلى مرضعتى على أنه شركسى..

الواقع.. إنها ليست سيدة متزمتة إلى حد بعيد، ولكنها ربما لا تود أن مسيحيا فى بيتها.. هذه الحيلة البسيطة أشعلت مخيلة هذا الشاب الأوروبى، الذى كان يقف أمام تلك البيوت الخشبية التى علاها السواد، وتهدمت بعض جدرانها، وتدلت الأخشاب من سقوفها.. مشدوها.. وهو يردد.. أيواه.. ما أجمل هذا المنظر! كم هذا بديع.. !

أمكننا الوصول إلى البيت فى ساعتين.. كان المنزل عبارة عن مبنى مكون من ثلاثة طوابق.. خشبى.. قديم.. أصابه البلى بعض الشىء. طرقت الباب.. ففتحت لنا الحبشية العجوز.. فسألتها قائلاً :

– أليست أمى بالرضاعة موجودة.. ؟

– إنها عند الجيران.. تفضل..

– هيا أسرعى أيها القرنفلة العجوز.. أخبريها بمجيئى.. وبأن معى ضيفاً عزيزاً... وأننا سنقضى هذه الليلة معكما...

أخبرتها بذلك.. وولجنا إلى الداخل.. مررنا بمدخل حجرى مظلم.. ولكنه نظيف.. ثم صعدنا سلما ضخما.

ما إن رأى الإفرنجى غرفة الاستقبال حتى فغر فاه.. وتملكته الدهشة؛ فقد كانت الأرضية مغطاة بسجادة أعجمية، أما الجدران.. فقد كانت شبه مكسوة بلوحات خطية تركها والدى بالرضاعة بخط يده ذكرى لمرضعتى.. كانت الستائر الوردية اللون مسدلة؛ مما أضفى جواً وردياً على الغرفة.. جلسنا متقابلين.. كان منبهراً بالمشربيات التى تغطى نوافذ الغرفة.. عاود النظر والتجول بناظريه فى الغرفة.. توقف برهة.. ثم قال معبراً عن سعادته : «إننى أظن نفسى فى حلم جميل..» .

وما إن دخلت أمى بالرضاعة حتى قبل يدها هو الآخر.. كما فعلت أنا .. كان من حين لآخر ينسى الطربوش الذى يضعه فوق رأسه.. ثم يتدارك الأمر بحركة لا إرادية.. لم تدرك ذلك مرضعتى.. ولكنها.. قالت :

– ما تتكلمانه لا يشبه اللغة الشركسية فى شىء..

فقلت محاولاً إقناعها :

- أماه.. إنها ليست تلك اللغة الشركسية التى تعرفينها.. إنها لغة شركسية جديدة ظهرت من اختلاط الروسية بالصينية، خاصة بعد هجرة الشركس إلى تلك المناطق.. وأردفت قائلا: إن هذا الضيف الشركسى قد جاء إلى إستانبول.. وهو فى طريقه إلى الحج.. ولكن عندما ذكرت مرضعتى أن هذا الوقت ليس وقت الحج... وجدت لهذا مخرجاً.. وهو أنه أراد أن يفد مبكراً بعض الشىء إلى إستانبول لكى يتعلم بعضًا من التركية.

فقالت معقبة :

- أيواه.. ما أجمل الحج فى هذه السن.. ما أسعده.. العقبى لك إن شاء الله..

- آمين.. آمين..

أدرك الإفرنجى فجأة أنه يعرف هذه الكلمة التى نرددها.. فكررها هو الآخر بلكنته الأوروبية، محاولاً إظهار معرفته بها..

- آمان.. آمَنْ..

ألحت على مرضعتى فى أن أذهب إلى الحجاز مع هذا الشركسى الحاصل.. فقد دار الحديث حتى وقت تناول الطعام حول الحج.. والحجاز.. والمشايخ.. وقمت أنا بترجمة نصائح

مرضعتى..

ومـا إن جلسنا إلى الطعـام حـتى جـاش الإفـرنجى.. وزاد هياجه المثير.. فالصوانى الفضية التى لا تخرج إلا إلى الضيوف الأجانب قد بهرته.. كان يحاول أن يأكل بيديه تاركا الملعقة.. مقلداً مرضعتى.. فأثنيته عن ذلك. قائلاً له إن الأكل بالأيدى عادة اختصت بها العجائز.

كان يكرر الادعاء أن الجلوس القرفصاء.. أو متربعاً يعد أنسب الأوضاع للجسم البشرى.. أنهينا الطعام.. وبعد أن شربنا القهوة بدأت أشرح له المخطوطات واللوحات الخطية التى تركها والدى بالرضاعة كذكرى فى مكتبته.. فكان يعبر عن إعجابه الشديد بخطوطها وتجليدها ومنمنماتها.. ولما حان موعد النوم، صعدت معه «قرنفلة» العجوز.. وأعدت له فراشاً بجوار الغرفة المطلة على الحديقة.. وبعد أن عرفته بمكان الراحة – «المرحاض» – قلت له «بون سوار» وانزويت أنا إلى الغرفة التى تقع فى الطابق الأوسط.. فى أثناء الليل هبت عاصفة هوجاء.. وهطل مطر غزير.. وفى الصباح أشرقت الشمس عن يوم مشرق جميل..

ما إن استيقظت حتى وجدت الإفرنجى قد استيقظ، وارتدى

ملابسه كاملة.. وقد جلس فى فراشه يكتب بعض الأشياء..

- بون جور .... يوم سعيد

- بون جور مون آمى.... يوم سعيد يا عزيزى..

- ماذا تكتب.. ؟

- آه.. مشاعرى..

- هل تأثرت إلى هذا الحد ؟

- لا يمكننى أن أصف لك مدى تأثرى.. ليس فى إمكانى أن أصف لك تلك المشاعر...

نزلنا إلى الدور الأسفل.. شربنا قهوة الصباح.. قبلنا يد والدتى بالرضاعة مودعين إياها...

لكى أُغرق هذا الإفرنجى فى بحر آخر من الإثارة الشرقية أخذته مترجلين إلى جامع الفاتح... جلسنا على مقهى مواجه تماماً للجامع.. وطلبت «نرجيلة» لكل منا.. وعلمته كيفية التدخين دون أن ينفث الدخان إلى الخارج.. وما إن استقر مزاجه ودار رأسه من البهجة والانشراح.. فأردت أن أزيد من إثارته وهياجه.. فقلت :

- عزيزى.. انظر إلى ذلك المعبد الذى أمامك.. كم هو لطيف..؟ وكم هو مهيب.. أليس كذلك...؟

فتبسم الإفرنجى.. ولم أره مندهشاً.. أو مستثاراً إلى الحد الذى كنت أتوقعه.. فتملكتنى أنا الدهشة من موقفه هذا.. بالمقارنة بموقفه أمام الخرابات.. والمزابل.. والحطام الذى كنا نسير وسطه بالأمس فسألته :

- ألم يعجبك هذا الصرح الشامخ.. أم.. أنه...؟

- هذا.. هذا.. لا يعد معبداً قط...

قال هذا وهو يضيق من حدقة عينيه الزرقاوين.. وعاود الابتسام..

- ما معنى قط... ؟ إن هذا أعظم شواهق إستانبول...

- هذا.. ولا شىء... هذا ليس معبداً قط...

- ماذا تعنى.. ؟

- إننى رأيت ما هو أهم منه..

- لا يمكن ذلك.. متى رأيت ذلك الأهم؟

- هذه الليلة..

- فى أحلامك.. ؟

- أبداً...

- .. أين..

- فى المنزل...

– في أي منزل... ؟

– في المنزل الذى قضينا فيه ليلة أمس.. فتلعثمت.. مندهشاً..

– ماذا رأيت يا عزيزى.. ؟

– شيئاً لم يره «پيير لوتى»...! سراً لم يكتشفه.. ولم يعرفه أى أوروبى آخر...

كنت أستمع وأنا أبتسم...

– نعم.. لقد رأيت معبدكم السرى..

– كيف يكون هذا المعبد السرى.. يا عزيزى.. ؟

– إن إنكارك هذا هراء.. هأنذا قد رأيته... لقد رأيت معبدكم الذى أخفيتموه عن عيون الأوروبيين عصوراً طويلة.. لقد رأيت ذلك المعبد هذه الليلة..

–...

– ولكن.. ثق.. إننى سأحافظ على هذا السر.. وعندما أعود إلى باريس لن أكتب عنه فى الجرائد.. أو المجلات.. وستظل هذه الذكرى سرا مقدساً فى دفترى..

فقلت :

– إننى لا أفهم أى شىء من كلامك..

– لا تصر على الإنكار.. لقد رأيته.. رأيته..

– ماذا رأيت يا عزيزى...

– معبدكم السرى..

– ليس لنا معبد سرى أو أى شىء من ذلك القبيل..

– هراء... إنكارك هذا هراء.. ولن يجدى.

– غريب... غريب جداً..

وهززت رأسى مؤيداً لما أقول...

لم يتحمل الإفرنجى ذلك... وأخرج من جيبه دفتراً ذا غلاف فضى.. وبدأ يقلب فى صحفاته الأخيرة.. قائلاً :

– انظر.. هل أنا رأيته.. أو لم أره.. ؟

بدأ الإفرنجى فى قراءة الصفحات الأخيرة مما كتبه :

« .. صباحاً.. هأنذا.. أكتب هذه السطور وسط سعادة غامرة.. وإثارة مدهشة.. فلقد أتيت مع صديق تركى قدمه إلىَّ سرمد إلى هذا المكان المجهول فى مدينة إستانبول..

إن «چاك كازانوڤا» أو «بيير لوتى» أو غيرهما.. كانا يظنان أنهما أو أنهم قد عرفوا الشرق بعد أن جلسوا فى القصور أو الشاليهات أو دوائر «السلاملك».. واحتسوا فنجاناً من القهوة التركية.. إنهم لم يروا الشرق قط.. أما أنا فقد رأيت ما لم يره

أى أوروبى من قبل.. هنا بيت إحدى السيدات المتدينات جداً.. إنها تعيش وحيدة فى منزلها على طبيعته البدائية.. لم تزحف إليه المدنية الحديثة بعد... فالعادات.. والطرز.. وأدوات المنزل كلها «آلا توركحه».. فى المساء هيأوا منامى فى الطابق العلوى.. فاستيقظت مبكراً جداً.. نهضت من الفراش.. كان الإحساس الداخلى.. وحب الاستطلاع يهريان وجدانى وكل أعماقى.. فخرجت وأنا أسير على أطراف أصابعى.. كانت هناك غرفة أخرى مواجهة لتلك التى كنت أنام فيها.. كان بابها موارباً.. فدفعته بحرص شديد.. فما عساى أن أرى.. ؟ إنه المعبد السرى للأسرة..

الستائر البيضاء مسدلة.. يتخللها ضوء خافت.. على الجدران لوحات خطية كبيرة معلقة.. وفى الأركان قد وضعت توابيت من خشب الجوز الثمين.. وقد أحيطت بشنابر حديدية.. ومما لا شك فيه.. هو أن مومياوات محبوبيهم قد وضعت فى هذه التوابيت.. حاولت أن أفتح واحداً منها.. فلم أستطع.. فهى مغلقة بالأقفال.. ثم كانت هناك عدة أوان مختلفة الأحجام قد وضعت على أرضية الغرفة.. كان بعض هذه الأوانى من النحاس والبعض من البورسلين ومنها ما هو قيم جداً.. فمثلاً فى محاذاة

الباب.. وأمام التابوت الأول.. قد وضعت آنية مذهبة الأطراف، ولا تقدر بثمن.. وفى واحد من الأركان وضعت مزهرية خضراء فاخرة.. ولا أحد يدرى من أى تراب صنعت.. وداخل المعبد قد شدت بعض الزوايا الهندسية التى لم أفهم مغزاها، وكانت كلها من الخيوط والحبال المختلفة.. تتقاطع مع بعضها البعض فى أشكال هندسية بديعة.. تكون أشكالاً زخرفية بديعة الشكل.. وفوق هذه الزوايا المقدسة علقت بعض الأسمال التى تعود - بلا شك - إلى الأموات.. وفى الأوانى يوجد الماء المقدس.. الماء سيفيض من بعضها.. تذوقت هذا الماء المقدس.. ولا أدرى بالضبط من أين أتوا به.. هل من مكة.. أم من المدينة.. أم من أى جهة أخرى مجهولة.. ؟ طعمه حامض بعض الشىء.. مشبع برائحة خليط من الطين والتراب.. والدخان.. تذوقت الماء من جميع الأوانى.. كلها ذات طعم معين.. وفى قاع بعض الأوانى طبقة خفيفة جداً من الطمى.. لم أستطع تحديد الطعم.. بدأ قلبى فى الخفقان السريع.. فأنا كافر قد ولج إلى معبد ممنوع عليه.. أنا خائن.. فخرجت مسرعاً تحت وطأة هذا الشعور.. وكأنما هذه التوابيت جميعاً ستفتح فى لحظة واحدة.. وظننت أن الأجساد التى فيها منذ مئات.. وربما منذ آلاف السنين السابقة

ستنهض بعمائمها التركية الكبيرة.. وسوف تهاجمنى.. وخيل إلى كأن اللوحات المعلقة بدأت تهتز.. وأن الآوانى المقدسة بدأت تتزلزل وأن مياهها ستتحول فى تلك اللحظة إلى بحر هائج.. وأن تك الأجساد سوف تغرقنى فيه.. ومازالت حدة تلك المياه المقدسة.. وسكونها.. وعلويتها تعتمل فى داخلى.

.. وفى عروقى تنتشر رخاوة مبهمة... بل هى نار سرية محرقة.. وفى عقلى ظلمة.. وفى أعماقى أسمع أصداء عميقة لقبة مجهولة.. ومازلت أشعر بهياج وثورة.. وإحساس لا يمكن تعريفه..».

ولم أتمالك نفسى.. فأطلقت ضحكة مدوية أسقطت خرطوم النرجيلة من يد الإفرنجى... وكادت الزجيلة تسقط.. مما جعل الزبائن الذين وفدوا إلى المقهى لترويقة الصباح تتملكهم الدهشة.. ويركزون أنظارهم على :

فسأل الإفرنجى :

– لماذا تضحك.. ؟

فقلت :

– يا عزيزى.. أنت لم تدخل معبداً سريا.

– إذن.. أين دخلت.. ؟

– دخلت غرفة المعيشة.. والملابس..

– غرفة المعيشة ؟!!

– أنت تعرف أن منازلنا ليس بها كمودينات أو صوانات ذات مرايا كما هو الحال عندكم، فلذلك نضع حوائجنا فى صناديق.. ونضع الصناديق فى إحدى الغرف.. وتلك التوابيت ذات الشنابر الحـديدية والمصنوعـة من خـشب الجـوز الطيب، مـا هى إلا صناديق ألبستنا...

– وما هذه اللوحات المعلقة على الجدران... ؟

– إنهـا مـتـروكـات والدى بالرضـاعـة.. لقـد كـان خطاطاً.. وتحتفظ بها مرضعتى ذكرى لزوجها.. ولا تود بيعها...

لم يصدق الإفرنجى.. ومازلت أنا فى ضحكى..

– حسنا.. وما هذه الزوايا الهندسية المتقاطعة المصنوعة من الحبال والخيوط.. ؟.. وما هذه الأسمال البالية... ؟

– إنها حبال خاصة لنشر الغسيل فى الأيام المطرة.. وما هذه الزوايا والمثلثات التى تراءت لك إلا محض صدف... وما تلك الأسمال إلا الملابس التى لا تستخدم..

يبـدو أن الإفـرنجى لم يصـدق بعـد.. وفـجـأة غـيم عـيناه الزرقاوان.. وهز رأسه.. وكأنه قد اكتشف كذبى.. فقال :

– وما تلك المياه المقدسة ؟ ماذا ستقول عنها هى الأخرى؟

قلت :

– لقد هطل المطر ليلاً.. ومنذ أن عرفتُ مرضعتى وأنا أعرف أن غرفة معيشتها يتناقط من سقفها الماء.. وحتى لا تتبلل الأرضية بالماء المتساقط لابد من أنها طلبت من «قرنفلة» أن تصف هذه الأوانى تحت الأجزاء التى يتناقط منها الماء...

ذلك الإفرنجى الذى لم يختلف عن بنى جنسه.. فهو وهم ظنوا أن لوحات «ما شاء الله» المعلقة فوق منازلنا.. ما هى إلا إشارات لشركة تأمين قومية.. وأن فردة الشبشب، أو حدوة الحصان التى نعلقها درءا للحسد.. ما هى إلا أحذية ومخلفات قد سقطت من بعض اللصوص وهم يقفزون من سطح إلى آخر.. أو من خيولهم عند هروبهم. توقف قليلاً.. مفكراً.. وشد نفساً عميقاً من نرجيلته وكتم أنفاسه حتى يبتلعه.. ثم دس دفتره الذى لا يزال مفتوحاً فى جيبه.. أما أنا فمازلت أضحك.. ولم أتمالك نفسى..

قال :

– لا تضحك يا عزيزى.. فحتى غرف معيشتكم مبهمة.. سرية.. تتمتع بحالة روحانية.. وتوحى بجو عرفانى لا يمكن

فهمه.. أو إدراك كنهه.. كما لو كان...

– كما لو كان ماذا... ؟

– كما لو كان.. شيء.. أنتم عميان... لا ترون أنفسكم.. هكذا.. والسلام. لم يستطع هذا الإفرنجي أن يعبر عن هذا الشيء الذى يراه هو ولم نره نحن فى أنفسنا بأى شكل من الأشكال..

ومن المعلوم أن الشرقي مهذب في رده.. بخاصة أمام ضيفه.. فبينما لاح على طرف شفاهى رد :

«.. إذا كنا نحن عميان لا نرى ما فينا من محاسن.. فهأنتم بكم لا تعبرون عما بداخلكم..»، ولكن أمسكت عن الكلام.. ولم أتفوه بأى شيء بعد...

# القصر المسحور
## پـريلى كشكِ - *perili kosk*

التفت «سرمد» بك إلى الحارس الذى يسير خلفه وقال :

– ها هو قصر آخر للإيجار..

كان هناك بناء أبيض أنيق، أمـام غابة صـغيرة من أشـجار الحور والأرز.. كان لمعانه يزغلل العيـون كما لو كان من المرمر الخالص.. وقد غطت الأعشاب البرية والطفيلية معظم معالم هذه الغابة الصغيرة . وعلى باب سور الحديقة الحديدى علقت لوحة كتب عليها «للإيجار» فهز الحارس رأسه.. وقال :

– هيا بنا يا سيدى.. هيا.. إن هذا لا يناسبك..

– لماذا يا عزيزى.. ؟

– من الأفضل أن تستأجر البيت الذى رأيناه منذ قليل.. فـهو بيت صـغيـر.. ولكنه مـبارك.. ومُشـرِح.. فـمن يسكنه يرزقـه الله بمولود ذكر فى السنة نفسها..

– كيف يتسع هذا البيت الصغير المكون من خمس حجرات

لاثنى عشر فرداً.. دعنا نرى هذا.. إنه يبدو مناسبا لنا هيا بنا..

عاود الحارس رفضه بإصرار بإشارة قاطعة وقال :

– لا يمكنك سكناه يا سيدى...

ولكن سرمد بك لم يستطع أن يبعد عيناه عن ذلك القصر.. فشرفاته الواسعة تحيطه من كل جانب.. وكأنها تحنو على أعمدتها.. ومنظره وسط الحديقة والغابة كأنه دجاجة نمساوية بيضاء قد رقدت فوق أفراخها.. «فمنذ عشرين سنة.. منذ أن أصبحت رب أسرة كبيرة، وأنا أحلم.. أتخيل عشاً مثل هذا..»، وبنغمة عصبية سألته قائلاً :

– لماذا لا يمكننا سكناه.. ؟

– يا سيدى.. إن هذا القصر تسكنه العفاريت..

– أى عفاريت... ؟

– عفريت من الجن.. يظهر ليلاً.. ولا يترك السكان فى راحة وأمان.

سرمد بك ليس من ذلك الصنف من الرجال.. إنه لا يصدق ما يراه بعينيه أو يسمعه بأذنيه فقط.. فما لم يمسكه بيديه.. أو يتحسسه بنفسه فلن يصدق.. إن العين أو الأذن كثيراً ما تخدع.. الكذب كله كثيراً ما يلج إلينا من هذه المنافذ الأربعة..

أما اليد.. واللمس لا يمكن أن يبلعا «المقلب».. كما أن الخرافات والمعتقدات الباطلة جميعها تهرول إلى الأذن والعين أولاً لمهاجمة عقولنا.. ضحك سرمد بك.. وقال :

– إن العفاريت لا يصيبنا منها ضرر..

فنظر الحارس إليه مليا.. وكأنه قد سمع سباً علنيا.. فقال:

– إن جميع من سكنوه.. قالوا ذلك أولاً.. ثم لم يتحملوا شهراً.

– ما عليك أنت من ذلك.. هيا بنا لنراه..

– المفتاح لدى صاحبه..

– منَ هو صاحبه... ؟

– الحاج نيازى أفندى.. الذى يسكن فى تلك الڤيلا المجاورة.

– هيا بنا.. فلنحضر المفتاح...

– أمرك.. ولكن...

عاودا سيرهما نحو ڤيلا قديمة متدثرة بما حولها من أشجار كثيفة بحيث لا يرى منها سوى الطابق العلوى الذى بهت لونه الأحمر... فى الطريق.. قص الحارس العجوز تاريخ القصر الأبيض.. فمنذ عشر سنوات وكل من دخلوه لا يسكنونه لأكثر من شهر واحد... فى البداية يتراءى لهم العفريت.. ثم بعد حين

يقذفهم بالحجارة الكبيرة، وبعدها يحطم عليهم الزجاج.. لا يدعهم يذوقون طعم الراحة.. اثنان أصيبا بسكته قلبية.. وثالث أصيب أولاده بالجنون.. ورابع أسقطت زوجته جنينها وهو فى الشهر السادس..

عبرا من تحت ظلال أشجار اللوز المزهرة.. التى ترعى تحتها الأغنام، وطرقا الباب الأخضر لتلك الڤيلا الحمراء.

كان الحاج نيازى أفندى من موظفى الأوقاف القدامى.. وقد أخذ تعويضات وترك العمل.. بدأ يتعيش من شراء وبيع وتأجير المساكن، وبالرغم من أنه باع ما يزيد عن مائة بيت خلال السنة الماضية.. فإنه لم يسمح لنفسه بأن يزج بقصره المسحور هذا فى بيعه وشرائه.. ولم يحاول قط أن يبيعه لأحد المشترين السذج الذين يأتون من «خانيه» أو «قونيه»... ودائماً ما كان يقول: «ما لزوم ذلك.. إنى أخاف الله..»، ولم يكن يخفى قط كون قصره مسحوراً.. أو مسكوناً بالعفاريت.

فتح الباب بنفسه.. أخبره الحارس بأن سرمد بك يود أن يتفرج على القصر من الداخل.. فقال :

– على الرحب.. والسعة.. تفضلا..

سار أمامهما.. وعبروا الحديقة.. وأخرج الحاج نيازى أفندى

من جيب جبته الصفراء مفتاحاً برونزيا.. ففتح باب الحديقة.. ووجه حديثه إلى سرمد بك قائلاً :

– هذا المفتاح يفتح القصر أيضاً..

ساروا جميعاً.. كانت الحديقة موحشة للإهمال.. وعدم الاهتمام بها.. وبسبب هذا الاهتمام.. تحولت إلى وادى لم تطأه الأقدام.. كما كان يسيطر هدوء مخيف وموحش على الغابة الصنوبرية التى تقع خلف القصر... لم يدخل الحارس إلى الداخل، بل بقى عند الباب.. قام سرمد بك بالتجول فى القصر مع صاحبه.. ولم يجد ما يطلبه.. أو يقوله زيادة على ما هو موجود فى القصر.. فالدور الأرضى كله رخام.. كل شىء موجود.. الصهريج.. الحمام.. البانيو.. البئر.. عشة الدواجن.. حظيرة الدواب.. إسطبل الخيول.. كله تمام..

– كم إيجاره... ؟

– لا أطلب مبلغاً كبيراً.. مائة وثمانين ليرة سنوياً.. وأريد ثلاث سنوات مقدماً..

– لماذا.. ؟

– أحسنت صنعًا... لقد سألت لماذا.. ؟ أصغ إلى يا سيدى... إن أعدائى.. وحسادى يرددون الإشاعات بأن قصرى

مسكون بالعفاريت.. وأنه قصر مسحور... حتى يظل بدون مستأجر.. وما إن يدخله مستأجر حتى تحاصره الأقاويل والإشاعات.. لدرجة أن المستأجرين يصدقون تلك الأكاذيب التى يسمعونها.. ويظنون أنهم رأوها.. وأحياناً يتركونه فى وسط الشتاء.. ويغادرونه.. وهناك من هم أسوأ من ذلك، فبعضهم ينضم إلى مروجى الأقاويل.. والإشاعات.. ويأكدون رؤيتهم للعفاريت.. وإذا استمر الحال على هذا المنوال سنتين.. فلن أستطيع أن أبيعه.. ولا حتى تأجيره..

فسأل سرمد بك:

– منذ متى وقصركم خال.. أو بمعنى آخر.. كم بقى القصر خالياً... ؟

– فى الواقع... حتى الآن لم يبق خاويا قط.. ولكن ربما تسيطر أقوال الجيران على المستأجر.. فلا يبقى طويلاً.. ويهرب..

– ولكن أنا لا أخاف...

– إن شاء الله...

– لكن المقدم هو المشكلة بالنسبة لى..

– ماذا أفعل يا سيدى.. لقد لدغت أكثر من مرة..

سرمد بك قد أعجبه القصر.. إلى جانب أن إيجاره لا يعد شيئاً.. فهو رخيص.. فأصحاب البيوت يطلبون الكثير فى ثلاث غرف فقط...

على الفور.. فى اليوم نفسه.. كتبوا العقد.. وتم دفع المقدم.. وبعد أن خرجا من بيت الحاج نيازى.. قدم سرمد مبلغاً من المال بقشيشا للحارس.. قال الحارس :

- واأسفاه على فلوسك يا سيدى.. لن تبقى فيه ثلاث سنوات.. ولا حتى ثلاثة أشهر..

- سترى..

- سنرى... إن الحاج دائماً ما يفعل ذلك.. فهو يتقاضى ثلاث سنوات مقدماً.. ولكن لم يبق أى مستأجر.. حتى ولو لصيف واحد.. وكانت تضيع عليهم المبالغ التى دفعوها...

***

بعد أسبوع.. انتقل سرمد بعائلته إلى القصر.. كانت عائلته كثيرة العدد.. وهو من أصحاب الحظ والطرب... يقضى ليله بين الشراب والطعام واللهو مع الأهل والأصدقاء.. ولم تنقض ليلة واحدة بدون ضيوف.. أقرباء وغير أقرباء.. سرمد بك تركى الأصل.. أوروبى المشرب والسلوك.. اتخذ من القاعدة الأوروبية

«فى النهار جفاء.. وفى الليل صفاء..» دستوراً لحياته.. أولاده يذهبون إلى الدراسة نهاراً.. بناته يعملن فى متاجر كبيرة.. زوجته مدرسة بيانو.. لم يكن فى البيت من لا يعمل سوى والدته المسنة.. التى تبلغ من العمر خمس وسبعين سنة.. وإن كانت هى المشغولة بشئون المطبخ والخدم وما شابه ذلك.. كانوا يتناولون طعام العشاء قبيل منتصف الليل.. ولم يكن أى منهم يجلس بعد الطعام قط.. بل يتجه كل إلى فراشه فورا.. لم ينقض على هذا الحال أكثر من خمسة عشر يوماً... ذات مساء.. وفجأة انطلقت صرخة مدوية من الطابق الأرضى؛ مما جعل الخادمة «أرتيميا» تهب مذعورة وتندفع إلى الطوابق العليا وهى تصرخ مفزوعة.. وأخبرت الجميع بأنها رأت شبحا أبيض يتجول بين أشجار الصنوبر.. فقالوا لها :

– لقد هيئ لك ذلك..

ولكنهم لم يستطيعوا إقناع بقية الخدم.. فقد رأوا الشبح نفسه.. خرجت كل العائلة إلى الشرفة الخلفية.. فرأوا الخيال الأبيض الذى أشارت إليه «أرتيميا» بإصبعها.. كان الشبح يقف تحت الأشجار.. وكأنه ينظر إلى القصر.. فرك سرمد بك عينيه.. وقال :

– واى.. واى.. ياله من ثعلب كبير..!

لكن زوجته.. وبناته.. وأطفاله.. قد تملكهم جميعا الخوف..
فقالت البنت الكبرى :

– أى ثعلب يا سى بابا.. ها هو الشبح أمامنا.. ألا تراه..؟

– أرى..

– إيـ.. إذا ما معنى أن تقول ثعلب... ؟

– منذ أن دخلنا هنا.. وأنتم تسمعون خرافات عن الجن والعفاريت والحوريات.. والأشباح.. هل سمعتم غير ذلك.. ؟ وكل قادم يحكى شيئاً جديداً.. لذلك فنحن نعيش تحت هذا التأثير.. كلنا نرى شيئاً غير موجود...

– هذا ليس ممكناً...

– لماذا...؟

حكى لهم سرمد بك عن الساحر «قازانوف» الذى أقنع كل من فى المسرح بأن الساعات التى فى أيديهم تشير إلى وقت خطأ.. وقال لهم «.. إن أعيننا ترى الكذب الذى يدخل من آذاننا... وإذا ما حاولنا لمسه بأيدينا.. فإننا نفقده..»، ثم نهض.. ولم يستمع إلى توسلات زوجته بألا يذهب.. اندفع نحو الحديقة ليلمس الخيال بيديه.. اتجه نحو الغابة ولكن الخيال هرب.. ولم

يعد له من أثر... لم يستطع أحد ممن فى البيت أن ينام هذه الليلة.. عدا سرمد بك..

تعودوا على أن يروا هذا الخيال كل ليلة.. وسرمد بك مصر على أن يلمسه بيديه.. وما إن يخرج لذلك حتى يهرب الشبح.. وذات ليلة والجميع مستغرق فى نومه.. وإذا بهزة عنيفة زلزلت القصر كله... هرعوا إلى الشرفات فلم يروا شيئاً.. فى الصباح.. وجدوا صخرة كبيرة فى أعماق غرفة الطعام.. قالت أم سرمد : «ما لم تخرجنا من هذا القصر فلبنى حرام عليك».. ولكن أيعقل أن يسكن سرمد بك شهرين فقط بمبلغ خمسمائة وأربعين ليرة.. ؟!

ولكن أيضا هذه الحجارة المتطايرة.. والصخور الضخمة تطير النوم من أعين الجميع.. وتتركهم فى دهشة وخوف رهيبين.. وفى كل مرة يتجه سرمد نحو الشبح، فلا يتمكن من أن يمسكه أو يلحق به.. ولما سمع الجيران بالحجارة.. قالوا لهم: «ما لم تخرجوا فسوف يُكسر الزجاج»، وكلما تذكر سرمد بك المادة التى تنص فى العقد على أن يقوم المستأجر بإصلاح كل الخسائر يزداد ضيقه وحنقه.. وصمم على عمل شىء قبل أن تبدأ مرحلة تحطيم الزجاج هذه.. رويداً.. رويداً بدأت الوساوس

تنتابه.. وبدأ اعتقاده الراسخ فى التزلزل.. أخيرا قرروا إخلاء القصر.. والخروج منه.. ولكنهم لا يجدون سكناً آخر.. وبدأوا يسمعون آلاف الحكايات الأخرى عن القصر:

إن مكان القصر كان مقبرة.. مكان المطبخ يرقد أحد الأولياء منذ خمسمائة سنة.. مكان القصر كان أطلالا خربة.. لكن سرمد بك - على الرغم من استمرار تساقط الحجارة، وتحطم الزجاج - لا يعتقد فى وجود الجان والعفاريت.. وهذا الشبح لماذا يهرب بين الأشجار بالذات.. ؟ هنالك يكمن السر.. حيث لا تطوله يد أحد... فكر سرمد بك أن يختبئ بين الأشجار والحرش ذات ليلة، ويهاجم هذا الشبح من الخلف.. أو يمسه بيده.. قامت القيامة.. ولم يوافقه على ذلك أى أحد فى المنزل.. وكانوا يرددون: «إن الجن يخبطك هناك فورا..».. سرمد فى أعماقه لا يصدق هذا قط.. فى المساء التالى كمن بين الأشجار... وصعد فوق أحد الفروع المتدلية من إحدى الصنوبرات.. انتظر.. كان يكتم أنفاسه.. وحتى منتصف الليل، لم يكن النوم قد اقترب من جفون من هم فى داخل القصر.. كان سرمد بك يرى قلق المساكين.. ومجيئهم.. ورواحهم أمام الشرفات.. وفجأة زادت ضربات قلبه.. فها هو الشبح... بعد أن بدا.. سكن فى مكانه..

كان سرمد بك واثقاً كل الثقة بأن الشبح سيتطاير كالظل بمجرد أن يلمسه.. إلا أن ركبتيه بدأتا فى الارتعاش.. فهون على نفسه قائلاً: «.. أنا لا أخاف ولكن جسمي يخاف..».. نزل من فوق الفرع دون ضوضاء.. سار خلف الخيال.. فقد كان يرى خطوطه واضحة.. لم يشعر الشبح باقترابه قط.. اقترب.. لمس الجسم الأبيض.. فانتفض الشبح بشكل رهيب.. ولكنه لم يختف.. التفت.. وما إن رأى سرمد بك حتى ولى الأدبار...

سرمد بك حينما لم ير تلاشى الشبح بمجرد لمسه.. زاد اقتناعه بأنه ليس بجان.. أو عفريت.. فلم يفلته.. طارده.. قبض عليه حينما كان يحاول تسلق خشبة مسندة إلى جدار فى نهاية الغابة.. كان قويا.. وعندما أدرك سرمد بك أن الشبح لن يقاومه.. وأن خرافة «خبط الجن»، ليس لها مكان هنا.. سيطر عليه.. وامتطاه قائلا :

– سأريك كيف يسخر منك كل الناس..

أخذ يقوده.. ويهمزه فى اتجاه القصر.. وصاح على من هناك..

– أحضروا مصباحاً حتى نرى سحنته...

نزل سكان القصر جميعا إلى باب الحديقة..

- إنه إنسـان... ألم أقل لكم إنه ليس فى عـالمنا الآن جن ولا عفاريت..؟

مـهـمـا حـاول نزع الملاءة البيـضـاء من علـى وجـه الشبـح كـان يقاوم.. فشد سرمد الملاءة بقوة.. فبهت الجميع.. فها هو الحاج نيازى أفندى وقد أشعث شعر لحيته وشاربه.. حـاول المسكين جاهدا تغطية وجهه بيديه.. وقد تمزق جلبابه الأبيض...

أطلق سرمد بك قهقهة مدوية..

صفق الخدم.. والأولاد.. والبنات..

أما الجدة.. فقد قالت موبخة :

- لماذا ترهب أمة محمد... أجننت يا رجل... ؟

فأجابها سرمد قائلاً :

- أنا أعرف سبب ذلك..

طلب سرمد بك من ابنته الكبرى أن تسرع إلى المكتب، وتأتى فـوراً بورق وقلم «الكوبيـا» وعـقـد الإيجـار.. أمـا الحـاج نيـازى أفندى، فقد تجمد فى مكانه.. ولم يجب على أى سؤال وجه إليه.. بل كان يولى وجـهه شطر الظـلام.. ولما وصل عقد الإيجـار وقلم «الكوبيا» قال سرمد آمراً :

- هيـا.. أمـسك بالقلم... وإذا كنت لا تود أن ترى جـزاء مـا

ارتكبت من جرائم التخويف والإرهاب والإزعاج وإسقاط الأجنة ووقف القلب.. فاكتب كل ما أمليه عليك الآن ووقعه فوراً..

أمسك الحاج نيازى أفندى بالقلم بشكل تلقائى.. كتب بدون تردد :

«.. لقد تسلمت أنا نيازى... من سرمد بك.. مستأجر قصرى الإيجار السنوى لمدة ست سنوات مقدماً.. والذى يبلغ ألف وثمانين ليرة...».

- هاه.. هكذا..

-...

وقع نيازى على ما كتب.. وبالرغم من أنه لم يكن متدثراً بشكل كامل بالملاءة البيضاء هذه الليلة.. فقد اتجه نحو المكان الذى كان يعتبره سراً...

***

تعجب الجميع من طول إقامة سرمد بك فى هذا القصر المسحور.. والمسكون بالعفاريت لمدة سنتين متواصلتين... وكلما قال الجيران للحاج نيازى أفندى:

- يبدو أن عفاريت قصرك قد غادرته إلى قصر أو منزل آخر، وأن مستأجرك الجديد لن يغادره قط...

فكانت تصفر سحنته.. وترتعد لحيته أولاً.. ثم يغضب.. هامساً بالرد التالي :

– لا طهارة.. ولا وضوء.. ولا صلاة.. ولا قيام.. ولا صيام.. النساء قبل الرجال.. البنات.. والأولاد.. والعيال.. كلهم.. كلهم سكارى.. جميعهم من المساء حتى الصباح سكارى.. لهذا.. فلا الجان.. ولا حتى الشياطين الحمر تستطيع أن تراهم...

# خالدة أديب آديوار
## ( ١٨٨٤ - ١٩٦٤م)
## (١٣٠٣ - ١٣٨٤ هـ)

خالدة أديب آديوار من أشهر الأديبات التركيات فى القرن العشرين، وهى أكثرهن إنتاجاً فى ميدان الرواية والقصة خلال القرن الذى عاشته.. أنهت دراستها فى الكلية الأمريكية فى أسكداد سنة ١٩٠١م، وكانت تتلقى دروساً خاصة فى الفلسفة والرياضة واللغة العربية والموسيقى.

تولت التدريس والتفتيش فى مدارس البنات فى إستانبول ولبنان والشام. حضرت إلى مصر سنة ١٩٠٩م خلال فترة الصراع بين الاتحاديين والسلطان عبد الحميد الثانى.

انضمت إلى الحركة الوطنية خلال حرب الاستقلال التركية عقب الحرب العالمية الأولى.. ومنحها كمال أتاتورك رتباً عسكرية..

عايشت ظروف الحرب.. انضمت إلى هيئة التفتيش عن

مظالم القوى اليونانية خلال الحرب، وتجولت فى معظم بلدات وقرى الأناضول ووقفت بنفسها على المآسى من ناحية، وبطولات المرأة والصبية فى تلك البقاع من ناحية أخرى، فجسدت فى أعمالها كل هذه المآسى والبطولات..

اختلفت مع الزعيم أتاتورك عقب انقلاباته الاجتماعية التى أحدثها فى البلاد؛ فغادرتها هى وزوجها الطبيب العالم عدنان آديوار.. وتجولت بين جامعات أوروبا وأمريكا والهند. وعكست فى أعمالها الصراع بين الشرق والغرب، واختلاف القيم، ورغم ثقافتها الغربية فقد كانت تنتصر للشرق العريق..

ترجمت أعمالها.. جسدتها السينما التركية.. تثور حول جذورها العرقية والدينية بعض الشكوك.. إلا أن دورها وتأثيرها ودفاعها عن الثقافة التركية الشرقية لا يختلف عليه أحد.

# الصبى همت

# *COCUK HIMMET*

# چوجوق همت

كان مرشدنا إلى قرية «الوانلر» شيخا هرما.. الحريق قد أتى على الجزء الأعظم من القرية.. الجميع متعب.. منهك.. عيون أهل القرية الحائرة تنظر فى استسلام إلى الضجة التى تصدرها السيارة «اللورى» والتى كانت كالوحش بالنسبة لهم.. كان اليأس والجوع والصعاب كلها أصابت الناس بعدم الاكتراث بما يحدث، ولم يكن لدى الجميع أى أمل لكثرة ما سمعوا من وعود.. لم يرض أحد بصحبتنا إلى قرية (عشاق..) فماذا عساهم أن يفعلوا بالنقود التى ستمنح لهم.. ؟

ليس لديهم ما يشترونه بها.. !! إلا أن شيخاً منهك القوى نحيف الوجه.. قال :

– أنا أعرف الطريق حتى (اينى).. ويمكننى أن أصحبكم إلى عشاق لو منحتمونى أوقية من الملح...

مع عتمة الغروب.. هدرت السيارة اللورى.. وبدأت تلتهم طرقات برارى الأناضول الخاوية..

كان من بين ركاب السيارة صحفيون من إستانبول.. هدفهم استقصاء الأمر.. وجمع المعلومات حول ما خلفه الجيش اليونانى من مآس.. وكنت أنا مهتمة، بل مكلفة بكتابة تقرير عن المآسى فى الجبهة.. كان هدفهم إطلاع العالم عبر وكالات الأنباء على مصائب الترك بعد الحرب..

الطبيعة.. هى صاحبة الكلمة العليا فى الأناضول.. الغابات كثيفة مكتظة.. الوديان سحيقة.. الحواف متهاوية.. الرياح قاسية تجمد الأوصال.. الإنسان لا حول ولا قوة له هنا..

أمضينا عدة ساعات، وكأنها دهر من المشاق.. قرية اينى تقع على رابية فوق جدول جار.. كانت القرية قد تحولت إلى خرابة رمادية.. ولجت السيارة طريق القرية وهى تهدر وتزأر.. الأجواء خاوية.. لا معلم من معالم الحياة.. آدم يخلق من جديد.. وكأنه فى انتظار حواء جديدة.. يتراءى على الجدول قطيع من الحيوانات التى يتواءم عواؤها مع صفير الرياح الهائجة، وكأنها جميعاً تستقبل مجىء الظلام.. فى وسط هذا الجو.. حدثت نفسى :

– يا حسرتاه.. لقد خوت القرية من سكانها.. لم يعد بها من نحادثه.. فكيف نرصد الحالات إذن..؟

بعد مدة.. رأيت ظلين.. هناك اثنان يصطليان بالنار.. ويشعلانها فى كوة من الصخور.. هذا هو الضوء الوحيد الذى ينعكس على صفحة مياه الجدول.. الظلام مخيم على الرابية.. وعلى الخرابة البادية.. مصابيح السيارة عينان تخترقان الظلام.. أوقف السائق المحرك المهول أمام الجسر.. تحركت أشباح سوداء وسط الظلام المخيم.. مصابيح السيارة مازالت تنير الطريق.. ظهر تحت الضوء رجل يرتدى «جبة» سوداء.. صاحب لحية سوداء أيضاً.. وعلى رأسه عمامة بيضاء.. تحدث الرجل فى صوت وقور جلى.. لن أنساه طوال حياتى :

– سيادة أونباشى خالدة.. كنا ننتظركم فى محطة «اينى».

– وكيف عرفتم أننا قادمون... ؟

– فى المحطة.. يعرفون ذلك.. لقد أخبرونا أن هيئة التحقيق ستصل... كان هذا الصوت؛ وكأنه إشارة بدء السباق.. تحرك الصحفيون.. أشرعت الأقلام.. قفزوا من السيارة.. استلوا أقلامهم وأوراقهم.. تدفقت الأسئلة.. تحلقوا حول الأشباح السوداء.. عدد البيوت التى احترقت.. عدد الرجال القتلى.. عدد

الذين ماتوا من أهلها.. ؟.. اقترب الرجل صاحب اللحية.. والجبة السوداء نحوى.. تحت ضوء مصابيح السيارة كان يلتهم بعينيه كل ملاحظاتى :

– عدد البيوت... ؟ القرية كلها التهمتها الحرائق المتعمدة... عدد القتلى ؟.. لم يبق على قيد الحياة إلا أقل القليل.. عدد القتلى عند الله.. القتلة يأتون.. يهجمون، فيقتلون، يسلبون.. ثم يحرقون.. لم يتركوا أيا من ذوات الروح.. هكذا.. وكما ترون.. ليس هناك منزل قائم.. ولا مأكل متوفر.. ولا ملبس موجود.. لا عليك من كل هذا... فقط قولى لعصمت باشا شيئا واحدا آخر..

– ولكن مهمتى تسجيل هذه الأشياء..

ارتعش صوته.. احتد أكثر من ذى قبل.. وقال :

– إن مهمتك.. ووظيفتك هى أن تذكرى ما نحن فيه من معاناة.. إن تسجيل البيوت المحترقة.. والرجال القتلى لا يشبع البطون.. ولا يقيم لنا سقفاً يحتوينا.. قولى لعصمت باشا...

كانت نبرة آمرة قد سيطرت على صوته المحتد.. كأنه أمر من هؤلاء الذين يكافحون من أجل الحياة... فجأة صمت..

فسألته طائعة :

– ماذا تود أن أقول له... ؟

– نريد بيوتا.. الرياح عاصفة.. نصال حادة.. ليس لدينا خن واحد نجمع فيه شتات الأطفال.. قولى له.. هناك فى بلدة «عشاق» أشجار كثيرة وأسرى من اليونانيين.. فلتصدر الأوامر.. فنقيم على الفور البيوت.. قولى له.. نريد خبزا.. البطون خاوية.. مخازن القوات العسكرية على مسافة ساعة.. فلتصدر الأوامر لكى يعطونا منها القمح.. لنطعم بطون الأطفال والعيال.. حتى وإن كان بدون طحن... الصوت ملىء بالألم.. معجون بالإشفاق.. يواصل الحديث. الكبار يقدرون الأمور.. يصمتون.. يصبرون.. أما الصغار.. فلا يملكون إلا البكاء.. العويل وبقدر شدة الجوع يكون البكاء.. اذكرى للباشا أنهم يبكون.. صبحاً.. ومساء.

خيل إلى أن عواء ابن آوى.. وصرير الرياح هو بكاء الأطفال الجوعى.. ونحيب الأمهات اللائى جف لبن صدورهن.. ولم تعد أى منهن تملك سوى التلويح بيدها متحدية الجوع.. متوعدة الدنيا.. بل الحياة وحظها العثر..

عدت إلى نفسى.. وقلت له :

– كتبت ما قلت.. وتابعت :

– الآن نحن فى حاجة إلى مرشد يوصلنا إلى بلدة عشاق...

أخذوا تحادثون.. ويتشاورون فيما بينهم... ثم قالوا :

– هذا الصبى يدلكم على الطريق حتى قرية «شوسه».

***

تغير الوضع والحال.. لم تعد أغطية الرأس.. أو المعاطف العسكرية المبطنة بالفراء.. أو الأحذية ذات الرقاب الطويلة تجدى نفعا.. إنها لم تعد تدفئ فقط، بل أصبحت تحرق.. لم يكن أى منا قد ذاق طعاماً طوال يومه.. لم نكن نملك سوى نصف جوال من السميط الجاف.. وكان يخص السائق.. وحارسنا فقط.. إلا أن أيا منهما أيضاً لم يذق شيئاً.. ولم يكن بيننا من لديه رغبة فى أى أكل حتى لو وجد.. كان الجميع منذ أمد قصير يتشاكى من الجوع.. كان السائق المجند يتعامل فى صمت مع الموتور.. اعتملت فى نفس المجند رغبة خفية.. سرعان ما عبرت إلى.. فهمست له :

– أيمكن أن نعطى هذا البقسماط للأهالى.. ؟!

انطلقت كلماتى.. وكأنها فتيل.. أو شرارة طائشة أشعلت النيران.. لست أدرى بالضبط كيف حدث هذا.. ؟.. أخذ الجنود يوزعون ما بالجوال على الأشباح المرتعدة..

انبرى صوت هادئ.. وواضح :

– ربما لا تجدون خبزاً فى بلدة «عشاق» أيضاً.. فليبق هذا معكم..

أخذت السيارة فى الهدير والزئير مرة أخرى.. ولجت وسط الظلام والرياح والصمت.. كان مرشدنا الجديد.. الصبى همت يقف على رفرف السيارة لعدم وجود مقعد له.. كان وقوف بجانبى.. كنت أتفحصه.. أنظر إلى هزال سواعده الممسكة بالعربة.. صبى نحيل.. تمكن منه الهزال.. ولكن فى عينيه صمود.. وتصميم.. لم تنل منه صرخات أطفال القرية التى غادرناها.. وإن كانت مازالت تزلزل كيانى.. تملكنى التفكير.. كم من القرى أكلتها الحرائق.. كم من القرى التى طفتُ بها صارت رماداً وأهلها أشباحاً.. وكتب عليهم الجوع والعرى.. بل الموت..

وأنت تسير فى الأناضول.. فكأنك تعيش الخليقة فى بدء نشوئها.. جدباً.. خراباً.. وقفاراً.. كان المطلوب لهذه الأمة التى كتب عليها أن تعيد بناء تركيا الجديدة أن تمتلك من القوة.. والقدرة.. والإصرار ما لا طاقة لبشر عليه.. فالشعب بلا مساكن ولا طعام.. شعب نال منه اليأس.. بينما الآخرون يتغنون بانتصاراتهم المزعومة.. كانت أنظار الشعب تشخص نحو الموت فى كل مكان.. تتقاذفهم الهواجس.. من الذى سيبنى الوطن الجديد ؟.. وكيف يتم البناء.. ؟

أيقظنى من شرودى.. صوت صبى.. صوت حاد.. مصر.. هادئ.. وهو يشير:

– خالتى.. هنا جدول «جوزكَون»..

التفت نحو الصبى.. كان رأسه دقيقاً.. طويلاً.. نحيلاً.. بشرة أشراقه متجمدة.. برزت عظام ذقنه بشكل ملفت... كان الصبى رغم الجوع والبؤس واليأس يستثير الأعماق... يشحنها بالحب.. ويشحذها بقوة غريبة.. دفينة.. قوة تدفع الإنسان للتمسك بالحياة.. لم أتمالك نفسى.. فسألته:

– همت يا ولدى.. لماذا لا تأكل البقسماط.. ؟

– سآكله فيما بعد يا خالتى...

– لا.. هيا كله الآن.. ثم نتحدث فيما بعد..

انتظرته.. التقط بعض اللقيمات من عبه.. كانت عظامه تبرز وهو يمضغ البقسماط.. تملكتنى رغبة جارفة فى أن أحتويه.. وألف رأسه الصغير بمعطفى.. تمنيت أن أهدهده كما هدهدت ابنى فى طفولته.. إلا أن هذه الرغبة لم تدم طويلاً.. لقد أدهشنى بنضجه.. هذا الوجه الصغير جعلنى أطرد الرثاء.. أو العطف.. بدأت أحاول أنا أن أكسب وده..

حدثنى بافتخار واعتزاز عن أنه فى الثالثة عشرة.. وأنه قد

فقد أبويه وهو فى سن السابعة.. وأنه ظل وحيداً فى حجر جدته العجوز.. وأخته الشابة.. واثنين من الثيران.. إنه هو الذى افلح الأرض.. أرض الشيب والبكر سنين عدة.. شارك فى جمع المحاصيل من حقول الغير.. عمل لكى يطعمهما.. إنه زوَّج أخته... لكن الطاعون الذى اجتاح الأنحاء أدى إلى نفوق ثوريه...

زلزلتنى هذه الفقرة الأخيرة.. فسألته :

– ماذا فعلت.. ؟

هز منكبيه فى هدوء... لا شيء... ماذا كان يمكننى أن أفعل.. ؟!.. واصل الصبى عمله بدون الثورين.. عمل كعامل أجرة.. فلَّح حقول الأرامل.. استمر عمله ثلاث سنوات متواصلة.. تمكن بعدها من شراء جاموستين مليحتين...

زادت هذه الفقرة أيضاً من دهشتى.. وإثارتى... طفل يتيم.. فى التاسعة يشترى بجهده الخاص جاموستين فى الأناضول القفر الخراب.. إن هذا لهو أرفع درجات البطولة التى عرفتها.. هذا المعدن من البطولة هو الذى حول أستراليا من خراب إلى عمران.. وقهرت وحشية أمريكا وجعلت منها مركزاً للحضارة الحديثة.

– هل مازالت الجاموستان معك... ؟

هز كتفيه هذه المرة بإجابة جعلت عينى تفعمان بالدموع.. كانت السيارة تقطع وادياً مظلماً.. الوديان والغابات والأجراف والمهاوى فى الأناضول تشيع فى ظهر المرء برداً.. وفى عقله جموداً.. وفى نفسه خوفاً مريعاً.. الأناضول على العصور مسرح للهجرات.. ومرتع لقطاع الطرق الذين يثيرون الخوف.. ويشيعون النهب..

قبل ثلاثة أشهر قبض اليونانيون على الصبى همت فى هذا الوادى المشئوم.. أوسعوه ضرباً.. أرقدوه استعداداً لذبحه... تناقش اثنان من الجنود اليونان.. أحدهما يريد ذبحه.. والآخر يرى الاكتفاء بالعربة والجاموستين.. أخيراً قال الذى يود إطلاق سراحه:

– إذا كان معه فى عربته بيضاً تركناه.. وإلا.. ذبحناه..

داوم الطفل حديثه رغم اهتزاز صوته :

– كانت جدتى.. دائما ما تسلق لى بيضتين لآكلهما فى الطريق.. كانت قد فعلت الشىء نفسه فى هذا اليوم يا خالتى..

عوت الرياح.. شملت الجرف القائم على يمين الوادى.. صمت الصبى وزاد التصاقه بالعربة.. خاطبته فى نبرة عادية..

– لتكن معنا يا همت حتى بلدة «عشاق».. إننى أعرف أنك لا تخشى العودة وحدك.. ولكننا نخشى أن نضل الطريق.. فالسائق لا يعرفه..

– أمرك يا خالتى..

........

علت البسمة وجه السائق المجند.. تحت الضوء الخافت انفرجت الأسارير الجامدة جمود الصخر الصلد..

.....

نحن على مشارف بلدة «عشاق».. دار أمام ناظرى شريط حياتى التى قضيتها فى الأناضول.. قابلت الكثير.. تعرفت على العديدين.. قابلت أمثال الصبى «همت» فى القرى التى تناقصت بيوتها إلى أقل من الثلاثين فى المائة.. كنت أرى فى وجوههم مستقبل حياة الوطن.. وإذا كنا نرى بقايا الحياة فى قرى الأناضول.. أو أثر من آثار الإنسانية.. فالفضل يرجع فى ذلك إلى مجهودات نساء الأناضول.. مجهوداتهن تفوق طاقة أى بشر.. أما الصبية.. عمال اليومية.. إنهم أبطال.. صبية ولكنهم رجال.. مازالت نظرات أحدهم كالنصل القاطع.. نظرات أدمت قلبى.. وزلزلت كيانى.. وحطمت نفسى..

الطرق من «أنطاليا» إلى «بوردور» غير معبدة.. وقد غطاها الجليد.. جانب جرف هاو.. والآخر جبال.. وهضاب شاهقة.. يجول فيها قطاع الطرق... ويمرح الخارجون على القانون دائماً.. كانت العربات تحاول تسلق إحدى هذه المرتفعات.. وقف السائقون خلف واحدة تلو الأخرى.. كانوا يربطون بها ثلاثة، أو أربعة أزواج من الدواب ويتجمعون خلفها يدفعونها نحو قمة المرتفع.. كانت أصواتهم العجيبة تجلجل.. يتردد صداها بين الصخور.. كانت هذه وسائلهم التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ.. هذه الوسائل هى وسيلتهم إلى سهل «جينه»... كانوا يبذلون الجهد الجهيد.. وتسحقهم المعاناة.. وتلتهم أمتعتهم عصابات الأشقياء.. فلا يملكون إلا العودة إلى حيث أتوا.. وأيديهم خاوية.. وبطونهم ضامرة..

......

خلال جلبة السائقين.. والدفع.. والرفع للعربات.. وأصوات تحريض الدواب الهزيلة على السير.. والتمسك بالحياة.. سمعت صوتا كالبلور :

– أماه.. أماه الحبيبة، تعالى وانظرى حالى.. ولترى ما أنا فيه..

هرعت نحو الصوت.. وكأن شعاعاً من الأشعة قد شدني نحوه.. وربط بين الصوت وقلبي.. ماذا أرى.. !! حوذيا.. ربما في العاشرة.. لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.. صبي . وجهه في حجم كف اليد الهزيلة.. تجمعت الدموع على أهدابه السوداء التي تغطي العينين السوداوين.. والمياه تتقاطر من بشته المصنوع من صوف الغنم... كان هذا.. كالصبي همت.. وأمثاله.. كل منهم يرعى عجوزا.. همت سحقته الحياة.. أنضجه الكفاح الذي يتخطى طاقة البشر، لابد من أن شقاء أمثال هؤلاء الرجال.. هو قلب امرأة قد واراها التراب..

.............

ومازال مثل هؤلاء الصبية.. همت وأترابه.. هم الذين يتحملون مشاق الحياة في تركيا.. هم الذين يحملون العبء.. هؤلاء الصبية.. لعلهم حين تفيض الآلام.. وتسحق أفئدتهم الصلبة.. في صلابة العماليق.. تنطلق ألسنتهم :

– آه.. آه يا أماه الحبيبة.. تعالي لترى حالي... وأمعني النظر فيما أنا فيه.. آه.. آه...

## سعيد فائق عباسيانيق
## (١٩٠٦ - ١٩٥٤م / ١٣٢٤ - ١٣٧٤ هـ)

من قصاصى العصر الجمهورى؛ فقد ولد فى الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٦م (١٣٢٤ هـ) فى مدينة آضاپازار وتوفى فى مدينة إستانبول فى سنة ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ). بدأ حياته التعليمية فى آضاپازار، وداوم عليها فى إستانبول، وأتمها فى بورصة. خبر حياة السواحل والعيش فى الأحياء الساحلية. توجه إلى سويسرا لدراسة علوم الاقتصاد، ولكنه تركها وذهب إلى فرنسا، إلا أنه ترك الدراسة وعاد إلى الوطن سنة ١٩٣٥م، عمل بالتدريس ثم بالصحافة.. ثم اكتفى بالمعاش الذى أخذه من والده.. وعاش مع والدته فى قصرهما الكائن فى جزيرة «بورغاز»، وقد حولت الأم هذا القصر إلى متحف عقب وفاة ابنها بسبب مرض بسيط.

بدأ سعيد فائق حياته الأدبية بقرض الشعر مبكراً، ثم أوقف حياته على إصدار المجموعات القصصية. وغاص فى حياة

الأحـيـاء الســاحليـة، وعبـر عن طمـوحـات سكان هذه الأحـيـاء وبخاصة الصيادين. منهم. منحته إحدى المدن الأمريكية المواطنة الفـخـرية طوال الحـيـاة، وأصـدرت جـائزة باسـمـه.. أوقـفت الأم مـداخـيـل أعـمـاله على وقف خـيـرى لرعـاية المواهب فـى مـيـدان القصة القصيرة.

## السَّماوَر

## *SEMAVER*

– «لقد أذن الفجر.. انهض يا بنى.. ستتأخر عن العمل».

أخيراً وجد علىّ عملاً.. منذ أسبوع وهو يذهب إلى المصنع.. كانت والدته سعيدة.. أدت صلاتها ودعت دعواتها.. وعند دخولها إلى غرفة ولدها، وقلبها مفعم بالحب الإلهى.. تفرسته.. قامة ممدودة.. منكبين عريضين.. وجهًا واضح الاستدارة.. فى رؤياه يسمع هدير الماكينات.. لمعان اللمبات الكهربائية.. يتحسس البطاريات.. يمسح زيوت الماكينة.. لم يطاوعها قلبها فى إيقاظ ولدها الذى تحس أنه يسمع أزيز موتور الديزل.. ولكن عليًّا استيقظ ووجهه مشبع بالحمرة.. غارق فى عرقه وكأنه قد ترك عملاً شاقاً لتوه..

استيقظ وهو ينظر إلى الفجر الكاذب، رافعاً رأسه نحو مدخنة المصنع القائم فى حى هاليجى اوغلى.. وقد بدأ صياح ديك وقور يبشر بمقدم الصباح..

أخيراً تيقظ على.. احتضن أمه.. وكما يفعل كل يوم، فقد جذب أطراف لحافه وغطى بها رأسه بالكامل.. فقامت أمه بدغدغة قدميه بأناملها الحانية بعد أن تعرت قدماه.. وما كان من ولدها الذى انتفض من تحت اللحاف إلا أن احتضنها وسقط بها فوق الفراش مرة أخرى.. هذه السيدة التى أطلقت ضحكاتها وكأنها فتاة فى ريعان الشباب كانت تعتبر نفسها سعيدة.. وأى سعادة...

انتقلاً سويا وهما متعانقان إلى غرفة الطعام.. وكان جو الغرفة مفعمًا برائحة الخبز المحمر.. كما كان السماور يغلى بشكل رتيب وكأنه تغريد البلابل.. كان على يشبِّه السماور بالمصنع الذى يموج بالقلاقل وبالإضرابات والحوادث.. وبالرغم من هذا التشبيه.. فقد كان يحصل منه على سعادة غامرة برائحته.. وبخاره.. وبسمة الصباح.. وكوب الشاى.

كل ما كان يسعد عليا فى الصباح؛ هو البخار المتصاعد من السماور فى البيت، ودخان السحلب المتصاعد من العربة الواقفة أمام المصنع.. ثم تتعالى الأصوات.. وأبواق المدرسة العسكرية المقامة فى حى هاليجى أوغلى، والصفارة المدوية من المصنع التى تجلجل فى كل الخليج.. هذه الجلبة تحرك فى أعماقه

الأماني.. وبالقدر نفسه كانت تطفئ في داخله الرغبات.. معنى هذا أن عليا كان يتصف بشيء من الشاعرية... وإن كان في الوقت نفسه.. هو.. ونحن.. ومحمد.. وحسن.. ففي داخل كل منا أيضاً يرقد أسد جامح...

قبَّل على يدي أمه.. ثم لعق شفتيه وكأنه يلعق شيئا محلى بالسكر.. كانت أمه تضحك من قلبها... كان هو قد اعتاد أن يفعل ذلك مع كل قبلة يقبلها لأمه.. كانت أصص الزرع المتراصة في حديقة البيت الصغيرة قد بدت منها بعض الفلزات.. فاقتطف على بعضها.. وفركها في راحتيه وأخذ يتشممها وهو يبتعد عن البيت..

كان الصباح لطيفاً.. والخليج يلفه الضباب.. وجد رفاقه في مرفأ المراكب.. جميعهم فتية في ريعان الشباب.. عبر خمسة أشخاص سوياً إلى حي هاليجي أوغلي...

اشتغل على طوال يومه بحب واستمتاع بالعمل.. كان يعمل بشوق كبير دون أي رغبة منه في أن يبدو أمهر من رفاقه... كل ما كان يشغله هو أن يكون صادقاً وصميمياً في عمله.. بالرغم من أنه قد استوعب كل أسرار العمل.. كان الأسطى الذي تربى على يديه هو الكهربائي رقم واحد في إستانبول كلها.. كان

ألمانياً.. أحب علياً جداً.. وقد علمه كل مفردات العمل؛ الإيجابى منها والسلبى.. وأصبح على مثل معلمه ماهراً.. نابغاً.. دون أن يبدى أى علامات التكبر.. كان على سريع الاستيعاب.. متقنا للصنعة.. كان يعمل وكأنه فى ساحة رياضية.

فى المساء.. كان يعود إلى منزله وهو أكثر وداً.. وصداقة.. وتفاهماً مع زملائه.. وأكثر احتراماً وحباً لأسطواته، سعيدا بأنهم قد اكتسبوا عاملاً ماهراً جديداً..

عاد لتوه.. وبعد أن احتضن أمه.. وبدل ملابسه.. عاد واحتضن أمه.. وهرع نحو المقهى التى كان يجلس فيها رفاقه.. لعبوا دوراً من الورق.. وتفرج على مباراة مثيرة للطاولة.. بعدها سلك طريقه نحو البيت.. كانت أمه تؤدى صلاة العشاء.. وكما يفعل دائماً.. برك أمام أمه.. وبدأ يترافس فوق السجادة.. أخرج لسانه.. وعندما وفق فى إضحاك السيدة الوقور.. كانت هى على وشك إتمام الصلاة.. وما إن سلمت حتى قالت :

– على يا بنى.. هذا حرام... حرام عليك يا حبيبى.. فلا تفعل ذلك.. قال على :

– الله غفور يا أماه..

ثم سألها بكل هدوء.. وطيبة متناهية.. قائلا :

– ألا يضحك الله قط.. ؟

بعد تناول طعام العشاء.. استغرق على فى قراءة رواية مصورة.. وكانت أمه تغزل له بلوفراً شتوياً.. ثم أخرجت من خزينة الفراش الأغطية التى تفوح منها رائحة المسك... ورقدا..

عندما سمعت الأم أذان الصبح.. أيقظت على..

كم كان السماور يغلى ويفور فى الغرفة المفعمة برائحة الخبز المحمر...

وكان على كما هو الحال يشبِّه السماور بالمصنع الذى يموج بالثورة.. والعصيان والغضب.. ولكنه كان يتحصل منه كل صباح على الرائحة الطيبة والبخار.. والسعادة الغامرة..

***

حل الموت على أم على وكأنه ضيف خفيف الظل.. أو كأنه جارة مغطاة الرأس خفيفة الروح، تحل عليها من حين لآخر عند صلاتها وبين دعواتها وتضرعاتها.. فقد كان ما يشغلها هو إعداد الشاى والإفطار صباحاً.. وطبق أو اثنين للعشاء مساء كل يوم.. لم يكن هناك ما يرهقها.. ولكنها كانت تحس بوخزات خفيفة عند طرفى قلبها.. ورعشة واهية تلف جسدها الذى تفوح منه رائحة العطر.. وأحست بتقطع أنفاسها بخاصة عندما

صعدت درجات السلالم قبيل المساء وهى مسرعة.. وقد غطاها العرق.. ثم شعرت بارتخاء...

ذات صباح.. وقبل استيقاظ على.. أصابتها النوبة، وهى تقف أمام السماور.. فانهارت فوق الكرسى القريب.. سقطت فوق الكرسى.. وكانت هى السقطة الأخيرة..

ومع أن عليًّا كانت تتملكه الدهشة لعدم قيام والدته بإيقاظه كالمعتاد، إلا أنه لم يشعر بمرور الوقت.. وبأنه قد تأخر.. ولكن ما إن داعبت أذنيه صفارة المصنع، التى تسللت عبر زجاج النافذة وكأنها قد مرت من خلال قطع الإسفنج لتخفف من وطأتها، حتى انتفض من فراشه.. وقف على باب غرفة الطعام.. وبدأ يشاهد منظر الموت وقد استند على الكرسى.. وإحدى يديه مستندة أيضاً على المنضدة.. ظن أنها نائمة.. سار على أطراف أصابعه.. وأمسك بمنكبيها.. وعندما تلمس وجنتيها وشعر ببرودة شفتيها.. ارتعد..

أمام الموت.. مهما فعلنا.. فلن نختلف كثيراً عن ممثل يؤدى الدور بمهارة.. وقد وفق.. إلى حد كبير كممثل...

احتضنها.. وأوصلها إلى فراشها.. وشد لحافها فوق جسدها وحاول تدفئة الجسد الذى بدأت البرودة تتسلل إليه..

حاول ولكنه اكتشف فى النهاية أنه عاجز.. فأسندها إلى حافة المرتبة.. ورغم رغبته الجامحة فى البكاء.. فإنه لم يستطع.. احترقت عيناه.. احترقت.. ولكنها لم تسقط دمعة واحدة.. رأى نفسه فى المرآة المواجهة.. لم ير سوى وجه كأنه لم يذق طعم النوم طوال الليلة السابقة..

ضعف علىّ فجأة.. فجأة شعر كأن شعره قد ابيض.. فجأة شعر بألم يلف خاصرته.. وكأنه تجاوز المائة من عمره.. ود لو أنه تجاوز هذا العمر كله.. فنظر مرة أخرى إلى المتوفاة.. لم يكن الموت مخيفاً..

بل على العكس.. الوجه كما كان دائماً.. مشفق.. حنون.. نورانى.. فمد يديه بثبات، وأكمل إغماض العينين.. انطلق نحو الباب.. أخبر الجارة المسنة.. فهرولت الجارات.. وجاء الجيران إلى المنزل.. أما هو فقد أُرسل إلى المصنع.. وهو فى الطريق أو فى القارب كان كمن ينطلق نحو الموت..

لقد ناما جنباً إلى جنب.. حضناً بحضن.. تغطيا باللحاف نفسه.. الموت.. وكما أنه قد تسلل إلى أمه.. فقد أفقده العطف.. الشفقة.. الطيبة واللين.. وأخذ منه كل مشاعره.. كل ما فى الأمر.. شىء من البرودة.. الموت لم يكن شيئاً مخيفاً كما كنا

نظن.. إنه شيء من البرودة.. هذا كل ما فى الأمر..

على.. تجول لأيام طويلة فى غرف البيت الخاوية... كان يجلس ليلاً دون أن يشعل الأنوار.. كان يستمع إلى الليل.. ذات مساء.. استراح.. فكر وأمعن الفكر فى أمه.. لكنه لم يبك.. لم تسقط دمعة واحدة من عينيه ..

ذات صباح، وجد نفسه معه وجهاً لوجه فى غرفة الطعام، كان موضوعاً وسط المائدة هادئاً.. لامعاً.. والشمس قد انعكست على القطع النحاسية الصفراء، واستقرت فوقها.. بدا السماور مبهراً.. فأمسك به من أذنيه، ووضعه فى مكان لا تراه فيه عيناه.. انهار هو فوق أقرب كرسى... بكى.. انهارت دموعه كالمطر الهاطل دون توقف.. وهو.. ذلك السماور.. لم تغل مياهه مرة أخرى فى ذلك البيت..

بعد ذلك، دخل دخان السحلب وبخاره إلى حياة على...

الشتاء.. حول الخليج أكثر قسوة مما هو عليه الحال فى إستانبول، أكثر ضبابية.. كان الذين يذهبون إلى أعمالهم مبكراً، وهم يحطمون قطع الوحل المتجمد مع الثلج فوق الأرصفة المتهدمة تحت أقدامهم، كمعلمى المدارس، وتجار الماشية، والجزارين.. يتوقفون لالتقاط أنفاسهم بعض الوقت أمام

المصنع.. كل منهم قد أسند ظهره إلى الجدار الضخم، وقد أمسك بين راحتيه كوباً من السحلب الذى نثر فوقه الزنجبيل والقرفة.. وأخذوا يرشفونه فى باستمتاع..

إن الجزارين، وتجار الماشية، ومدرسى المدارس، وأحياناً طلبة المدارس الفقراء، والعمال الشقر الذين يدخنون كالسماور البرونزى وهم مفعمون بالاضطراب.. ورءوسهم تعتمل بالإضراب.. وأنوفهم منسابة من البرد والنزلات.. وقد دثروا أياديهم القيمة فى القفازات الصوفية الخشنة، قد احتضنوا فناجين السحلب، وأسندوا ظهورهم إلى جدار المصنع الضخم... وبين الفينة والفينة؛ يأخذون الرشفة تلو الرشفة من السحلب الذى تناثرت فوقه أحلامهم المقدسة...

# المنديل الحريرى
## *IPEKLI MENDIL*
## ايپكلى منديل

لمعت الجبهة العريضة لمصنع الحرير تحت ضوء القمر.. مر من أمام الباب بضعة أفراد وهم مسرعون.. بينما كنت أنا أسير بخطوات مجهولة، لا أدرى إلى أين.. فإذا بالحارس ينادى من خلفى :

– إلى أين.. ؟

– قلت.. لأتجول قليلاً..

– ألن تذهب للفرجة على البهلوان؟

وعندما وجد أننى لم أجب.. أضاف قائلاً :

– الجميع يذهبون.. فلم يسبق أن جاء إلى بورصة مثل هذا البهلوان..

فقلت :

– ليس فى نيتى على الإطلاق..

توسل.. رجانى.. أخيراً وافق على أن أنتظر فى المصنع..

جلست قليلاً.. أشعلت سيجارة.. ترنمت بموال.. ولكنى زهقت.. «مـاذا أفـعل».. نهـضت.. تناولت العـصـا المدببـة الخـاصـة بالحارس.. وخرجت للتجول فى المصنع.

وبمجرد أن تخطيت ورشة الشرانق التى تعمل فيها الفتيات، سمعت ضجة خفيفة.. فأشعلت المصباح الكهربائى الذى كان فى جـيـبى... تفـحـصت المكان.. فـتـراءت لى سـاقـين عـاريتين تحاولان الهرب تحت ضـوء المصبـاح السـاطع. فـجـريت خلف الهارب.. قبضت عليه.

دخلنا.. أنا واللص.. إلى غرفـة الحارس، وأشعلت الفنار ذا الضوء الأصفر الخاص بالحارس..

فدهشت.. ما أصغره من لص... فيده التى كادت تتحطم فى راحتى.. كم كانت صغيرة.. نحيلة.. وعيناه كم هما لامعتان..

ثم.. لماذا تركت يديه.. ضـحكت.. ضـحكت حـتى كدت أسقط على ظهرى..

اسـتل مطواة صـغـيـرة، وهـجم على.. واسـتطاع الشـقى أن يجرح أصبعى الأصغر.. فقبضت عليه بشدة.. انتزعت مطواه.. فـتشت جيـوبه.. فـوجـدت بعضـاً من الدخان المهرب.. وورقـتى سجـائر من الصنف المهرب نفـسه.. ومنديلاً نظيفـاً.. فوضـعت

قليلاً من دخانه المهرب على إصبعى المجروح.. مزقت المنديل.. وجعلته يربط يدى به.. وبالدخان المتبقى لففنا سيجارتين سميكتين... وتحدثنا برفق..

كان فى الخامسة عشرة من عمره.. نحيلاً.. نحيفاً.. ليس شيئاً على الإطلاق... ولكن.. شقاوة المراهقة.. فقد طلبت إحداهن منه منديلاً حريرياً.. يا.. المحب يفهم.. كان عاشقاً.. ولهاناً.. كانت بنت الجيران.. وليس لديه نقود.. هكذا.. فكيف يشترى من السوق وهو مفلس؟ فكر.. أمعن فى التفكير.. وأخيرا جاءته هذه الفكرة.. فقلتُ :

– حسنا.. ورش التصنيع فى هذه الناحية... فماذا كنت تفعل فى الاتجاه المعاكس.. ؟

ضحك.. كيف سيعرف هو أين الورش..؟

أشعلنا سيجارتين من سجائرى الريفية الرخيصة.. صرنا أصدقاء إلى حد بعيد..

كان من أبناء بورصة الأصليين.. ميلاداً.. ونشأة.. وطوال عمره لم يذهب إلى إستانبول أو حتى إلى «مودانيا» القريبة إلا لمرة واحدة.. وليتك تراه وهو يحكى ذلك..

أنا أيضا.. فى حى «أمير سلطان» وتحت ضوء القمر.. وفى

وقت تزحلقنا على الجليد.. كانت لى بعض الذكريات.. وبعض الصداقات على نفس المنوال.. والآمال..

كنت على ثقة.. أنهم.. وأنهن كن مثله.. يتسمعن أصوات بعضهم البعض بالقرب من عيون المياه والبرك فى «غوك دره».. وأدرك أننى بسماعى له.. كانت تنتابه ألوان الطيف.. وأعلم أن لونه كان يأخذ لون قشر الفواكه التى تكثر فى بورصة فى كل المواسم.

نظرت إليه.. فإذا هو أسمر فى سمرة حبة الجوز التى سقطت عنها قشرتها الخضراء.. وله أسنان بيضاء.. ناصعة البياض.. هى أيضاً فى بياض حبات الجوز المقشرة.. فأنا أعلم أن كل أطفال بورصة منذ أن يبدأ الصيف وحتى موسم الجوز واللوز.. وهم يتجولون وقد فاحت من أياديهم رائحة البرقوق والخوخ.. وتفوح من صدورهم العارية التى بدت بعد تقطع أزرار قمصانهم روائح أوراق البندق.. واللوز.. والجوز.. فى هذه اللحظة دقت ساعة الحارس الثانية عشرة... وعلى أى حال فإن ألعاب البهلوان وعروضه على وشك الانتهاء.

قال : «لأهرب»...

بينما كنت أفكر أنا.. كيف أتركه يذهب دون الحصول على

المنديل الحريرى ؟.. فإذا بضوضاء فى الخارج وقد هزتنى.. وإذا بالحارس يدخل وهو يهدد ويتوعد ومن خلفه اللص..

فقمت أنا هذه المرة بشد أذنيه.. وإذا بالحارس ينهال عليه ضرباً بفرع رفيع من شجر الصفصاف.. ولحسن حظه أن صاحب المصنع لم يكن موجوداً.. وإلا.. أقسم بالله لكان قد سلمه إلى البوليس... وقال لهم.. «سيدى.. هذا لص فى هذه السن الصغيرة.. !.. ليزج به فى السجن حتى يعود إلى رشده..»

أخفناه كثيراً.. هددناه.. فلم يبك.. غرغرت عيناه بالدموع كسائر الأطفال فى مثل هذا الموقف.. ولكن لم ترتعش شفتاه ولو لمرة واحدة.. حاجباه ثابتان.. ولم يغير من موقفه الصامد قط.. كل ما هناك أنه كان يترنح من حين لآخر..

ما إن تركناه.. وأطلق سراحه.. حتى انطلق كعصفور الجنة الذى خرج من القفص لتوه.. وهرب منطلقاً تحت ضوء القمر.. وعتمة الأراضى المحيطة.. كنت أنا حتى الآن أبيت فى القسم الواقع فوق ورش التصنيع.. كم كان هذا المكان جميلاً.. ذلك السطح كم هو رائع، وخاصة فى الليالى القمرية..!.. وكم يكون هواؤه لطيفاً..

كان بالقرب من نافذة حجرتى شجرة توت وارفة.. كان ضوء

القمر يتسرب من بين أوراق التوت العريضة.. وتتساقط الأشعة على الغرفة فتكسبها رونقاً وجمالاً.. كنت دائماً أترك نافذة الغرفة مفتوحة صيفاً وشتاءً تقريباً.. وكم كانت النسائم اللطيفة.. والرياح الخفيفة تهب عليها وهى مفعمة بروائح الزهور المحيطة.. ولما كنت قد عملت بحاراً.. فقد اكتسبت القدرة على التفرقة بين الرياح من روائحها.. فهذه نسائم الربيع.. وتلك رياح الخريف.. وهذه رياح الجنوب.. وتلك رياح الشمال.. وكم من الرياح كانت تمر من فوق بطانيتى.. وتعبر عبور الأحلام الغريبة..

نومى خفيف جداً.. كنا قبيل الصباح.. ويأتينى من الخارج جلبة خفيفة من بين حفيف أوراق التوت.. لابد من أن هناك أحداً بين الأغصان.... تملكتنى رجفة خوف.. فلم أنهض.. ولم أصح أو أزعق.. فى هذه اللحظة بالضبط ظهر خيال على النافذة..

كان هو.. ولج من النافذة بخفة متناهية... بينما كان يمر من أمامى أغلقت جفناى.. بدأ يعبث فى الدولاب.. قلبه رأساً على عقب وهو فى كمال هدوئه.. فلم أفتح فمى.. حقيقة.. فأمام هذه الجسارة وتلك الجرأة فلو أخذ كل ما أملك وانصرف، فلن أصدر صوتاً.. فغدا سيقول صاحب العمل: «يا أحمق.. فهل نثروا فوقك

تراب الموت».. ويُنزل على كـفلى ركلة أو ركلتين.. ويقـذف بى خارج العمل. ورغم إدراكى لكل هذا فلم أصدر صوتاً...

وأنا على هذه الحالة، تسلل هو خارجاً من النافذة دون صوت أو صدى.. فى هذه اللحظة نفسـها سمعت تكسـر وتحطم فرع من فروع شجرة التوت.. لقد سقط على الأرض.. وعند نزولى.. ووصولى إليه كان الحارس ومعه بضعة أفراد قد تجمعوا حوله..

كـان على وشك الموت.. قـام الحـارس بفـتح راحـة يده المغلقـة بشدة... وما إن انفتحت راحتـه حتى تناثر منها كالماء المتهادى منديل حـريرى... يا.. حسنـاً.. فـالمناديل الحريرية الطبـيعـيـة الحقيقية.. هكذا تكون يمكنك أن تعصرها وتكبسـها فى راحتيك كيفما تشاء.. تتكرمش بين يديك.. ولكن ما إن تنفتح الراحتين.. أو راحـة اليـد الواحـدة.. فـإن منديل الحـرير الطبـيـعى يتناثر كالنافورة...

# يشار كمال
## (١٩٢٣م - ١٣٤٢هـ)

ولد يشار كمال فى شهر أكتوبر ١٩٢٣م فى قرية «كَوكچه لى» التى كانت تحمل سابقاً اسم «حميدة» التابعة لمركز عثمانية، بمحافظة آضنة. هو سليل أسرة كردية عريقة.. سمع من والدته الكثير من تراث العائلة، وعن رجالاتها المشهورين فى مجالات الإدارة، والعصابات.. تشبع بالتراث الشعبى الكردى من محيط العائلة الضيقة.. وبالتراث الشعبى التركى من المحيط الجغرافى الذى تربى وترعرع فيه، وطاف بين ربوعه عقب بلوغه سن الرشد وحرمانه من التعليم المنظم.

مارس فى حياته أكثر من أربعين حرفة، وقد مكنته هذه الحياة من التشبع بالمعاناة الشعبية لشتى طبقات المجتمع الفلاحى والحضرى على حد سواء، وقف على الصراع الطبقى والرأسمالى من أجل لقمة العيش، وجسد هذا الصراع، والبطولات الشعبية فى أعماله.

عاشت القرية التركية بكل معاناتها ومشاكلها وطموحاتها فى أعماله، ونجح نجاحاً باهراً فى تجسيد ذلك فى أعماله.. أغرق فى المحلية وهذا ما أوصله إلى العالمية، ورشحته أعماله للتقدم إلى جائزة نوبل.. وأنا أقول: لولا شرقيته وإسلاميته وتركيته لشرفت به جائزة نوبل، كما شرفت بأديب الحارة المصرية نجيب محفوظ.. له العديد من الأعمال الفولكلورية والملحمية والروائية والقصصية التى ترجمت إلى العديد من اللغات العالمية.

# البقال

# دكّانجى - *DUKKANCI*

# « إلى كل من أكلتهم الغيرة ففقدوا كل شىء إلا الندم »

**المترجم**

توجد شجرة توت ضخمة تعطى ظلالاً وارفة وعظيمة فى وسط القرية تماماً، لا يستطيع رجلان قد أمسكا بيدى بعضهما البعض أن يحيطا بجذعها.. القرية تتلظى بقيظ جوقوروفه وكأنها جهنم.. وبينما القيظ بعيداً عنها كان يكوى كبد السماء، فتحت هذه الشجرة الوافرة الظلال لم يكن المرء يشعر بالحر، أو حتى يتصبب منه العرق..

ركن من أركان الدكان قد التصق بهذه التوتة العظيمة، وارتكز عليها... منذ أمد بعيد وهو هكذا.. مرت السنون والسنون والدكان مرتكز على التوتة ويقف هكذا.. تبلى عيدان الغاب والبوص التى على سقفه، وتجدد دائماً.. تتفكك جدائل الخيوط،

ويعاد تضفيرها.. مكان الدكان؛ لا يزحف خطوة إلى الأمام ولا يتراجع خطوة إلى الخلف.. لم يتغير مكانه منذ إنشائه..

صاحب الدكان واحد «دارندلى».. فوق معدته الضخمة يتدلى قُردون ساعة فضية.. هذا القردون ضخم.. طويل، ربما يصل طوله إلى نصف ذراع.. عيناه الصغيرتان تدوران دائماً فى محجريهما.. أما أصابعه البيضاء فهى قصيرة وبضة..

محمد أفندى الدارندلى هذا.. محلى فى هذه القرية منذ أمد طويل، أكثر من كل قروييها.. ربما تقول أنت منذ عشرين سنة.. فأنا أقول لا منذ ثلاثين.. فلا أحد يعلم على وجه اليقين.. كم سنة بالضبط مرت منذ مجيئه..!! يعيش دائماً فى القرية بشكل أعزب.. يأتيه صبى من بلدته من حين لآخر.. يبقى الصبى عدة أشهر، ثم يعود أدراجه.. وحتى الآن.. تعدد الصبية الذين أتوا.. ثم عادوا.. وهو نفسه يذهب إلى بلدته مرة كل سنة.. وربما كل سنتين وخلال هذه المدة يغلق الدكان. القرويون يأتون أمام الدكان.. يتجمعون، يجلسون، يتربعون فوق كومة السباخ التى تواجه الدكان.. ضلفة باب الدكان المغلقة أكلتها الشمس، وجعلت لونها فضياً.. تشققت.. وفى الأحيان التى يغلق فيها الدكان يخيم الكدر والحزن على المكان.. فما لم يكن محمد أفندى..

فالقرية لا تكون... هكذا كان يخيَّل للقرويين..

الجميع فى الحقول خلال أشهر يونيو، ويوليو، وأغسطس... ولا يبقى أحد فى القرية سوى بضع عجائز، وبضع من الأطفال الأشقياء.. وقلة من النسوة..

المسنون يأتون إلى الدكان ويجلسون القرفصاء فوق الدكك الخشبية الموجودة فيه.. يجلسون حتى المساء... منذ عتمة الصباح حتى يغشاهم الليل.. وحتى دخول الأبقار إلى القرية.. يجلسون يتحادثون.. ينامون.. يتثاءبون، هكذا .. فى الصيف والشتاء..

وكذا .. كان هناك صبى، فى العاشرة من عمره.. هو أيضاً يأتى منذ عتمة الصباح، ربما قبل العجائز.. وبمجرد أن يفتح الدكان.. يطل.. يتوجه إلى مكانه الخاص به هو.. فى مواجهة الباب.. فى يده عكازه.. فكاه يعتمدان على عكازه، وركبتيه.. يجلس دون أن يحرك فاه.. لا يتحدث، أو يتكلم قط.. لا يفتح فمه.. المسنون يتحدثون وهو يصغى.. لا يتعرض له أحد قط.. ولا يطلب منه أحد أن يجلس هنا، أو هناك. اسمه يتردد على كل الألسنة.. الكل يعرفه بـ «سيللى المجنون»،،.. لا يتكلم.. ولا يكلم أحدًا قط.. ولم يره أحد قط وهو يتحدث مع أحد سوى مع أمه،

ولبضع كلمات.

فى الضحى.. وقبيل الظهر، يخيم الصمت الكئيب على القرية.. لا صوت.. ولا صدى.. سوى من حين لآخر، يسمع مواء قطة، أو نباح كلب، أو نهيق حمار.. ثم يعود الصمت، ويشمل كل القرية... ولم يقم أحد برفع رأسه قط لينظر إلى الخارج.. فالعيون نعسة.. أو محدبة من أشعة الشمس الساطعة القائظة.. الأجواء يتقاطر منها اليقظ.. الحر يلف المكان.. وحتى القطط، والكلاب، والدواجن لا تُرى.. وإذا ما بدت فتراها متمددة فى ظلال كوخ صغير وقد تدلت ألسنتها...

وفى هذه الأثناء بالضبط.. تبدو امرأة.. حافية.. مسرعة.. فى حجرها كمية من الحبوب لا تعرف مكيالها.. تتجه مسرعة نحو الدكان.. وقد بدا طرف سروالها الأحمر الفضفاض.. وجهها.. وعيناها غرقى فى العرق.. تتجه مباشرة نحُو الأجولة المتراصة فى الزاوية، وتفرغ ما فى حجرها.. ثم تنفض الغبار عنه بكلتا يديها...

محمد أفندى يسأل :

– ما المقدار.. ؟

المرأة :

- كيلة...

- ماذا تريدين..؟

- سآخذ فيما بعد.. أنت اعرف الآن.. سآتى بعد ذلك وآخذ..

تنسحب المرأة ذاهبة.. ومحمد أفندى يقوم بخط بعض الخطوط فى دفتر أمامه. فى القرية.. بل فى كل القرى.. ليست هناك امرأة لا تحضر الحبوب، أو الدقيق، أو البيض، أو البقول إلى دكان القرية من خلف ظهر زوجها، لتأخذ فى مقابله كل ما يلزمها.. تشترى منه الأمشاط والفلايات.. الخرز والعقود والأقراط.. العسل الأسود والعنب.. أو تجهز لبنتها.. أو تشترى اللعب.. أو البلى البلورى لولدها.. أو كرات البلاستيك.. هنا.. التعامل بين محمد أفندى والنسوة ليس بالنقود، أو أى عملة.. بل بالمقايضة.. بالحبوب.. فنسوة القرية لا يعرفن النقود.. ولا يرينها.. ولا تلزمهن.. المسنون الذين يجلسون فى الدكان، السر لديهم فى بئر عميق و «سيللى» لا يفتح فمه، والمسنات من النسوة، والعرائس يبعثن بحبوبهن مع أخريات غير بناتهن إلى الدكان.. ومحمد أفندى بإشارة يعرف لمن هذه الحبوب.. وممن أرسلت فيسجلها فوراً بإشارته المعهودة فى دفتره الأصفر.. أو

يقدم الطلبات المطلوبة ويبعث بها مع المرسال.. فبين النسوة وبين محمد أفندى اتفاق سرى.. ورجالهن جميعاً يعرفون ذلك.. يعرفون.. ولكن لا يستطيعون أن يخرجوا أصواتهم فى أى وقت.. فما إن يحل شهر مارس ولا يبقى فى البيت دقيق.. حتى يتحول داخل القرية إلى خلية نحل من النسوة.. وتنصب اللعنات فوق رأس محمد أفندى من كل جانب... وماذا يفعل محمد أفندى هذا! فلم يفتح هذا الدكان هباءً.. فهل يمكن أن يرد قاصده..؟.. أى عقل هذا..؟.. سب.. قذف.. توسل.. يستمر هذا الجو حتى انتهاء الحصاد.. ثم تتوالى عليه كيلات القمح، وكيزان الذرة الجافة كالسابق..

إن شبكة محمد أفندى السرية تمتد من دكانه إلى بيوت القرية كافة، فكل ما يدور فى القرية يصله... لماذا تشاجر عثمان مع زوجته..؟.. لماذا يتردد ولى على القرية المجاورة.. ؟.. وما هو غير ذلك... أدق التفاصيل.. وكل الأسرار حتى المحرَّم منها تصله وهو فى مكانه... يعلمها.. يعرفها.. ولا يمكن ألا يعرفها.. إن هذا من متطلبات المهنة..

* * *

الفارس الذى يمر من جنبات القرية وهو هادئ ورزين.. نزل

عن صـهوة جـواده عند التـوتة.. ربط جـواده على الجانب.. كـان الجـواد الأشـهب يتصـبب عـرقـاً.. وحـوَّل العـرق عنقـه إلى اللون الأسـود الفاحـم.. كان الزبد قد غطى ملجمـه.. الفـارس أيضـاً قد غطاه العرق.. سودته الشـمس.. وشوته الحرارة.. دخل الدكان.. سلم ومـا إن خلع الكاسكيت حتى انطلق شـعره الأسـود الملمع... ومن جـيب ياقتـه يتـدلى المنديل الأصـفـر المدسـوس.. شلواره الأسود جديد.. ولكنه كان متربا ً...

همس فى أذن محمد أفندى دون أن يلمحه أحد قائلاً :

– ماذا حدث يا عمى..؟ هل مشكلة البنت خلاص تمت..؟

قال الآخر بصوت لا يكاد يسمع :

– كله تمام..

ثم ابتعدا عن بعضـهما البعض فوراً..

– كيف حال والدك.. هل هـو بخير..؟ مـا أخبـار البلدة.. ؟ ألا يزال الغجرى موجوداً..؟ أم أنكم دهولتموه..؟

هز الفتى الفارس كتفيه، وقال :

– لا شىء.. لا جديد على الإطلاق فى القرية.. والدى مرتاح.. يبعث إليك بسلامه.. ومـازال ذلك الرجل الغجرى فـى القرية.. ولم ندهوله بعد.. ولكن بمساعدتك هذا الأمر لن يطول.. على أى حال

سنجد حلاً.. طالما بقيت أنا على قيد الحياة فلا تقلق.. فإما أن يذهب هو و.. أو أذهب أنا من القـرية.. أو أن أحـرق قـرية «يريقوش»...

فرد محمد أفندى بصوت غاضب، ولكن بلين :

– أثق بك.. أثق بك.. بعد الله يا ابن أخى.. هؤلاء جميعاً من الفلاحين ناكرى الجميل..

ثم التفت نحو المسنين وقال :

– انظر الآن... انظر يا حاج آغا.. إلى فلاحى قرية يريقوش هذه.. لم يمر علىَّ أى منهم منذ سنة.. عندما يجىء للاستدانة.. يتوسل.. زين أنت يا محمد أفندى وقعنا فى طولك وعرضك يا محمد أفندى.. يرجو... ثم يجىء أحد النوَر.. وببضاعة فاسدة لا تساوى قرشين يخدعهم... بدعوى أنه يبيع رخيصاً.. أنا أبيع بضاعة أجود من بضاعته.. وبنصف الثمن.. بالله.. والله بنصف ثمن بضاعته.. لتصبح أمى هى زوجتى أنا أبيع بنصف الثمن.. أنا لا أبيع بضاعة مثل هذه قط.. ولا يمكن أن أبيعها.. لا يمـ.. كن..أن أبييـ...

دفن الحاج آغا يده فى لحيته المدببة كالسهم وقال :

– لم يعد هناك قدر أو قيمة.. لم يعد هناك من يعرف قيمة

الأشياء.. أو قدر الناس.. فحتى لو أتيت عليهم.. فلا يقف منهم أحد.. لا يعرفون أن محمد أفندى لا يبيع مثل هذه البضاعة.. ولا يمكن أن يبيعها.. لا.. لا يبيع البضاعة التى يبيعها هذا الد...

يؤمن محمد أفندى على الكلام قائلاً :

– لا أستطيع أن أبيع..!.. نحن نرى بعضنا البعض..!

مسن آخر يقول :

– إن أهل يريقوش بخلاء أصلاً... فهل يأكل يخنى اللحم الرخيص ؟ هل يؤكل اللحم الفطيس.. ؟.. يؤكل.. ؟.. أليس كذلك...

يقول محمد أفندى :

–... يعنى لو أن هذا تم هنا.. لأضرموا فى هذه الهلاهيل النيران.. ليس هناك مثيل لقريتنا... فهل يمكن أن يتركوا إنساناً لا يعرف من أين جاء لكى يبقى فى القرية ؟ أين.. ؟ أنا لا أتكلم.. نحن نعتبر فلاحين أيضاً.. الموضوع موضوع شرف... ناموس.. حيثية.. يعنى لو جاء إلى قريتنا واحد مثل هذا، لطرد فى اليوم نفسه... قريتنا... يقاطعه الفتى اليافع بحدة :

– يا عمى محمد أفندى.. أنا قلت.. ما دمت حياً.. لن أكمل... لا تتدخل أنت... نحن كذلك لن نُبقى فى القرية شخصاً

مـجـهـولا هكذا.. أبداً.. قـالوا فـقـيـر قـالوا ليـعش ويتـعـيش... لا تتدخل أنت فى البـاقى... ما دامت روحى هـذه فى جسدى.. فلن أبقى عليه فى القرية.. لن تدخل قدمـه قرية يريقـوش هذه.. أنا قلت لا تتدخل أنت... طالــ.. !... إذا...! حيى.. يعنى إيه... ماذا يعنى أنه فقير..!!

فقال أكثر من مسن فى صوت واحد :

– فـتى شـجـا ع.. بطل... يقطـع رجله من قـرية يـريقـوش.. لا تخف يا محمد أفندى..

فقال محمد أفندى متمماً :

– أثق بالله أولاً.. ثم بهذا الفـتى الشـجـا ع.. بارك الله فـيـه. وعد الحر دين عليه.. والبطل لا يخلف وعده...

ثم يتجه محمد أفندى إلى الفتى :

– انظر يا ابن أخـى إلى مـا تقـول.. ومـا يقـولون.. هـل هو فقير..؟ هل هـم فقراء.. إنهم يسرقون الكحل من العين دون أن تدرى... أنا أعرفـهم جيداً.. فقراا.. يعنى.. ألا تسمع عن أهـالى يريقـوش هـذه.. ؟ لو رأوا إنسـانا وهـو يأكل رغـيـفـاً يـخـرمـون عينيه... فى فترة ما لم يكن أى منهم يعرف ماذا يعنى الدكان.. أنا بعت لهم شُكك.. ولكن لو أن هذا الفـتى الشـجـا ع.. ضـا ع..

فمـاذا يفعل عـيالى... ؟.. بعد هـذا العمر.. وفى هـذه السن هل أتسول.. أشحت.. هؤلاء الكفرة.. سكان هذه القرية كفرة.. ليس فى قلوبهم رحمة...

الحاج آغا.. تمتم قائلاً :

– هذا الفـتى ولد شـجاع.. هو من قرية يريقوش.. لا تبـحث عندهم، أو لديهم عن قلب أو وجدان..

مـحـمـد أفندى أمـسك بكردون السـاعـة الذى فـوق بطنه الضـخـمـة، أخـرج السـاعـة من جـيب صـديريتـه.. أخـرجـهـا ثم أعادها... أخذ يخرج الساعة ثم يعيدها.. كان كثيراً ما يفعل ذلك فى لحظات وأوقات غضبه.. يخرج الساعة ثم يعيدها دون أن ينظر إليها.. فيده تعمل هكذا مثل الماكينة...

«سـيللى» المجنون قـابع فى مكانه كـمـا هو.. فكاه فـوق عكازه.. صامت.. ينظر إلى محمد أفندى وهو على هذه الحال... المسنون.. كل فى مكانه..

أسراب الذباب تغيم المكان.. طنينها كطنين النحل.. العين لا ترى الإصبع من كثرة الذباب.. وكلما هز محمد أفندى يده يطرد الأكوام السوداء من فوق أجولة السكر، والتين والزبيب والعنب.. وما إن تطير جحافل الذباب هذه حتى يتضح نوع البضاعة التى

تحتها.. أبطأت يد محمد أفندى التى فوق الساعة...

– قلبى يحدثنى ألا أعطى شيئاً، أو أبيع شيئاً لأهالى قرية يريقوش هذه حتى ولو دفعوا الملايين.. ألا أبيعهم أى شىء...

أحد المسنين :

– لا تبع يا أخى.. لا تعط لهؤلاء.. إنهم ينكرون الجميل.. لو أنا مكانك ما أعطيتهم شيئاً.. وهذه هى الرجولة أيضاً...

– يعنى يا سيدى.. قلبى يحدثنى.. لا تعط أى حاجة.. يا سيدى... سحب يده عن كردون الساعة.. وخرج لكى يتوضأ.

– ديوث.. ديوث كبير.. قواد.. أحد الفقراء.. أراد أن يرتزق.. يتسبب.. ما هنالك.. فليأت من الهند، أو اليمن.. كل حسب نصيبه... وما فى مقدروك أن تفعل.. ؟

– ماذا تريد.. أو ماذا يأتى من يد الفقير...؟ وما بك أنت..؟ فليتسبب.. لو كان يبيع رخيصاً.. فليعط.. ما لك أنت.. أنت بع بأقل، أو أرخص منه.. وهم يأخذون منك.. ويشترون بضاعتك.. لا.. لا يعطى هذا الديوث... حتى يشترى قصرين آخرين فى آضنة.. هذا الديوث...

– هو يتمرغ فى التراب هنا... يطرق كل الأبواب القذرة.. وهوانمه ذوات السيقان البيضاء يتنعمن بها فى آضنة...

– فقير وجاء لكى يتسبب..

– جاء فقير لكـ...

فجأة دخل محمد أفندى.. وهو يتمتم :

– «لا إله إلا الله (ومسح خلف أذنيه) سكان يريقوش هذه لا يعـرفـون العـيش والملح.. يغـرسـون خناجـرهـم فى المائدة التى يأكلون عليـها.. يعـضـون اليد التـى تطعمـهم... مـن أجل مـاذا..؟ من أجل بضاعة فاسدة لا تساوى خمسة قروش...

ردد المسنون وهم يتمتمون :

– من أجل بضاعة لا تساوى خمسة...

فى اليوم التالى.. فى الصباح الباكر.. وقبل أن تبزغ الشمس انطلقت صرخة من أعالى القرية.. هناك امرأة تصرخ.. وتصوت بأعلى صـوتها.. وبعد قليل تردد خبر هروب ابنة المرأة جميلة.. وأن الذى هربها هو واحد من قرية يريقوش ..

قال واحد من المسنين :

– كان واضحاً.. كان بادياً على فتى الأمس»..

صراخ وعويل.. أقبلت جميلة نحو الدكان وهى تحدث جلبة من الصراخ والصياح :

– «أنت يا أبو دقن... يا أبو خـرية.. أنت اللى عـملت هذه

العملة».. وكانت تمطر الدكان بالحجارة..

محمد أفندى يصيح من خلف الباب...

- لا.. لا يا أختاه.. ما تقصيراتى أنا ؟

جميلة منكوشة الشعر.. عارية الرأس.. يداها ملطخة بالوحل.. كل ما عليها قد تدثر بالغبار.. صدرها عار.. ثدياها قد تدليا على صدرها.. جافة.. و.. كأنها خرقة متدلية.. أسنانها العلوية بيضاء.. وكأنها طقم يلمع...

- «يا أبو ذقن.. يا مخرى...»

وكلما انحنت لكى تلتقط حجراً حفرت فى الأرض بكلتا يديها تستخرج حجراً.. يتناثر الغبار، والتراب حتى يغطيها بالكامل، ثم «كوت... كوت..» قذفات متتالية من الحجارة...

- «يا أبو خرية.. يا وسخ.. يا...»

وارب واحد من العجائز باب الدكان إلى حد ما.. ثم قال بهدوء :

- كفى يا امرأة.. كفى يا أختاه.. ما ذنب هذا المسكين...؟ ماذا سيكسب هو من تهريب ابنتك... بنتك هى التى غضبت وهربت.. ما ذنبه هو؟

- هيا يا أماه.. هناك حكومة.. اذهبى إلى الحكومة.. فيه

حكومة.. وهناك قانون.. اذهبى حيثما تريدين..

زادت سحابة الغبار.. والمرأة يداها على الأرض.. وقد غاصت فى التراب.. ثم التقطت حجراً كبيراً و «كوت».. فأغلق الرجل الباب.. وهو يقول :

– قحبة.. مجنونة... بنتها هى التى هربت.. هناك حكومة..

– «زوجة ابنك قحبة.. ابنتك فاحشة.. والزوج ترس.. ديوث...

عاود الرجل العجوز مواربة الباب.. وقال بصوت فيه لين :

– اذهبى يا أماه.. اذهبى.. اذهبى إلى الحكومة.. ماذا تريدين من هذا المسكين...

تطايرت سحابة الغبار... «كوووت»

– أنت لا تعرف خباياه.. لا تعرف قذارته...

وضع محمد أفندى يده اليمنى على سلسلة الساعة... يخرج الساعة... ثم... ثم يولجها فى الجيب.. يخرجها ثم يولجها.. كالماكينة... وبصوت كالبكاء :

– قولوا يا أغوات.. قولوا يا سادة... ما ذنبى أنا..؟.. يحصل كل هذا بعد هذه السن.. ؟ ابنتها هربت.. ما ذنبى أنا...؟ ماذا فعلت أنا..؟ تُعمى عيناى ولا أتدخل فى مسألة العرض هذه.. أنا لا أتدخل قط.. افتراء يا سيدى.. افتراء يا سادة.. إن شرف

هذه القرية هو شرفى أنا أيضاً.. تعالوا يا سادة، وضعوا أنفسكم مكانى...

الحجارة تتساقط كالمطر على الباب.. داخل الدكان عتمة... وقد تشقق أحد ألواح باب الدكان.. عينا محمد أفندى الصغيرتان ملحمتان... دخلتا إلى حد كبير فى محجرها.. دفنتا داخل وجنتيه.. أصبحتا كنقطتين من العرق على وجهه... عنقه السميك الملحم أحمر.. يده على السلسلة.. يده تعبث.. السلسلة تنزل وتصعد.. التفت بعنقه عدة مرات متلفتاً إلى ما حوله...

– إيه.. بعد هذا العمر.. مسألة الشرف هذه تقتلنى..

«كووت..»

– «أنت اللى عملتها»..

محمد أفندى يدور كالمكوك.. يده كالماكينة...

– هذه يا سيدى.. برزخ البلايا هل تموت أو تميت..؟ سأقتل نفسى..

سيللى فى مكانه.. فى مواجهة الباب.. على هيئته الدائمة نفسها.. عكازه على ذقنه.. ينتقض مع كل حجر يصطدم بالباب.. وتبدو يداه وكأنهما ترتعدان على مهل وتؤدة...

– بلاء.. بلاء يا سيدى.. ماذا أفعل أنا ؟

الدكان شبه مظلم.. محمد أفندى غارق فى عرقه ودمه.. لا يعرف ما الذى فعله.. بصوت باك :

– «أيـ..ه يا سيدى... بعد هذه السن يا سيدى...»

«كوووووت»

– ستحطم الباب يا سادتى، ستكسر الباب.. ما هذا البلاء الذى نزل على رأسى.. ألم يعد.. ألم يبق سوى تهريب الفتيات.. آخ يا سيدى.. لم يعد.. آه يا سيدى هناك من عمل سوى هذا.. يا سادة..

اقترب محمد أفندى من أحد المسنين. وبصوت كله رجاء:

– أرجوك يا سيدى...

– «يا أبو ذقن.. يا مخرى.. ثم..»

«كوووت»

وارب أحد المسنين الباب بهدوء، ثم قال :

– يا زوجة أخى.. يا أختاه.. جميلة.. يا أختاه.. اذهبى.. ماذا تريدين من هذا المسكين..؟ المسكين له فم وليس له لسان.. اذهبى أرجوك.. اذهبى يا امرأة كسرتِ الباب.. فيه حكومة.. ستحاكمين...

اختلطت سحابة الغبار بالسحاب.. فأغلق العجوز الباب.

فجأة أوقف محمد أفندى يده التى فوق سلسلة الساعة.. لمعت عـيناه.. اتجـهت يداه نحـو ثوب القمـاش.. وأكـوام البـضـاعـة المتراصة.. وأخرج مقطعاً من قماش البصمة المزركش الأحمر.. فرده.. قاسه.. ثم أعاد بسرعة تطبيقه.. ثم ملأ كيساً من الورق بالسكر.. فتطاير الذباب من فوق الجوال.. وقال :

– رستم آغا.. خذ هذا، وأعطه لعمياء القلب والعين هذه.. هى برزخ بلاء.. فلتـغرب عن وجـهنا.. لتذهب إلى الجـحـيم.. إنهـا ستـحطم الباب.. لم يعد هناك شرف.. لا تبـحثوا عن الشرف عندى يا سـادة بعـد اليـوم.. طار.. ذهب الشـرف.. ستـحطم الباب.. أعطها هذا من أجل أطفالها..

وقف رستم آغا.. ووارب الباب بهدوء.. وعاد وأغلقه فوراً.. كان على وشك أن يصيبه الحجر.. فصاح :

– قحبة.. فاحشة.. كنت ستقتليننى أيتها المعتوهة... ماذا تريدين ؟

وانطلق وأمسك بشعرها.. وقال لها :

– ماذا تقولين.. ؟ خذى هذا.. هذا لك.. واذهبى إلى بيتك..

وما إن لمست يداها ما قدمه إليها.. حتى قذفت بالقماش والسكر إلى الأرض، فانفردت القماشة الحمراء المشجرة على

الأرض فوق التراب، وتناثر السكر القوالب هنا وهناك.. وأطلقت المرأة صرخة بكل قواها :

– اشهدوا يا ناس.. اشهدوا يا أمة محمد.. الكل واحد.. الكل مع الدراندلى.. اتحدوا معه.. العون يا أمة محمد... هل عليّ أنا أن آكل روثكم.. ؟ الكل أصبح واحدا...

قامت بعض الفتيات المتفرجات بجمع هذه الحاجيات، ووضعها بجوارها.. نهضت على مهل.. وأخذت القماش البصمة.. والسكر إلى حضنها.. واتجهت نحو دارها وهى تُهرْصن بكلمات ما...

فتحوا الباب.. تدفق الضوء والنور إلى الداخل.. زغللت عيناه.. وبدأت سحابة الغبار تخمد رويداً.. رويداً.. أما الباب فقد تشقق من ضربات الحجارة التى ألقيت عليه.. فتقوَّل الجميع:

– انظروا إلى الباب.. وما فعلته تلك القحبة.. لن تصلحه حتى ١٥ ليرة..

حرارة شمس الظهيرة كانت تسقط على رءوس العباد كالرصاص.. وتكومت مجموعة من الدجاج تحت ظلال التوتة وهى تلهث.. أفواهها مفتوحة.. وأجنحتها متراخية.. ومن الطريق المقابل، مر كلب أصفر وقد مد لسانه أمامه شبرا.. وأرخى ذنبه

بين فخذيه .

***

القمر لم يبزغ بعد.. الظلام يشمل المكان.. رياح الغرب التى تهب منذ العصر قد هدأت.. أغصان التوتة قد التحمت بالظلمة، وظلت كالخيالات المهيبة، كانت تهتز وتتمايل فى هدوء.. القرويون الذين قد تجمعوا على شاطئ النهر المتدفق، قد رأوا انطلاق لهب رفيع عند أغصان التوتة الضخمة.. فأصبحت أغصانها فى خضم من الضياء.. وبدأت ألسنة اللهب الحمراء تلعق الأغصان...

فجاء صوت يصيح: «حريق.. حريق..».

هرع القرويون.. فالمشتعل هو الدكان.. محمد أفندى يده تعبث بسلسلة الساعة وهو يلف ويدور هنا وهناك.. غارق فى عرقه.. وانطفأت عيناه، وانزوتا أكثر من ذى قبل فى نقرتيهما.. وما إن تلمس حمرة اللهب عنقه الملحم حتى تزداد حمرته عما هو عليه..

– «.. العون يا سادة.. بالله عليكم.. ماذا فعلت أنا..؟ ما ذنبى أنا..؟ لقد خرب بيتى».. ثم زعق بأعلى صوته...

– إلحقوا يا ناس.. اتخرب بيتى.. الحقووونى يا ناس..

أولادى ضاعوا.. جاعوا.. تشردوا.. سنوات عمرى.. القرية.. سنوات طويلة.. يا ناس..

هب الفلاحون جميعاً.. خيش مبلل.. جرادل المياه.. بالتراب والرمل.. حتى تمكنوا من وقف النيران..

كان هناك واحد من المسنين قد وقف بجوار البضائع التى أمكن إخراجها من الدكان ليحرسها.. لم يمكِّن أى شخص من أن يأخذ أى شىء..

أمسك محمد أفندى بيدى هذا القروى، يقبل إحداها ثم يتركها ويقبل الأخرى.. يتبادل تقبيل يدى الفلاح المسن... ويردد :

– لقد أنقذتنى.. تسببت فى حياتى من جديد.. أحييتنى.. أولادى.. أطفالى.. بالله..

يده على السلسلة.. وجهه قد اسود.. من الهباب.. ومن الوحل.. لم يعد أحد يعرفه من السواد..

الرجال المتعبون.. الذين أنهكهم الجهد الذى بذلوه.. قد جلسوا غارقين فى العرق تحت ضوء النجوم.. كان من الصعب أن يتعرف كل منهم على وجه الآخر.. أما «طوس عثمان» الذى جلس فى ركن من الأركان.. فقد ألقى بالعصا التى كان يقلب

بها التراب.. وتدخل فى الحديث :

- .. لو فتشنا الكرة الأرضية كلها فلن نجده.. لو وقفنا كلنا.. كل أهل القرية على أقدامنا.. لو فتشنا كلنا.. النسوة.. والرجال.. والفتية.. فلن نجده.. لو بحثنا حتى الصباح.. فلن نعثر عليه أيضاً.. كلب ابن كلب.. أقول لكم لن تجدوه . لو وجدتموه.. قولوا عنى ما شئتم.. اختفى.. ولو قامت القيامة.. فلن يظهر..

لم تر الدنيا مثل هذا الأخرس الكلب ابن الكلب.. لم يأت مثله بين كل الكائنات.. من يدرى أين اختفى.. ؟

قال أحدهم :

- أمه.. وحدها هى التى تعرف مكانه...

طوس عثمان:

- حتى الجن الأزرق.. الله وحده هو الذى يعلم مكانه.. لا أحد يعرف..

خيال ضئيل.. يجلس بعيداً.. يقول بصوت أجش:

- كلب ابن كلب.. من كان يتصور أن يحدث هذا.. ؟ المجنونة جميلة وما فعلته بالنهار.. وما فعله الأحمق بالليل.. من يتصور هذا.. ماذا حدث لك أيها الحيوان.. ؟

صوت مسن :

– كم هو مجنون.. ؟ من يتصور ما فعله هذا..؟

مسن آخر..

– عندما يكبر سيكون بلاءً على القرية..

مجموعة أصوات معاً..

تحرك طوس عثمان من مكانه.. وجاء وسط الجميع.. وجلس متربعاً فوق الرماد.. وقال متسرعاً :

– بلاء أزرق.. بلاء أزرق.. أنا أعـرفـه.. أى كلب ابن كلب هذا..؟ ما أخطره من كلب ابن كلب.. ألا تذكرون ما فعله السنة الماضية بالحاج يوسف.. هل كان هذا شيئا يعقل.. بالله عليكم.. قولوا لى هل كان يعقل ؟

– لم ير له مثيل.. تعالت عدة أصوات..

استمر طوس عثمان قائلاً :

– قال الحاج يوسف «أعطنى ماء».. فلم يرد الآخر.. أعاد الحاج يوسف الطلب.. «أعطنى بعض الماء يا فتى».. فلا رد.. ولا جواب.. «يا فتى هات بعض الماء من هنالك..»... ولو كان الميت يتحدث لتحدث هذا الكلب.. ولم يهتم وكأن الكلام ليس له.. فزهق الحاج يوسف وهمزه.. فلم يصدر الآخر أى صوت.. ولم يغير

حتى من جلسته.. فقد أسند فكه على عكازه... وعيناه تنظران في الهواء.. وفي الصباح الباكر.. توجه إلى حقل الحاج يوسف.. فماذا ترى.. حقل بطيخ مساحته خمسة وعشرين دونماً من البطيخ.. كل البطيخ مخلع من جذوره.. أو مقطوع بسكين.. والناضجة مشقوقة بالسكين.. لم يبق هنالك فرع واحد دون أن يتلفه هذا الخنزير.. فقال أحدهم غاضباً، وهو يكز على أسنانه..

– الموت وحده هو الذى يخلصنا من مثل هؤلاء... لن يخلصنا منه إلا الموت وحده..

أمسك به الحاج يوسف وأوجعه ضرباً.. ثم علقه من رجليه في التوتة الضخمة.. وظل معلقاً بها هكذا يوماً وليلة.. فرآه «صاري محمد» معلقاً هكذا.. وقد تدلى لسانه من حلقه.. واسودت قدماه تماماً من شدة ربطة الحبل.. اسودتا تماماً..

قال واحد آخر:

– اتركه.. اتركه مدة أخرى يا حاج يوسف.. قليلاً..

وبعد يومين.. ماذا نرى..؟.. النيران تلتهم محصول القمح.. النيران مشتعلة في المحصول.. أنقذنا نصفه بالكاد.. في تلك السنة جاع الحاج يوسف.. جاع هو وأولاده.. وعياله..

ترددت الهمهمات.. فنهض طوس عثمان من مكانه.. وانسحب

وذهب إلى حيث كان.. ثم عاد.. وجلس فى مكانه.. وقال :

– ابحثوا عنه جميعكم.. كل القرية تبحث عنه.. لو وجدتموه.. أقطع ذراعى.. أقطع ذراعى إن وجده أحد.. لن يجده أحد.. فلو لم يجد ما يختبئ فيه.. فلسوف ينزل إلى أعماق أى بئر.. ويختبئ هناك.. هو لا يخاف من أى شىء... يمكنه أن يبقى فى قاع البئر ثلاثة أيام بثلاث ليال دون أكل أو شرب.. هو لا يخاف..

بدأ الرجال ينصرفون واحداً تلو الآخر..

قال محمد أفندى بحقد وكراهية :

– يحرق القرية.. بس يكبر.. ما إن يكبر هذا حتى يمسك بعلبة كبريت ويحرق القرية.. يضرم فيها النيران.. بس يكبر.. اليوم أنا.. وغدا أنت وبعد غد أنتم جميعاً.. علبة كبريت.. يبدأ بطرف من القرية ويخرج من الطرف الآخر.. لا يترك خلفه سوى النيران..

«.. هل يموت.. ؟.. هل يقتل».. همهمات تردد.. «الموت.. القتل».. بعد أن انصرف القرويون، فتح محمد أفندى باب الدكان.. وفجأة أحرقت أنفه رائحة شىء مشتعل.. وكانت قطرات الماء تتساقط من سدد الغاب متتالية فى وسط الدكان

بالضبط كانت عجلة كاوتشوك تحترق... وتركت فجوة فى السقف بحجمها.. ومن هذا الثقب الكبير الذى أحدثته النيران، دخل ضوء القمر.. الأرض مكتظة بالوحل.. البضائع متناثرة.. محمد أفندى يلف ويدور فى دهشة، وحيرة.. وكلما سقط ضوء القمر فوق السلسلة تلمع.. تتلألأ.. ويختفى...

ظل محمد أفندى مدة على هذا المنوال.. ثم أنهكه التعب.. فسقطت يداه على جانبيه...

***

الدكان قد فتح منذ برهة.. نصف قرص الشمس قد ظهر بالدكان من خلف قمة الجبل المقابلة.. الظلال ممتدة...

هز محمد أفندى يديه... فطرد أسراب الذباب.. فطار ما طار.. وسقط الآخر خلف الأجولة... ثم حط الذباب مرة أخرى فوق هذه الأجولة.. فالذباب عنيد.. فهز يديه مرة أخرى. وما كاد يرفع ذراعه لينش الذباب مرة أخرى.. حتى بقيت كما هى.. فقد امتدت نحو باب الدكان ظلال عكاز طويل.. ورفيع.. من وراء الظلال ظهر «سيللى» فطار لون محمد أفندى.. أصبح لونه كالرماد.. توقف الغلام عند الباب.. رأسه منتصب.. وجهه حاد الملامح فى تحد.. سار.. جلس.. أسند فكيه على عكازه.. شعر

رأسه الأشقر الذى أفسدته الشمس منكوشاً.. منتصباً شعرة شعرة.. وكلما كبرت الشمس كانت تغطى وجهه ببقع الضوء المتناثرة من بين أوراق التوتة الضخمة.. أسنانه العلوية طويلة.. كانت تلمع مع ضوء الشمس، وكانت ترى من بين شفتيه الصغيرتين على ذقنه آثار جرح قديم ممتد حتى شفته.. دموع عينيه كثيرة.. عينان زرقاوان ولكنهما ناعمتان.. نظر إلى البقال من تحت حاجبيه.. وبدا كأن هناك ابتسامة تداعب وجهه.. يده.. نزلت على سرواله الناصع.. النظيف المصنوع من الغزل اليدوى.. كانت هناك دماء قد جفت عند خصره.. وقدميه كانتا كذلك.. السروال ممزق من الجانب ويتضح منه أن الأغصان قد جرحت ساقه..

محمد أفندى يده تعبث بسلسلة الساعة المتدلية.. يده تصعد وتنزل على مهل.. نظر إلى الغلام طويلاً طويلاً.. فكر.. تنهد بعمق.. كان فى ركن من الأركان ملبس ملون.. ملأ منه كيساً ثم اختار مرآة على خلفيتها صورة امرأة عارية.. وعصفور بلاستيكى.. وبلى زجاجى ومنديل أحمر.. وليرة كاملة.. ثم توجه نحو «سيللى» ووضعها بجانبه... نظر «سيللى» إليها بطرف عينيه.. ثم سحبها بإحدى يديه إلى حجره.. ثم أخذ المرآة..

وقلبها على الوجهين.. ثم وضعها مكانها.. وكما يفعل دائماً.. جلس جلسته المعهودة.. مستنداً بفكيه فوق عكازه.. وظل هكذا دون أى حراك..

فخاطبه محمد أفندى قائلاً :

– ولدى.. ولدى البطل.. ما الشيء الذى قدمته أنا إليك..؟ ماذا فعلت أنا..؟ قدمت الخير على قدر طاقتى.. تكلم يا بنى العزيز.. ما الشر الذى قدمته..؟ ألا تعرف أنت من هى المرأة جميلة..؟ إنها تفترى يا بنى الجميل.. بعد هذا العمر كيف أخطف أنا فتاة.. كيف أهربها.. ؟ قل يا ولدى.. فلتعمى عيناى الاثنتين.. أنت ثالث أولادى... أنت ابنى الثالث.. لا فرق بينك وبين أبنائى... أنا أحب الرجال الأبطال.. والله أحبهم.. بالله أحب الشهامة.. وأنت أشجع الرجال فى هذه القرية.. منذ الآن.. مهما كانت حاجتك.. أنا موجود أو غير موجود.. ادخل.. ادخل الدكان، وخذ ما يلزمك.. خذ كل نواقصك ادخل الدكان وخذ كل ما يلزمك.. أنا موجود أو غير موجود.. مهما أردت.. أى شيء يأتى على بالك.. خذه.. لا تسألنى.. لا تستأذن.. الدكان دكانك.. خذ ما تشاء.. لو شئت خذه كله.. لأنك أنت ولدى.. ابنى.. هل فهمت.. كل هذه البضاعة لك.. منذ الآن هى لك.. خذها.. هل

تأخذ مرآة أخرى.. انظر.. ماذا ترى على ظهرها..؟ امرأة عارية على البحر.. مثل القشدة.. انظر ماس كهربائى.. يا ولدى العزيز.. يا بنى البطل.. منذ الآن أنت ابنى.. ولدى وعندما تكبر زواجك أيضاً على أنا.. هذا الدكان لك.. هذه البضاعة كلها لك.. خذ ما تريد.. لا تخجل..

نهض «سيللى».. فتح الباب بهدوء.. دخل.. كانت اللعب البلاستيكية معلقة فى ركن من الأركان... اختار ثلاثة أزواج من طيور البلاستيك.. ووضعها بين حاجياته الأخرى..

كز محمد أفندى على أضراسه.. وكتم غيظه وتابع:

– خذ.. خذ يا بنى.. خذ ما تريد.. هذه البضاعة كلها لك.. خذ ما شئت.

أسند «سيللى» عكازه على ذقنه.. وقف دون حراك.. ضيق من حدقتى عينيه.. فى الداخل ومن المكان الذى احترق ليلة البارحة.. ومن الفتحة التى فى حجم عجلة السيارة.. دخلت الشمس، كانت تضىء كل الدكان..

جاء رستم آغا أولاً.. ثم من بعده الحاج آغا.. ثم «طوس عثمان».. ثم جاء أيضاً «آنشا فخرى».. وتوالى مجىء الآخرين.. وكل من يدخل من الباب، يتوقف عند العتبة وينظر بدهشة إلى

سيللى.. ثم يذهبون ويجلسون حسبما يريدون..

خرج البقال من الدكان لبرهة..

ارتعدت لحية رستم آغا البيضاء.. وقال:

– يا ولد.. يا مجنون.. خربت بيت الرجل.. يا ديوث.. عريت المسكين.. هل يجوز هذا العمل.. ؟ أليس عيباً.. ؟

فقالت مجموعة من الجالسين معاً :

– أليس عيباً.. ؟ حرام.. والله حرام... ستحترق فى نار جهنم..

قال رستم آغا :

– لا تفعل يا بنى.. «هتشوف زى اللى بتعمله..».

قالوا جميعاً :

– «هتشوف الويل..».

آنشا فخرى :

– سترى مثل ما تفعل.. وها هو محمد أفندى وجد نتيجة أفعاله.. وجد نتيجة ما بذر.. حصد.. ماذا تقولون للولد منذ الصباح.. الولد اصطاد قائد السرب.. هو أسد.. عفارين يا سيللى.. ولد شجاع سيللى..

قال رستم آغا بغضب:

– هيا اذهب.. بالله عليك.. تنكر الجميل.. لست أنت وحدك، بل والدك أيضاً ووالد والدك تربوا من خيره.. ناكر للمعروف.. «بلاش كده».. يصيبك فى ركبك وفى عينيك.. لا تفعل هكذا.. ربنا موجود.. محمد موجود...

آنشا فخرى طويل.. نحيل.. فمه أسود.. شفتاه غليظتان حمراوان.. ففى القرى يعرف أبناء الأرامل بأسماء أمهاتهم.. نهض على قدميه بغتة.. ثم انتصب فى مواجهة رستم آغا.. وقال:

– انظر يا عمى.. لسنا نحن ناكرى الجميل.. ناكر الجميل هو ذلك الديوث.. انظر يا عمى أنا أتكلم.. فاسمع أنت.. إنه يبيع بضاعته بضعف السعر الذى فى المركز.. فهل هذا يجوز؟! إنه يبيع هكذا.. وهل يمكنه ألا يبيع..؟

–.. على النوتة يا بنى.. يبيع بالأجل.. ومن يبيع بالأجل..؟ من يبيع بالدين؟ يبيع يا بنى.. وهل يعطى بنصف السعر..؟.. هل يعطى بسعر القمح.. ؟ إنه يبيع الآن لما بعد الغد.. هو هكذا دائماً.. بهذا نحن مناصفة معه.. أليس كذلك..؟

احسب مكسبك.. أنت تأخذ الآن.. وتدفع فى المحصول.. لو كنت مكانه.. إنك تدفع الآن لتأخذ ربما بعد سنة.. ربما نصف

سنة.. احسبها أنت يا بنى.. هل هناك من يفعل ذلك..؟

– لا تنكر الجميل يا بنى...

فغضب فخرى.. وقال :

– عمى.. أنت دقة قديمة.. لا تفهم هذا... هذا النفاق هو الذى أوقع القرية فى بعضها.. منافق.. كويس ما عمله «سيللى» عمل خيراً..سلمت يداه.. «ربنا بيصلت أبدان على أبدان».. الكافر يأخذ حق الملحد..

فقال رستم آغا :

– اعقل يا بنى.. لا تفسد نظام القرية.. هذا أمر سيئ.. لا تعلم الأطفال الفساد.. ففى الصباح يأخذ علبة كبريت.. يدخل من ناحية.. ويخرج من الأخرى.. يحرق كل القرية.. يدخل من جهة ويخرج من الأخرى..

فخرى يرد قائلاً :

– إذا كانت القرية عديمة الشرف مثل محمد...

يدخل محمد أفندى إلى الداخل وقد سمع كل ما قيل.. ولكنه تظاهر بعدم سماعه لهذه المناقشة فقال :

– فخرى أفندى يا بنى.. أهلا بك وسهلاً.. لم نرك منذ أمد بعيد.. كيف حالك ؟ تفضل اجلس هنا... والدتك جاءت أمس هنا

وتحدثنا.. ربما يطول فى عمرها.. «ست كويسه».. ليس فى هذه القرية مثلها.. لا مثيل لأمك.. بحق الله ليس هناك مثلها.. كل.. اشرب.. اشكر ربك أن لك أماً مثلها.. إنها ملاك.. يا ليت لى أما مثلها.. «كانت بقت ذراعى اليمين».. اشكر ربك.. أمك.. أحسن من مائة رجل..

ثم التفت إلى الناس.. وقال :

– عمل الخير أصبح حرامًا.. دائماً الشر يأتى ممن أحسنت إليه.. يأتى الشر يا سيدى.. ممن أحسنت إليه.. أطلب نصف الدين الذى لى منذ عشر سنين.. وهى لا تدفع أيضاً.. دائماً تقول اعمل خيرا..

عقب ذلك تدخل أحد الموجودين.. وقد بدت ملابسه ممزقة.. مهلهلة... علامات الفقر بادية جداً على ملامحه.. قال غاضباً.. ومحتداً..

– أدفع منذ عشر سنين.. أدفع والدين لا ينتهى.. دينى دائماً ما يلد.. يتكاثر.. لو لم يلد لانتهى منذ أمد بعيد.. فلن أدفع بعد الآن.. لو جاءت كل الحكومة والنيابة فلن أدفع.. عشر سنين.. كل سنة أظن الدين قد انتهى.. يفتح الدفتر الأصفر مع كل موسم.. فى الحصاد..

– قولوا يا سادة.. اعمل خيراً.. اعمل خيراً.. وكن كذابا.. اعمل خيراً وكن نصاباً.. اذهب يا أخى.. ابتعد عنى.. أنا لا أريد منك شيئاً.. اذهب حتى لا تكون بلاء على رأسى..

فجاء من الخارج صوت أجش.. فاصفر وجه محمد أفندى وطار لونه.. «عنب.. زيت.. زبدة.. ها.. رخيص.. مرايات.. فلايات.. إيشاربات.. إبر.. حراير.. قماش..».

فقال الرجل ذو الملابس الممزقة :

– اسمع.. انظر.. يا كافر.. هذا الشاب يبيع بنصف الثمن الذى تبيع أنت به.. ثم خرج وانصرف..

من أمام الدكان.. مر بائع قصير القامة، أمامه ثلاثة حمير.. وعلى ظهره فترينة زجاجية.. وهو ينادى..

– زبدة طازجة.. رخيصة.. «يا بلاش».

سألت الفتاة التى دخلت إلى الدكان :

– يا عمى محمد.. ألا توجد توكة.. ؟ «مفيش توكة بنجمة»..؟

فقال محمد أفندى فى «لهوجة»:

– لا يوجد... لا.. لا يوجد يا ابنتى.. لا..

خرجت البنت.. وكان كفلاها يهتزان داخل شلوارها الأسود الواسع.. وقد وضعت فستانها الأحمر فى خصرها من عند تكة

سروالها.. وحلمتا نهديها قد ظهرتا من تحت ملابسها.. وكلما سارت اهتز نهداها تحت الملابس...

بعد قليل خرج محمد أفندى من خلفها..

وقفت الفتاة عند ركن من أركان الكوخ.. واستندت إلى بوصة بجانبها الأيمن وكانت عيناها تتلألآن من بين رموشها الطويلة..

فتطايرت الدجاجات التى كانت تنبش الأرض تحت ظل التوتة الضخمة..

قال محمد أفندى :

– ابنتى.. ابنتى العـزيزة.. أنت ابنتى الهـانم.. أنا لا أفكر قطعياً فى أن أسىء إليك.. هل هناك رجل يفكر فى الإساءة إلى ابنته..؟.. هل هناك أى إنسان يفكر فى الشر لابنته التى من دمه ولحمه..؟ أنت ابنتى.. وابن المدينة يختلف عن ابن القرية.. المدينة حاجة.. والقرية حاجة ثانية.. لنفرض أنك أخذت «جول على».. بالحق.. هو ولد جدع.. شهم.. ولكن جوعان.. ستتبهدلين وراءه.. عامل ترحيلة.. النهارده فى جوقوروفه.. وبكره فين..؟.. جمع قطن.. ضم أرز.. ناموس.. بعوض.. ذباب.. ملاريا.. هل ينتهى بلاء القرية..؟ بهدلة.. مهزلة.. بنيتى أنت تعرفين أمورك.. القشف سيأكل يديك.. التجاعيد تملأ وجهك.. ووجهك الذى مثل الوردة

هذا سيصفر ويذبل.. تصبحين مثل العجوز التى فى عمر السبعين.. ستكونين كالكلبة التى خلفها شلة من عرايا الكفلين.. كالكلبة.. تتورم عيناك.. تتملكك الحمى.. لا خبز.. عريانة.. ولكن أهل المدينة.. وجدوا الحل.. طفل واحد.. واحد كمان.. وتمام.. نعيم.. راحة.. فكرى.. الرجل واقع فى حبك.. قلبه اختارك.. هذه فرصة.. فرصة لا تضيعيها يا ابنتى.. سيكون لك كالوالد أيضاً.. أونباشى فى القراقول.. رجل شهم.. وهل لا توجد فى المدينة كلها بنت تناسبه.. لو أشار بإصبعه.. يرتمين تحت قدميه.. قلبه أحبك أنت.. هذا قلب.. والقلب وما يحب... قائد مخفر.. ألا تفهمين أونباشى.. على جوعان.. عريان.. أما هذا.. شىء آخر.. هو يشترى وأنت تأكلين.. على شجاع ولكن.. ماذا يأتى من وراء الجوعان والعريان... أنت تعرفين يا بنيتى.. فى المدينة تلبسين البالطو.. تلفين حول عنقك فرو الثعلب فى أيام البرد.. سترتدين القفازات فى يديك.. الزوج منه بخمسين ليرة.. خمسين ليرة.. هذا هناك.. فى المدينة.. ولكن هنا.. الوسخ.. الوحل.. قولى لى.. منذ أن ولدت رأيت فى هذه القرية امرأة واحدة لبست فى قدميها حذاء.. ؟ تحدثى.. هل النسوة هنا يعرفن ماذا يعنى الحذاء..؟.. هناك لن تخلعيهما من قدميك..

حتى فى داخل بيتك.. وهنا.. عمرك لن ترى رغيفاً صحيحاً.. هناك عيش.. خبز أبيض كالثلج.. ليلاً ونهاراً هكذا.. قائد كبير.. أونباشى فى القراقول.. ليس هذا فقط.. له مرتب ثابت.. ما يأخذه فى شهر واحد تعيشين به أنت وعلى هذا العمر كله..

– قالت الفتاة :

– يا.. ولو على قتلنى.. ؟

– لا يا ابنتى.. لا.. يستدعيه إلى المخفر.. خفيران يقودانه إلى القراقول.. هذا حكومة... وهل على يستطيع أن يقف فى وجه الحكومة.. ؟ الرجل قائد.. حكومة..

الحكومة تقول : قف هنا.. يقف.. سر إلى هنا يسير.. يرسل به حافى القدمين إلى قيظ چوقورفه... لا يهمك.. ستعيشين مثل هوانم المدن.. فكرى.. جهزى صرتك.. لا تضيعى هذا الجمال...

صوت البائع :

–.. رخيص.. أبيع رخيص.. زبدة..

اتجهت يدا محمد أفندى إلى سلسلة الساعة.. اصفر وجهه.. وغابت عيناه فى محجريهما..

قال :

– ابنتى.. أخبرى النسوة ألا يشترين منه شيئاً.. بضاعته من

مصنع محترق.. بضاعة رخيصة.. ولكن محترقة.. قبل أن يرتديها الإنسان تتمزق.. هن لا يعرفن ذلك.. يشترين..

فتحت الفتاة شفتيها اللتين لونتهما باللون الأحمر الفاسد.. شفتاها غليظتان منفرجتان.. وعيناها السوداوان قد غلب عليهما التفكير .

***

نهض محمد أفندى من فراشه قبل أن تبزغ الشمس.. وسلك طريقه نحو بيت الآغا وهو شبه نعسان.. وصل إلى العريشة.. وكانت النموسيات ترى وكأنها خيالات فوق العريشة.. وقف أسفل العريشة.. وكانت الثيران قد رقدت فوق روثها وهى تجتر.. أسند أحد كتفيه إلى دعامة من دعامات العريشة.. انتظر..

بعد فترة قال بصوت يسمع بصعوبة منادياً :

– يا أخ.. يا أخى.. «دورموش آغا».. ! قم.. انهض يا أخ.. يا دورموش انهض يا أخى.. استيقظ يا أخ د...

لم يأت أى صوت من فوق العريشة.. صعد محمد أفندى عدة درجات من السلم الخشبى.. وهو ينادى :

– أخى.. يا أخى دورموش.. تحرك يا أخ.. استيقظ يا أخى..

لقد جئتك فى أمر مهم..

استيقظت امرأة.. وقالت :

- آغا.. هناك من يناديك من أسفل..

صوت غليظ يغلب عليه النوم :

- من.. ؟ من أنت.. ؟

فرد محمد أفندى قائلاً :

- أنا.. أنا يا أخى..

الصوت الغليظ :

- اصعد.. ماذا هناك.. خير إن شاء الله.. ماذا حدث فى منتصف الليل؟

صعد إلى أعلى.. وجلس على أطراف فراش دورموش آغا.. اعتدل دورموش آغا فى جلسته:

- ماذا هناك.. ؟ ماذا حدث لك هكذا...؟

فقال محمد أفندى :

- لا تسأل.. لا تسألنى يا أخ... الوضع سيئ.. هل بعد هذا العمر يحدث لى هذا.. صعب علىَّ هذا.. صدقنى.. هذا صعب على..!! قالوا... دورموش آغا.. قلت لا أصدق... لا يمكن أن يحدث هذا من دورموش آغا.. سنوات طويلة ونحن نعيش

إخوة.. سنوات طويلة إخوة يا سيدى.. نعم..

سيدى.. يا.. يا سيدى.. لو كان عظمى من الله.. فلحمى من دورموش آغا.. قلت لا يمكن أن يفعل هذا.. لا يسىء إلى قط.. دورموش آغا شهم.. لا يرد من يطرق بابه.. لا يرد السائل.. لا يمكن أن يأوى من طرده أهل «يرى بوقوش».. قلت هذا لكل أهل القرية..

زعق الصوت الغليظ.. قائلاً

– قل ماذا حدث.. ؟ ما وراءك.. ؟ ماذا فعلت أنا ضدك..؟

– أرسل مرسالاً ابن الشيطان هذا.. بعث بخبر.. إلى أهالى القرية.. قال إن محمد أفندى هو الذى طردنى من القرية.. قالوا أن أحضر إلى القرية وأفتح دكاناً بها.. فى مقابل دكانه.. قال هذا بالعند.. أبيع بنصف الثمن.. وما أبيعه يحل محل بضاعته..

توقف قليلاً.. فكر.. ثم قال :

– السعر الذى أبيع به لا يمكن أن يبيع به محمد أفندى... هو لا يبيع بضائع المصانع المحترقة فى الصباح وجهاً لوجه.. أنا لا أبيع يا أخى.. هل يمكن أن أفعل هذا وجهاً لوجه..؟ لا يمكن أن أفعل هذا.. أجوع أتسول.. ولكن لا أفعل هذا... هو قال هكذا يا درموش آغا.. هذا كلامه.. يا أخى درموش.. قال

إنك أنت يا أخى دورموش الذى ستعطيه مكاناً للدكان.. أبوس رجليك.. أقبل قدميك منذ سنوات طويلة ونحن نقول لبعضنا.. يا أخى.. قلت إنك أبى.. ناديتك قائلاً : بابا.. هذا صعب على.. لا أصدق.. ماذا تقول يا أخى.. نادينا بعضنا بهذا اللقب..

دورموش آغا اعتدل فى جلسته وقد سيطر عليه النعاس...

- «ماذا تقول يا أخى.. ؟ قل شيئا.. فلأقبل قدميك.. أجب على.. والله الأمر صعب على.. طردوه أهالى «يرى يدقوش».. ونحن أقل منهم.. ؟ صعب على جداً.. أبوس رجليك قل حاجة.. أى حاجة.. أجب..

- «ما تقوله.. ليكن كذلك».. قالها.. ثم سقط رأسه على الوسادة..

***

سِيللى فى مكانه.. لم يتحرك من مكانه.. يبدو وكأنه ليس هنا.. ينظر نحو محمد أفندى الذى يهمس إلى قره طوران...

هز محمد أفندى يده.. طير أسراباً من الذباب.. ثم أنزل يده فى مكانه؛ وقال :

- انظر إلى يا بنى طوران.. زواجك على أنا.. كل مصاريف الزواج من عندى.. لا تفكر قط فى هذا.. سأجعلك ثرياً.. الأمر

صعب على.. يقتلنى.. الشرف.. وزع العنب.. الزبيب.. الشربات على الأطفال.. بعد أن تنهى المسألة.. سأعطيك أكثر.. سأعطيك نقوداً أيضاً..

نصب قره طوران قامته جيداً وقال :

– عمى.. «علشان خاطرك أعمل أى حاجة».. نحن لسنا أقل من أهالى «يرى يوقوش» لن نسمح لعدو الشرف أن يدخل قريتنا.. لن يأتى إليها.. هل هذه القرية كانت من أموال أبيه..؟ هذه القرية قريتنا.. نبقى بها من نحب أما هو فهل ممكن أن يبقى بها..؟.. عدو العرض والشرف.. هل نحن نسوة..؟ فليأت هذا البائع الشيطانى.. ليرى.. ؟ سترى ماذا يحل به..

– فرح..

فقال محمد أفندى من خلفه :

– إذا لم أزوجك هذه السنة فلا تنادونى بـ «محمد».. فلسوف أراك..

وما إن خرج، وعقب ذلك مباشرة.. حتى ظهر عند الباب عجوز هرم.. وقد تدلت أمامه معدته.. وبدت أسماله بالية.. كان يجر قدميه.. اقترب من محمد.. وقال :

– أنت يا محمد.. أعطنى عنب بناتى..

انحنى محمد أفندى على أذن العجوز، وصاح :

– ما الكمية.. ؟ «قد أيه» ؟

فتح العجوز راحة يده اليمنى..

– كيف أعرف أنا.. ؟ املأ هذه.. بهذا القدر.

وزن محمد أفندى العنب.. أخذه العجوز، وبدأ يجر قدميه وانصرف.. وغاب كأنه الظلال التى تغيب من ظهور الضوء..

***

تجمع كل أطفال القرية الذين تقل أعمارهم عن اثنتى عشرة سنة فى الميدان القريب من الدكان.. وأياديهم وجيوبهم مليئة بالحصى والحجارة.. كانوا ينتظرون شخصا ما.. تشاجر طفلان.. فرقهما قره طوران.. طوران قصير القامة.. ولذا لم يكن يختلف عن الأطفال.. الأطفال والصبية لا يستقرون فى أماكنهم.. وبعيداً عنهم وعند الكوخ وقف سيللى وقد أسند عكازه على ذقنه.. يقف وحده.. الأطفال يظهرون الحجارة التى فى أيديهم لبعضهم البعض..

قال قره طوران :

«قفوا».. «يا أولاد الكلبة»... «ها هو عدو الشرف قادم..»

استعد الأطفال.. من بعيد.. ظهر البائع وعلى ظهره ڤترينته

الزجاجية، وكلما وقعت عليها أشعة الشمس تلألأ الزجاج.. وأمامه حميره الثلاثة وهى محملة بالبضائع.. وظهر البائع بقامته وعنقه الطويل.. وهو ينادى على بضاعته :

– رخيص.. نصف الثمن.. طازج.. جديد.. أطباق.. ملايات.. سليمة..

وما إن وصل البائع إلى مواجهة الصبية.. حتى انتصب قره طوران.. ورفع إصبع الشهادة الأيمن زاعقاً:

– هيا مارش.. مارش.

انطلقت الحجارة.. الجلة.. الروث.. الوحل.. السباخ الطازج نحو البائع، لم يتوقع الرجل ما حدث.. أسقط فى يده.. وقف مندهشاً.. التف الأطفال حوله.. أمطروه بالحجارة.. تحاملت الحمير على بعضها البعض.. الوضع سيئ.. لم يبق معه شىء لم يكسر.. سيللى، فى لمح البصر، كان أمام الأطفال وفى يده عكازه.. بدأ يهش بعكازه.. خاف بعض الصبية وفروا.. وقفت أمطار الحجارة والروث والوحل.. أنزل البائع قترينته من على ظهره.. نظر إليها لكى يرى ما إذا كانت قد كسرت أم لا.. لم تكسر.. انكفأ البائع عليها.. سيللى واقف أمامه.. فتح البائع فمه وعينيه فى دهشة، وحيرة.. نظر إلى سيللى بصداقة.. نظر إليه

سيللى أيضاً.. ثم فجأة نظر كلاهما نحو الدكان.. عاد سيللى أدراجه.. إلى مكانه.. دخل قره طوران إلى الدكان لاهثاً وقال:

– عمى.. الأطفال خافوا من سيللى.. كنا سنقطع نفس الرجل – تلفت خلفه – كنا سنقضى على ما معه.. سيللى خوف الأولاد.. لو مسكته.. وضربته.. أنت تعرف الباقى.. كاد الأمر ينتهى.. ولكن.. ماذا نقول.. ما حدث.. كلب ابن كلب.. مجنون.. رجل مجنون.. «فلا تدخل إلى الجوال مع الكلب المسعور..»

ردد محمد أفندى.. ثم قال :

– «تعمى عينيك يا سيللى».. قدمت لك آلاف الحسنات، يا أعمى القلب.. تعال يا طوران يا بنى.. صعب على الأمر جداً... زواجك على.. كل المصاريف من عندى.. هذا دين فى عنقى... خذ هذه... !

ومد إليه بضعة أمتار من قماش بصمة مزهر.. وتابع قائلا :

– «وديها» لأم سيللى.. الوضع هكذا.. لتعمل المستحيل وتبعث بهذا المجنون إلى خارج القرية لمدة ساعة أو ساعتين.. فخلال الساعتين يمكن أن يقتل فيهما الإنسان... ليغرب عن وجهنا المجنون.. ولينته الأمر..

قره طوران :

– والاولاد أيضاً كانوا يقذفونه برغبة فى أن يقتل...!!

***

الوقت.. وقت العصر.. وظلال التوتة الضخمة قد انتشرت فوق الأرض، ظلالها كثيفة.. وممتدة.. سيللى عاد من حقل خاله الذى بعثت به أمه إليه بطعام الغداء بعد توسل ورجاء.. على قارعة الطريق.. خلف منزل على.. رأى الحمير وقد مدت رقابها على بعض.. خفق قلبه.. وازدادت ضرباته..

فهم المسألة.. البائع ملقى على الأرض.. وقد أسند ظهره إلى السدة.. رأسه محنى.. ساكن.. لا يتحرك.. الفترينة فى ناحية.. وقد تحطم زجاجها قطعاً.. قطعاً.. ولم يبق فيها أى شيء.. وقد تناثرت البضاعة على الأرض.. فوسط التراب ترى قطع الصابون.. والسكر.. لعب الأطفال البلاستيكية المختلفة الألوان.. وبضائع أخرى كثيرة قد تبعثرت فوق التراب فى جميع النواحى.. جاء «سيللى».. وانتصب واقفاً أمام البائع.. يداه ترتعد.. رفع البائع رويداً رويداً.. عيناه ووجهه ملطخان بالدماء.. شفته السفلى مشقوقة.. على فكه الأسفل بقيت دائرة من الدم.. دائرة دم جاف..

نظر «سيللى» بغضب وحدة.. تلاقت أعينهما.. حولا نظريهما

ونظرا نحو الدكان.. سار سيللى نحو الدكان.. فتح الباب بهدوء.. ودخل من جوار محمد أفندى.. اختار مجموعة من الطيور البلاستيكية.. وبضع بليات زجاجية.. وملأ جيوبه بالعنب وفنار جيب.. ومنديل.. فتحه.. وضع فيه كل ما وجده.. ووجد فيه فائدة...

محمد أفندى يتطاير من عينيه الشرر.. يتغير لون وجهه من لون إلى لون وهو صامت.. لا يتحرك.. جلس سيللى.. ورص الحاجيات فى المنديل.. صره.. ثم جاء... وانتصب واقفاً فى مواجهة محمد أفندى.. نظر إليه طويلاً.. طويلاً.. ثم استجمع كل قوته.. وقذف ببصقة قوية إلى وجه محمد أفندى قائلاً: «حقك أهوه». تسمر محمد أفندى فى مكانه وقد غطت البصقة وجهه وعينيه...

# الطيور المهاجرة
## طورنه لر - *TURNALAR*

**إلى كل من تحملت غربة زوجها فى عزة، وشرف، وأدت دورها فى كبرياء وشمم**

**المترجم**

تباشير الصباح تبدو من بعيد، والأبخرة الرقيقة تعلو سطح الأرض.. رويداً رويداً تتجه نحو السماء..

جولبهار حضرت إلى الحقل فيما قبل السحر.. لم تستطع بعد التفرقة بين عيدان القطن والأعشاب الأخرى.. ستشرق الشمس بعد قليل.. وهى تعلم كم ستكون قائظة... محرقة.. وأنها ستتلظى تحت لهيبها.. وأن أنفاسها ستقطع.. والعرق سيغرقها.. وتراب الأرض يكويها.. ولكنها تنتظر بزوغها بفارغ الصبر.

كانت تقف مستندة إلى فأسها مستغرقة فى التفكير.. وفى

الأفق البعيد.. وفوق قمم الجبال.. بدت خيوط الضوء.. تراءت كرات السحب البيضاء.

لقد مضى على سفر محمود تسع سنوات بالكمال والتمام.. محمود كان رجلا متناسقاً.. طويل القامة فارعها.. عريض المنكبين.. لامع العينين أسودهما.. غليظ الشفتين.. كل الذين يعرفونه يؤكدون أنه لم يأت إليها من هو فى تناسق محمود.. بل لم يأت إلى هذه الدنيا.. فهو نموذج ليوسف زليخة..

محمود لا يملك فى القرية سوى دونيمات خمسة.. حقل بهذه المساحة لا يمكن أن يكفى أسرة حتى ولو كانت مجرد زوج وزوجه.. بعد زواجهما بشهرين فقط لم يتحمل محمود قسوة الفقر، فهاجر إلى بلاد الغربة، سعياً وراء العمل. وقبل سفره قال لجولبهار.. عليك أن تزرعى وتحصدى الحقل وتتعيشى منه حتى أعود...

كان ذهابه هو هذا الذهاب... لم تسمع منه صوتاً، أو.. خبراً عنه.. وانقطعت كل أخباره..

جولبهار لم تمل الانتظار.. قضت التسع سنوات وهى تنتظره؛ كل يوم.. كل ساعة، بل كل لحظة فى شوق وحنين..

يزداد إليه الشوق والحنين فى بعض الأحايين.. وتتأجج

داخلها.. خاصة فى أثناء مرور الطيور المهاجرة فوقها فى السماء.. ففى سماء هذا الوادى المنبسط تمر قوافل الطيور المهاجرة أحياناً فى أسراب متتالية.. وأحياناً أخرى على موجات وأفواج.. تارة فى حلقات.. وتارة أخرى على شكل خط مستقيم.. وأخرى على شكل مثلث.. وكأنها قد ألصقت فوق السحب البيضاء.. كنقاط سوداء..

جولبهار.. امرأة جميلة.. شابة.. قد طلبها الكثير من شباب هذه القرية، وقرى أخرى.. ولكنها قالت محمود.. ولا أحد غير محمود..

لم تغير تلك السنين فيها أى شيء؛ فما زال نهداها مشرئبين.. وخصرها نحيلا... وإليتاها ملتفتين شهيتين..

كانت شفتاها المتوردتان وعيناها العسليتان تظهر أنها منذ الوهلة الأولى امرأة راغبة ومرغوبة.. ولكن طوال هذه السنين التسع لم يلمس يدها آخر.. لا يمكن القول إنها كانت عندما ترى رجلاً أنيقاً، أو شاباً فتياً، لم تكن تتحرك عواطفها أو كوامنها، أو تتنازعها الرغبة.. وحتى ذلك لم يكن لتسامح نفسها عليه، بل كانت توبخ نفسها.. وتعد ذلك خيانة لمحمود الذى أحبته هو فقط... كان الكثيرون فى القرية لا يملكون أنفسهم عن التنهيدة

عندما تقع أعينهم عليها..

فمنذ سفر محمود وهم لا يتركونها في حال سبيلها.. بل ضايقوها بكل ما يخطر على البال من صنوف المضايقات.. حتى وصل الأمر أن حاول البعض الاعتداء على عرضها، واغتصابها قهراً، بعد أن تمكن من فتح بابها والولوج حتى فراشها.. أما جولبهار التي كانت أقوى من أي رجل، فقد أمسكت به.. ضربته ضرباً مبرحاً حتى الموت، ربطت يديه ورجليه.. وألقت به أمام باب البيت ليكون عبرة لغيره..

الليالي جحيم بالنسبة لها؛ ففي بعضها لم تكن لتذوق طعم النوم حتى الصباح.. جسدها ألسنة لهب.. تتحرق شوقاً للرجل.. كل ليلة وهي في فراشها.. وهي تعيش هذه اللحظات المحرقة.. كان محمود يتراءى لها.. يتراءى.. ثم يتلاشى..

في القرية تدور الكثير من الروايات عن محمود، كلها تتحدث عن عدم عودته على الإطلاق، معيشته في المدينة.. زواجه من فتاة تعيش في القصور العالية.. وأنه أصبح صاحب مزرعة وسيارة.. وهناك إشاعة أخرى، تقول إن محموداً كان يشتغل بواباً لدى صاحب مصنع كبير.. وذات يوم.. بينما كان محمود يصطحب ابنته الوحيدة عند ذهابها وإيابها من المدرسة.. هامت

به الفتاة حباً.. ما إن سمع الأب ذلك حتى سعد به كثيراً.. وقال لابنتـه.. أحسنت صنعاً يا ابنتي.. فمن يدرى : كم سيكون أحفادى من هذا الرجل الوسيم جمالاً.. زوَّجها على الفور.. بعد الزواج بمدة قصيرة توفى الأب صاحب المصنع.. لم يكن هناك غير ابنته لترثه.. إشاعة أخرى تحكى أن «كَلْ دورموش» رآه ذات يوم فى المدينة.. عرفه.. فكر أن يقترب منه ليحادثه.. فجرى نحوه.. وقف أمام السيارة... السيارة سوداء فخمة.. ومحمود جالس فيها وقد ارتدى حلة زرقاء ورباط عنق أحمر.. كان فى ملبسه ومظهره أكثر أناقة من القائمقام...

فوجه حديثه نحو «كل دورموش» متسائلاً :

– ماذا تريد ؟ قل.. لماذا قطعت طريقى هكذا ؟

فقال دورموش :

– ألم تعرفنى يا محمود.. ؟

نظر محمود إلى وجهه ملياً ومتفحصاً.. ثم قال لسائقه :

– «هيا... سر..» وانطلق بسيارته مبتعداً..

لو لم ينسحب «دورموش» قليلاً لدهمته السيارة.. وصرعته..

لم تكن جولبهار تصدق أياً من هذه الروايات.. إنه قد ذهب لكى يكسب ثروة تمكنه من شراء منزل وحقل يكفى لإعاشة أهل هذا

المنزل.. إنه لن يرتكب إثماً.. ولن يحل لنفسه ما حرمه الله.. ولن ينظر لامرأة أخرى حتى ولو بطرف عينه..

كانت دائماً تحاول أن تقنع نفسها بهذا.. لكنها لم تنجح فى ذلك قط..

ما إن أوشك النهار على البزوغ.. وقمم الجبال يلفها النور.. حتى شمل الضباب كل الوادى.. غطى التربة الغاضبة وكأنه ستارة من التُّل الأبيض.. غيطان القمح الأصفر.. حقول القطن الأخضر، أقراص عباد الشمس الأحمر.. كانت كلها مع نسمات الصباح تتمايل وتنحنى ثم تعاود النهوض والارتفاع.. كأنها أمواج متهادية..

جولبهار تنتظر بزوغ الشمس من ناحية، ومن ناحية أخرى تهاب هذه الشمس البازغة.. تملكتها الشهوة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.. فى هذه اللحظات.. لو صادفها أى رجل.. لو أمسك بيدها، وقادها حيث يشاء لسارت خلفه منقادة.. مستسلمة.. ولكنها تشكر الله كثيراً... لأنها لم تصادف أى رجل خلال هذه اللحظات العصيبة... سقطت الفأس من يدها.. التربة طرية.. ساخنة.. فتحت جولبهار أزرار صدرها.. أخرجت نهديها.. تمددت على الأرض ووجها إلى أسفل.. بدأت تزحف

على التربة الساخنة وهى تتأوه كلما لامست الأعشاب الحادة ثدييها أو حتى مزقتهما الأشواك الدقيقة الطرية.. كانت تزداد تهيجاً.. وتمرغاً فى التراب والرماد دون أن تمسح ثدييها الداميين.. كانت تزحف هكذا حتى تصل إلى الطريق الترابى.. تتلوى.. ثم تعود متلوية.. متأوهة..

النهار قد طلع.. محمود قادم.. وقد ارتدى بدلة زرقاء.. ورباط عنق أحمر، حمرته تفوق قرص الشمس.. أو وهج اللهب.. وحذاء أحمر لامعا.. شفتاه ورديتان... محمود قادم.. فرحة.. بهجة.. صيحات الفرح تدوى فى الوادى.. محمود قادم.. الآن سينزلان إلى الربع.. تلاقيا.. احتضنا صار الجسدان بدناً واحداً.. كانا يشتعلان كاللهب.. غرقا فى الشهد والعرق...

محمود حسن الهندام.. يفوق أبناء المدينة.. حتى إنك لا تجرؤ على لمسه بيديك.. تسمرت «جولبهار» فى مكانها مبهورة... فقميص محمود ناصع البياض.. ويداه كذلك.. واضح أن يديه منذ ذهابه وحتى إيابه لم تعرفا الشقاء.. واضح جداً من طراوة وجهه ولمعانه..

كانت «جولبهار» تبتسم أمامه.. شفتاه.. كم هما جميلتان.. وعيناه.. كم هما سوداوان.. ظلا واقفين وجهاً لوجه لفترة ما..

فى يد محمود صرة.. سقطت الصرة من يده على الأرض.. واضح أنها ممتلئة.. وأن بها أشياء كثيرة..

حال محمود.. كل تصرفاته تطلب الصفح والغفران. يتلعثم.. الأمر.. كذا.. الموضوع.. هكذا.. لم تنقذه كل الحيل.. لم يجد فى نفسه متسعاً للف والدوران.. أخيراً قال.. هأنذا قد عدت إليك.. لم تكن جولبهار قد سمعت أى شىء مما قاله.. إن كل لحمها وشحمها يتلظى من الهيام.. فزوجها.. وعشقها ورغبتها.. التى انتظرتها وتحملتها لتسع سنوات.. ها هو زوجها أمامها.. ينتظرها.. لن يستطيع أى بشر أن يراهما هنا.. هنا بين شجيرات الطرفاء..

مد محمود يديه نحوها.. على وشك الإمساك بها.. ولكن جولبهار ردته.. سحبت يدها.. ترتعد وكأنها لامست قضيباً من الحديد الملتهب..

تحولت جولبهار فجأة إلى نمرة مفترسة.. على وشك أن تهجم على محمود لتمزقه.. تود أن تفقأ عينيه.. وتشوه وجهه ولكنها تمالكت نفسها فى آخر لحظة.. «لا يستحق».. كررتها فى نفسها.. «لا يستحق»...

وما هى إلا لحظة حتى انتصبت قامتها.. وبصوت كله عزة

وكبرياء.. وكأن شيئاً لم يكن.. قالت :

- «هيا.. هيا أيها الكلب.. هيا.. ابتعد.. هيييا». محمود يرجو.. يتوسل. يستعطف... يرجو.. يركع.. يتحدث.. هو لا يدرى ماذا يقول.. أو ماذا يفعل.. أما هى فلا شىء غير...

- هيا.. هيا أيها الكلب.. هيا.. اغرب.. كلب.. هيا.

محمود يقاوم.. يعاود.. أخيراً.. أدرك أنه لا فائدة.. لا حيلة أو وسيلة.. فعاد أدراجه.. ابتعد.. جولبهار تنظر.. فتجد أن بدلته الزرقاء.. جوربه الأبيض.. قميصه الناصع البياض.. حذاءه الأحمر اللميع.. شعره المسترسل البراق.. كلها قد تمرغت فى التراب.. غطاها الغبار.. تألمت لعودته هذه الكسيرة.. بالرغم من هذا.. فما إن رأت الصرة التى تركها على الأرض.. حتى تناولتها وقذفت بها خلفه..

- اغرب.. ابعد.. أيها الكلب.. هيا.. هـ....

أما محمود الذى أحنى رأسه أمامه فقد ظل يبتعد.. يذهب حتى دون أن ينظر خلفه.. الضياء يلف المكان.. عباد الشمس.. غيطان القمح.. حقول القطن.. المستنقع.. الغابة الصغيرة.. شطآن نهر جيحون الممتدة كشريط أخضر.. هذه كلها قد استسلمت لأشعة الشمس.. وكلما لفحتها الشمس يشتد القيظ..

صعدت جولبهار فوق كومة مجاورة وتعقبته بناظريها حتى غاب تماماً.. حتى امتزجت ظلاله وخياله بغبار الطريق المتطاير.. ظلت تنظر خلفه حتى امتلأت عينها بالدموع.. فنزلت.. وأخذت فى عزق أرض القطن.. وخف عيدانه المكتظة... ما إن تجد شرْبة خشنة قريبة، من جذور عيدان القطن حتى تسحقها وتجعلها ناعمة كالدقيق.. يداها تعملان بسرعة كالماكينة.. تسلطت الشمس الحارقة فوق قمة رأسها.. مخها يغلى.. كل وجودها مختلط بالغبار والرماد.. لحمها وشحمها يغليان.. وخلال هذا الكد والجهد الزائد نسيت محمود.. بل نسيت نفسها...

بينما كانت تتناول طعام الغداء.. بدأت تعود لنفسها.. لوعيها.. تبتسم.. تنهدت وهى تخاطب نفسها..

«آه.. لو جاء محمود.. ليته يعود.. وليكن ما يكون.. ليعد مهما فعل.. أليس رجلى.. فليعد.. ولأحتضنه.. ليعد حتى بزوجته الأخرى وأطفالها الخمسة..». استولى عليها حزن عميق عندما تذكرت ما فعلته مع محمود.. فوضعت كل همها فى طعامها الذى التهمته بسرعة.. عادت إلى عملها.. تراب الأرض الذى تحول إلى حديد ساخن يكوى قدميها.. مهما حاولت السيطرة على نفسها فلقد كانت دموعها تتساقط.. رقيقة.. رقيقة ومتوالية.

الآن يمر سرب من الطيور المهاجرة وقد التصقت بالسحب البيضاء.. فى لحظات تكون ظلال الغيوم.. فى لحظات أخرى ظلال الطيور العابرة هى التى تنتشر فوق الأرض المنبسطة...

كالعادة.. خيوط الفجر تكاد تبدو.. جولبهار.. فى يدها فأسها قد انتصبت وسط حقلها.. تنتظر انبثاق الضوء لكى تعزق قطنها..

فجأة تسقط الفأس من يدها.. التربة طرية.. لينة.. ساخنة.. التربة صامتة.. لا تصدر صوتاً..

إن جسد جولبهار يلتهب.. بدنها يحترق.. لو أتاها صبى وأمسك بيدها.. ودعاها حيث تلك الأكمات.. لما قاومت.. لذهبت.. إن الشهوة تتفجر من كل ذرة من ذرات جسدها.. بدنها يُشوى.. ورائحة اللحم المشوى تزكم أنفها..

إنها تزحف وقد فتحت نهديها.. كلما غاصت بهما الأغصان أو أدمتهما الأشواك وكلما أدميت.. فإن كل جسدها.. لحمها.. عظمها... جلدها.. وجدائل شعرها.. كل كيانها يتمطى بوله كبير.. مجنون..

ينقشع الظلام عن قمم الجبال.. وبينما الأبخرة تتصاعد من سطح الأرض متهادية.. ماذا ترى.. إن محمود قادم وسط

الضباب.. لا تستطيع أن تخمن ماذا تفعل من فرط الفرحة.. تدوخ.. تلف وتدور حول نفسها.. تستكين.. تهدأ.. ثم تنطلق جارية نحو محمود... محمود فى قمة أناقته.. قميص ناصع البياض.. جوارب من الحرير الخالص.. منديل موضوع فى جيب الجاكيت، حذاؤه أحمر لامع.. عيناه كالوميض.. رموشه طويلة.. وجهه لم يتغير، أسمر محروق.. يبتسم بطلاوة.. لطيف إلى حد كبير... يضحك.. يقول شيئاً ما.. فى يده حقيبة كبيرة. يخرج من الحقيبة فساتين حريرية.. بلا عدد.. متنوعة الألوان.. أنوا ع مختلفة من الروائح.. أحذية.. مرايا.. أقراط.. أساور وجردانات.. ملابس أطفال.. كل هذه على طراز المدينة.. يتلألأ على تراب الأرض السوداء..

– هيا.. هيا يا كلب هيا.. هيييا...

يرتعد محمود.. يخاف.. إن هذا الصوت يروعه.. يفزعه لدرجة أنه يهرب دون أن ينظر خلفه.. ومرة أخرى تصعد جولبهار على الكومة المرتفعة.. وتتابعه حتى يغيب عن عينيها.. مختفياً بين الغبار المتصاعد..

وبمجرد أن يغيب محمود تعود إلى الندم.. «ليعد سأقبل قدميه.. لن أجعل يديه تمسان أى شىء.. ليسترح هو.. وأعمل أنا..».

ستبزغ الشمس.. سيعم الضياء حتى يشمل شجرة الحور الضخمة..

تسقط الفأس التى فى يدها..

ثدياها الورديان فوق التراب الساخن..

***

رفعت رأسها... ماذا ترى.. محمود قد امتطى صهوة جواد مطهم أصيل... كم كان محمود أنيقاً ووسيماً.. فى قدميه الحذاء اللميع.. وشاربه مبروم وكأنه من فرسان الملاحم.. تمد يديها.. محمود فوق صهوة الجواد.. ستأخذه إلى أحضانها.. فترى اللجام... وحزام السرج مطعمة بالفضة، أما السرج فمشغول.. ما إن تسقط أشعة الشمس عليهم جميعاً حتى تلفهم الأشعة الذهبية.. فيمد محمود يديه.. تتجمد جولبهار فى مكانها.. يترجل محمود.. يريد أن يحتضنها، ويقبلها.. ترتعد.. تنتفض...

– هيا.. هيا أيها الكلب.. هيييا..

يمتطى محمود صهوة جواده.. ليسوقه.. ينطلق الفرس كالريح وسط الحقول.. وفوق زهور عباد الشمس حتى يغيب عن العيون..

تنظر جولبهار إلى نفسها فى المرآة.. كم هى جميلة.. أجمل

مما كانت عليه عند زواجها.. من يدرى كم كان عمرها عندما زوجوها منه..

لقد أتقنت فلاحة حقلها هذه السنة مما يجعلها متأكدة إذا كانت حقول غيرها تعطى قنطاراً فإن حقلها سيعطى خمسة أمثال الأراضى الأخرى... فعيدان القطن النامية وأزهاره ولوزاته تبشر بالخير.. ما إن يراها أى إنسان حتى يتملكه العجب والدهشة.. تحقق ما كانت تأمله.. فلقد تفتح القطن كله.. لدرجة أنك لا ترى فى الحقل سوى القطن الأبيض فقط.. لا خضرة ولا ورقة..

الآن أيضاً.. ستجمع جولبهار قطن حقلها وحدها.. وصلت إلى الحقل مع خيوط الفجر، بل قبلها.. لم تنم ليلتها فلقد استعرت فى فراشها.. قضت الليل كله وهى تتقلب فى فراشها محترقة ومتحرقة شوقاً...

وهى تجمع القطن سمعت صوت سيارة.. فترفع رأسها.. السيارة قادمة، تقترب منها حتى تقف بجوارها، كانت سيارة سوداء، فخمة، قد غطاها الرماد والغبار... ينزل محمود من السيارة.. لم تستطع جولبهار أن ترفع رأسها وتنظر إلى محمود... التربة حارقة.. لا تستطيع جولبهار الحافية القدمين أن

تصمد دقيقة واحدة فوق التراب الساخن، فكانت تغير مكانها باستمرار.

محمود يمد يديه إليها.. يقدم إليها شتى كلمات الاعتذار، ولكنها لا تسمعه.. جولبهار لا تسحب يديها...

تحت أكمات الطرفاء بضع أعشاش للطيور.. الآن قد أفرخت تلك الطيور.. أفواه الأفراخ الصغيرة صفراء.. من حين لآخر تفتح أفواهها فتبدو كبيرة ضخمة..

بعض الأشياء تربط عنق وحلق جولبهار وتخنقها.. فلا تخرج..

– هيا.. هيا يا كلب هييـ .

فتنظر إلى يديها.. ذات بثور ونتوء.. «مقشفة».. تشبه غصن شجرة ذابل.. تسع سنوات وهى تعمل فى كل شىء.. فى البرد القارص.. الأرض، الصخر.. العزق.. الحصاد.. فهل يبقى فيها خير.. حتى قدميها المتسختين، قد تشققتا... يغلفهما الوسخ الأسود، جلدها لا يرى من الوسخ.. أظافرها الطويلة ممتلئة بالأوحال..

– هيا.. هيا أيها الكلب.. هيا..

لا يسمعها أحد، يسحبها محمود إلى السيارة.. داخل

السيارة.. وثير.. طرى.. لين.. منعش أيضاً..

تدور السيارة فجأة بضوضاء تصم الآذان.. تنطلق.. تحس جولبهار أن حقلها وقطنها الأبيض قد ابتعدا كثيراً..

محمود :

- «ليبق.. لا يهمك..» ثم يتابع حديثه قائلاً :

- لدينا قطن كثير..

يضحك :

- وهل هذه الكمية من القطن.. تعد قطناً..

تصرخ جولبهار بكل قوتها :

- هيا.. هيا يا كلب.. هييا... لقد ضيعت تسع سنين من الكد والعمل فى هذا الحقل... هيا.. هيا أيها الكلب هيا..

تفتح باب السيارة.. تلقى بنفسها خارجها، تزحف على التراب... ثدياها متوردان.. داميان.. تسيل منهما الدماء يغطيهما الغبار المندفع من السيارة المنطلقة.. تغرق فى الغبار. تكاد تختنق.. تظل زاحفة حتى تصل إلى حقلها.. وما إن تصل حتى تستنشق رحيقه بعشق وهيام وتوله..

تنهض واقفة.. تتمطى فاردة خصرها الذى انثنى..

تنحنى من جديد متخطفة لوزات القطن الأبيض المتفتحة..

في البداية يمر سرب من الطيور المهاجرة، تمتد ظلاله فوق القطن الأبيض، ثم تتلوه ظلال غمامة بيضاء صغيرة...

جولبهار تشعر بعطش مدهش...

## الشمام.. والبطيخ
## *KAVUN .. KARPUZ*
## قاوون.. قاربوز

خرجوا من الماء بينما كانت حرارة الشمس وقيظها تغلى الرءوس.. على شاطئ الماء كانت هناك أكمة من نبات الطرفاء، مستديرة داكنة الخضرة.. اندسوا فوراً تحت ظلالها... كان أسفلها معتماً.. مبتلاً.. بارداً قليلاً فى رطوبة المغارة.. إذا ما أرادوا فيمكنهم البقاء هنا عدة أيام.. كانوا يرغبون فى ذلك.. ولكن لا تواتيهم الشجاعة.. رقدوا فوق التربة المبللة من الصباح حتى المساء.. كانوا يفكرون.. كانوا يفكرون دون أى حراك وهم كسالى.. كانوا يتجمعون تحت هذه الكومة الظلية ثلاثة أفراد على الأقل أو ستة على الأكثر.. بقيت على الرماد والتراب آثار أبدان كل منهم.. وكان كل منهم يأتى ويرقد أو يتمدد فى مكانه..

وبعد أن رقدوا فى أماكنهم.. نبه صارى على عليهم قائلاً :

«لا تتحركوا قط... لا تتحركوا حتى لا تهتز الأفرع».

قطعوا أنفاسهم.. وكان النهر عند أطراف أقدامهم ينساب بطيئاً صامتاً كالميت.. ثم رويداً رويداً بدأ كالطنين.. فالنهر يتدفق من هنا حتى القرية.. وحتى قراهم قاطعاً الوادى فى تعرجات، والتواءات.. وانثناءات.. وهو يلمع كالقصدير. قال صارى على هامساً بفرح :

– لو أن مراد يستيقظ...!! لو استيقظ بسرعة..!

وما إن سمع الأولاد هذا، حتى تصايحوا جميعاً قائلين؛ وقد جاء صوتهم من كل الأنحاء «لو أنه يستيقظ...».

قال واحد من بينهم (كان هذا هو دورموش الذى يبلغ الحادية عشرة من عمره):

– لو أنه يستيقظ.. حتى وبره لا يحس..

كان صارى على دائم الحفر، والثقب فى الوحل بإصبع قدمه الكبير... كان صارى على هذا ضعيفاً نحيلاً لدرجة أن ضلوعه.. وقفص صدره قد بدت بُضوح.. كما أن بطنه ومعدته بدتا نحيلتين.. فقد والده.. وعلى الرغم من ذلك.. فإن صارى على هو الولد الكلب ابن الكلب فى القرية كلها..

ركل الأرض بقدميه عدة مرات وهو يردد قائلاً :

– لن ينام.. لن ينام..

الولد الراقد على الطرف الأخير.. ركز بعينيه على الثقب الذى فتحه فيما بين الأفرع... وليقل أى واحد منهم ما يقول.. فهو لا يهتم.. من الثقب كان يلمح أرض البستان كما هى... الأرض قد تشققت.. الحقل؛ تبدو فى بعض مناطقه خضرة يانعة.. خضرة مبللة.. خضرة.. وبعض مناطق غامقة.. سوداء.. سوداء تماماً... أوراق نباتات قد اصفرت وسقطت.. قرعيات.. شمام.. بطيخ الشمام.. والبطيخ، قد تراصت وراء بعضها البعض.. الشمام طويل أصفر.. تشقق.. وقد اكتسحت المكان رائحة الشمام.. الرائحة تعبق المكان.. رائحة تفوح طازجة منعشة فى هذا القيظ..

ثم إن مراد.. حول خصره يلتف حزام أحمر... طويل القامة.. عريض المنكبين.. وجهه حاد... شواربه الطويلة متدلية.. شوارب صفراء تماماً.. ليس لمراد أى شىء فى هذه الدنيا سوى البستان... ليس عنده باغ.. أو حقل أو حصان أو حتى حمار.. لا شىء قط.. ولكن؛ ليس هناك فى الناحية كلها بستان يشبه بستان مراد... يمتد بطول رمال النهر..

مراد يتجول بحدة، وغضب تحت العريشة.. دائما ما يقوم

بهذا.. وحول العريشة وأمامها يتناثر قشر الشمام والبطيخ، كما أن هناك بعضا امن الشمام الملقى، وقد فرغ داخله تماماً.. وهناك بطيخ فاسد، العطب قد أصابه.. ملقى ومبعثر هنا وهناك.. رائحة البطيخ التى تشبه رائحة الشراب تعبق المكان.. كومات من النحل الأصفر والزنابير الحمراء.. والدبابير الضخمة.. أجنحة تلك الأسراب تتماوج تحت أشعة الشمس، فتبدو خضراء أو زرقاء. الطفل الراقد فى الطرف الأخير اسمه دورموش.. هل يرى كل هذه الأشياء..؟ هل لا يراها.. ؟ هل يحاول ألا يراها..؟ هل يقاوم..؟ كل هذا غير واضح.. على أجساد الدبابير شريط يبدو وكأنه شريط من العسل الأحمر.. أو يشبه العسل الأسود.. أجنحتها شفافة، تظهر منها العروق والأوردة الخضراء... بدأ فى الاقتراب من الدبابير لا يمكن غرس عود فى أعشاشها... أجنحة الدبابير زرقاء، وأجنحة نحل العسل صفراء، وخلاياها تكون بيضاء كاللبن الحليب.. كومة من النحل الأصفر تظهر فى الحر..

قال دورموش فى هياج :

– الآن.. «دلوقتى ينام»..

على الفور ندم على أنه لم يتحدث همساً..

فلم يتردد فى أن يقول :

– طلعت من فمى..

ضغط صارى علىّ على أسنانه موبخاً :

– يا ولد يا كلب يا ابن الكلب.. ستجعله يقتلنا جميعا.. نفترض أنه قد سمع...

لم يخرج أى صوت من دورموش...

ثم جدد أمره قائلاً :

– انظر «كويس».. وبمجرد أن ينام.. أخبرنا..

دورموش.. مهما كان بعيداً.. فهو يعرف جيداً متى ينام مراد.. ومتى لا ينام.. هل سينام.. أو لن ينام.. وكم من الوقت سينام... هذه هى مهمته.. لقد طور دورموش عمله بحيث يعرف ماذا يجول فى خاطر مراد.. أو ماذا يضمر فى قلبه.. ولو قال أى شىء.. أو تقول بأى شىء فالكل يصدقه.. فليس هناك وقت لم يأت فيه لسرقة الشمام والبطيخ.. يتابع.. وفى الوقت المناسب ينقض.. وإذا لم يأت دورموش فى أى وقت.. فإنهم لا يعرفون بالضبط إن كان مراد قد نام.. أو لم ينم.. فيقبض عليهم مراد، ويوسعهم ضرباً وركلاً... همز صارى على دورموش سائلاً :

– ماذا تم يا «واد»؟

يرد دورموش حزيناً حزيناً :

– جلس يفكر...

هذا هو الأمر الذى يخيف دورموش.. فإنه كان يعرفه جيداً... فلو أن مراد أسند ظهره إلى عمود العريشة واستغرق فى التفكير.. فمهما كان متعباً، أو لم ينم من قبل، فإنه لا ينام حينذاك.. صعب أن ينام فى هذا الوقت..

– «ألن ينام قط..؟» سأل صارى

فرد دورموش قائلاً :

– وما أدرانى أنا..؟!

دورموش غاضب.. محتد.. فلم يرد عليه صارى على..

بعد ذلك لم يصدر عن أى منهم أى صوت، ولم يعد يسمع سوى خرير الماء، وطنين النحل الأصفر، وهدير أصوات أجنحة البعوض والذباب..

وبعد أن مر وقت طويل.. قال الولد دورموش وهو يرتعد :

– لقد نام..

فى هذه اللحظة فتح صارى عينيه وهو شبه نائم.. أو نعسان.. وفجأة وكأنه أدرك حقيقة الأمر..

قال دورموش.. وكأنه يتذوق الطعم ويتلذذ به: «نام.. نام..».

على الفــور انطلق الأولاد الثــلاثة العــرايا من تحت ظـلال الطرفـاء إلى بستــان مـراد.. كـان تراب الحـقل السـاخن يكوى أقدامهم... بدأوا في جمع البطيخ والشمام ووضعه في الأجولة التى أحضروها معهم... ملأوا الأكياس والأجولة، وألقوها في الماء.. ثم أمسكوا بها وانطلقوا مع التيار..

وبعد أن ابتدعدوا تماماً عن البستـان... سُمِع من خلفـهم صوت أجش.. وبعد الصوت ضحكة مدوية وطويلة..

كـان هـذا يحـدث دائمـاً... يأتى الأولاد.. يخـتـبـئـون تحت الطرفـاء.. يراقب دورمـوش الموقف.. نوم.. انطلاق الأولاد نحـو البستـان.. تدفق الماء.. انتعـاشة تلف أجسام الأولاد.. صـوت أجش.. طلقـات نارية من بندقـيـة.. ضـحكة طويلة مـجلجلة.. الضـحكة وكـأنـها تلف وادى چوقـوروڤه كله.. فى هذه الضـحكة فرحة بادية.. ونشوة غامرة..

هذا كان يحدث هكذا كل صيف.. مرت سنوات طويلة.. وكبر الأولاد، أصبحوا شباباً.. كونوا بيوتاً وأصبحوا أصحاب أطفال وعـائلات.. وانصـرفوا عن سـرقـة الشـمـام والبطيخ من بسـتـان مـراد.. وتركوا هذا العمل للأطفال الذين جاءوا بعدهم.. واحتل مكان هؤلاء أطفـال آخـرون.. وهكذا كبـر أطفـال من كـبـروا...

وانتقل بستان مراد إلى بعضهم.. لأن مراد قد كبر، أضحى هرماً.. غطى الشيب شعر شاربه الأصفر الكثيف.. قصرت قامته، وانحنى وتحدب.. انثنى وسطه.. ولكن ظل البستان هو البستان.. والأطفال.. طوال السنوات.. ومع مرور السنين.. ومع بزوغ شمس الله كل يوم وهم يسرقون الشمام والبطيخ.. ويسمع الصوت من خلفهم.. وتنطلق دفعة من طلقات البندقية.. هناك شيء وحيد قد تغير.. هو أن الصوت قد ضعف.. كان يأتي ضعيفاً رقيقاً... وبعد صوت البندقية كانت الظلمة تحل.. شاملة كل المكان.. كان الآباء يخيفون الأبناء... ماذا يفعلون.. فالأطفال لم يصرفوا النظر عن سرقة الشمام والبطيخ...

ذات يوم.. وقبيل الظهر.. والقيظ يشمل المكان.. والحرارة تبخ أنفاسها في كل مكان.. وخمسة أطفال عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ينطلقون إلى بيوتهم وهم يصيحون.. وبعد قليل امتلأ الشاطئ بالأمهات والأطفال وهم جميعاً يبكون... الشبان قد أخرجوا من الماء طفلاً ميتاً قد اصفر جسده كشمع العسل.. كان جلداً على عظم.. قد التصق بطنه في ظهره..

على الجانب الأيسر للميت ظهرت فتحة حمراء في حجم اليد.. واللحم قد تمزق وتدلى..الكبار الذين يفهمون في الأمور

هذه، رددوا: واى.. أيها الكافر.. واى أيها اليزيدى.. فلقد استخدم فى البندقية رصاص دومدوم القاتل..!

قبيل المساء.. ضربوا على أيدى مراد الكلبشات وجروه وسط القرية.. كان وجهه قد اصفر.. وانحنى رأسه إلى الأمام.. وزادت انحناءة ظهره.. يسير وأقدامه تصطدم ببعضها البعض.. وإلى أن خرج من القرية كانت النسوة والأطفال، بل القرويون جميعاً يرجمونه بالحجارة.. وقذفوه بروث البهائم.. لم يستطع مراد أن يرفع رأسه لكى ينظر حوله.. بل مضى وسط قوات الأمن وهو مغطى بالقاذورات والوحل حتى اختفى وتوارى..

# الصياد
## آوجى - *AVCI*

فيما بين جبل حميدة وآناوارظة يوجد واد مستو، واسع ويلتقى نهير صاورون بنهر جيحان فى أعماق آناوارظة بالضبط.. ومن مكان التقاء النهير بالنهر حتى قرية وايوايلى يوجد مستنقع ممتد، مكتظ بالبوص وأعواد الغاب.. وكل يوم فيما بين آغجه ساز، وجبل حميدة، و آناوارظة ووايوايلى تهب فى كل الأحيان عاصفة من الدخان الداكن.. وبصراحة أكثر.. عاصفة من الضباب الرقيق.. وما إن يصل هذا الضباب فوق آغجه ساز تماماً حتى يزداد كثافة.. وهنا لا يصبح ضباباً بل يتحول إلى دخان كثيف..

عند تقاطع جيحان بالنهير تظهر بحيرة صغيرة.. وبين مياه جيجان وتلك البحيرة تتكون جزيرة.. جزيرة مستوية.. مستوية كاستواء الرخام المجلى.. هذه بقعة من التربة السوداء.. شتاء تغطى أسراب البط البرى وجه هذه البحيرة.. لا ترى وجه الماء،

بل ترى البط..

الطرق متربة.. غبارها يصل حتى الركب... الغبار يحرق وكأنه حديد ساخن.. على شواطئ آغجه ساز خضرة يانعة.. طازجة.. هذه الخضرة مصدرها البوص والغاب اللامع.. هناك يطلقون عليه «بردى» ويعرفه الجميع بهذا الاسم.. «بردى السماء»... للبردى سنابل بنية اللون... تتدلى السنابل دائماً نحو الماء.. وبين أعواد البردى نصبت العناكب شباكها.. شباك العنكبوت لاصقة.. لازجة.. سُمْك الشباك فى سُمْك خيط الحرير.. وكل شبكة فى عرض الملاءة المفرودة.. تتماوج الشباك مع الرياح.. ولا تنقطع.. النحل الأصفر قد علق خلاياه الفضية فوق البوص الضخم الضارب نحو الخضرة.. والنحل يلف ويدور حول الخلايا..

على شواطئ آغجه ساز لا تبنى منازل، أو تشيد بيوت.. وحتى لو أقيمت فلا يمكن أن يعيش فيها إنسان.. فأنواع الناموس والباعوض لا تحصى ولا تعد.. بعضها سام.. وبعضها غير سام.. تصدر طنيناً وكأنه طنين النحل.. طوال الليل وهذا الطنين لا ينقطع.. السام منها تسبب فوراً الحمى للإنسان خلال بضعة أيام.. القرى القريبة من آغجه ساز متناثرة.. لا ترى فيها

كلها أكثر من خمسين إنساناً..

ذراعه دائماً مكشوفة.. سميكة.. سمراء.. هكذا تبدو صيفاً وشتاء.. صيفاً وشتاء أيضاً يأخذ بندقيته المزدوجة، ويتجه نحو آغجه ساز.. كان يذهب إلى بحيرة مياه جيحان للصيد.. وأحياناً لم يكن يعود من الصيد أسبوعاً أو أسبوعين.. وكثيراً ما كان غيابه يستمر ثلاثة أسابيع.. بعد أسبوع أو أسبوعين كان يعود شاحب الوجه، وقد غطاه الوحل من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.. وكانت زوجته لا تسمح له بالدخول إلا بعد أن يخلع كل ما عليه من ملابس.. وكان قبل أن يرتدى ملابسه حتى الداخلية، كان يقف منتصباً على ناحية الفراش المفرود فى إحدى الزوايا.. وما يفرش الفراش حتى يلقى بنفسه كالميت.. ويستغرق فى النوم فوراً.. وكان ينام هكذا دون حراك ليلة ويومين كاملين... وفى مساء اليوم الثانى يستيقظ... يفرك عينيه طويلاً طويلاً.. ثم ينهض ويتناول طعامه... ثم يقوم بعد ذلك بتنظيف بندقيته..

كان قد عاد من الصيد.. مستغرقا فى النوم.. مازال هناك خمس ساعات حتى يستيقظ.. زوجته أقبلت حيث يوجد.. وقفت على رأس الفراش، أمسكت بيدى زوجها وأجلسته، وهى تصيح فيه قائلة: «اصحى.. فوق يا موصلو اصحى.. الولد بيموت».

ثم تركت يديه.. فسقط ثانية فوق الفراش كالميت.. جاءت المرأة إلى جوار الطفل وجلست إلى جواره.. وبدأت تنظر إلى الطفل بعينيها المغرورقتين بالدموع، وهو يتلوى ويتكوم على الأرض.. ثم زاد بكاؤها.. ورويداً رويداً بدأ صوتها يتحول إلى صراخ وعويل.. أخذت الطفل فى حضنها، وانطلقت خارجة.. فى الخارج الجو نار.. وقد حلت حرارة الشمس والرطوبة الخانقة على كل الأنحاء.. وتحت حرارة الشمس هذه اتجهت شمالاً.. ثم يميناً.. ثم أخذت تجرى هنا وهناك.. رأتها على هذه الحالة الجنونية امرأتان لم تذهبا إلى الحقول بعد.. أمسكتاها من ذراعها وأدخلتاها، وبعد أن نصحتاها قليلاً تركتاها وانصرفتا... وهل كان من الممكن ألا تذهبا...!! هذا حال القرية.. أشغالها كثيرة..

ومرة أخرى، أخذت المرأة ابنها الذى يرتعد من الحرارة فى أحضانها، وكالمرة السابقة.. بدأت تفعل ما فعلته.. ثم تسمرت فى مكانها.. ووقفت.. ثم وضعت الطفل على الأرض.. فقد لسعتها حرارة الطفل.. كما أن لسانها وحلقها قد جفا.. فانطلقت غاضبة من مكانها... وأمسكت موصلو من يديه وسحبته بكل قوتها.. ثم وضعت فمها على أذن موصلو،

وصاحت بكل قوة صوتها :

«موصلووو.. موصلو انهض يا موصلو.. الولد بيموت..»

ظلت تزعق هكذا لمدة.. ثم تباطأ صوتها.. ورويداً رويداً توارى الصوت.. وبصوت متهدج بدأت تعدد.. وتنوح.. أرقدت طفلها فوق المرتبة.. وكيف يرتعد المصروع.. وكيف ينساب اللعاب من أفواه المصروعين.. كان الطفل يحدث له الشىء نفسه..

تابعت المرأة.. «اسمعنى يا موصلو.. ألم تقل لى وأنت تأخذنى أنك ستطعمنى لبن العصفور.. انتظرتنى الأيام والشهور.. كنت تقطع علىَّ الطرق فى كل مكان.. لم يكن والدى يوافق على زواجى منك.. موصلو.. أنا لأجلك تركت الأب والأم والبيت والأهل والأقارب.. تركت إخوتى.. جئت إليك.. مضت خمس عشرة سنة وأنا لم أر وجه أبى أو أمى.. قلت.. إنك أنت أبى وأمى.. خمس عشرة سنة يا موصلو.. وأنت تجرى وراء الصيد.. أنا أزرع.. أحصد.. رعيت المواشى.. حصدت أنا الحصاد.. درست الدراس.. أحضرته إلى السوق.. أنا التى باعت المحصول.. أنت.. أنت منذ خمس عشرة سنة وأنت واضع يديك فى المياه الفاترة.. أنا التى تحملت كل القهر.. والذل..

انظر يا موصلو.. انظر إلى شعرى الذى ابيض.. وحيلى الذى انهد.. هل كان ممكن أن يحدث لى هذا فى هذا العمر ؟

لم أشأ أن أتركك فى أى لحظة.. فى ليالى الشتاء القارص.. وأنت تطارد البط.. لم يكن النوم يقترب من عينى.. خوفاً عليك يا موصلو.. كنت أخاف أن تسقط فى حفرة.. أو تغرق فى المستنقع.. كنت أفكر فيك حتى الصباح.. بكيت من أجلك يا موصلو.. موصلو.. مات سليمانى يا موصلو.. لم تحضر حتى موته أو دفنه.. كما مات درويشى.. وحتى هو أيضاً لم تحضر قبره... أخذت بندقيتك.. وانصرفت حتى قبل أن يبرد مكان الطفل الميت.. ذهبت تصطاد.. ومرة أخرى ربطت الحجر على بطنى.. خنقت صوتى.. ولم أود أن أصدمك فى شىء.. موصلو الطفل يموت.. استيقظ يا موصلو.. استيقظ وقل لى ماذا أفعل يا موصلو..» ؟

سقط موصلو مرة أخرى فى الفراش.. توجهت الأم مرة أخرى إلى حيث يرقد الطفل.. وأخذت تولول وتنتحب كالسابق.. ثم حانت لحظة... أزبد وأرغى فم الطفل أكثر من السابق.. ثم تمطى فجأة.. ثم تراخى... كان موت سليمان بهذا الشكل تماماً.. فألقت المرأة بكل طولها بنفسها فوق الطفل.. لم يعد

صوتها يخرج بعد، ولم يعد الدمع يتساقط من عينيها.. ولم يكن في القرية كلها أحد يحمل الطفل.. أو بمعنى أدق.. لم يكن هناك من يساعد المرأة على حمل الطفل.. أمسى المساء.. وما إن حل المساء.. في هذه الأثناء استيقظ موصلو.. فرك عينيه طويلاً.. طويلاً..

قالت المرأة..

– «موصلو.. الطفل مات، مات يا موصلو».

كانت تقول هذا وقد تملكها الخوف.. كان موصلو وكأنه لم يسمع هذا الكلام.. نهض.. أمسك ببندقيته.. مسحها.. لم يتفوه بكلمة واحدة.. ودون أن يلتفت خلفه اتجه نحو آغجه ساز.. وسلك طريقه. المرأة.. بدورها لم تقل أي شيء.. فقد كانت تدرك أن هذا سيحدث.. وكانت تنتظره أصلاً. كان الأونباشي علي يعني صاري علي، جارهم، قد عاد من حقله.. فذهبت إليه:

وقالت:

– «آغا.. علي آغا.. طفلنا مات..».. «ماذا يجب أن تفعل»؟

علي متعب.. منهك.. نهض.. أخبر بقية أهل القرية.. النسوة تحرقن وعددن على الميت. وفي الليل.. في ظلمة الليل.. وبهدوء وضعوا الطفل في ظلمة قبر صغير.. واروه التراب..

كان القرويون دائماً يقولون لها :

– هيا.. اذهبى إلى بيت أبيك.. فلن يأتيك أى خير من وراء موصلو هذا.. اذهبى..

كانوا يكررون عليها هذا القول يومياً .. ولم تهتم أبداً بما سمعت ولم تعمل بما يقال لها.. فقد كانت تسمع من أذن ويخرج ما تسمعه من الأذن الأخرى.. أما هذه المرة.. فقد وقع ما سمعته هذه المرة.. وكأنه سيخ من الحديد المحمى قد غمس فى قلبها..

لم تنم حتى الصباح.. قاست الأمور ووزنتها من جميع الوجوه، وما إن أصبح الصباح حتى جمعت حاجياتها، ووضعتها فى بقشتها.. صرتها.. وسلكت طريقها نحو بيت أبيها الذى لم تتوجه إليه طوال خمس عشرة سنة.

جزيرة مياه جيحان.. مستنقع آغجه ساز... موصلو يجتر أحزانه وهو يلف ويدور.. جاء إلى منزلة... المنزل خاو تماماً.. وهذا ما لم يكن ينتظره..

أضحى كما لو كانت رصاصة قد وجهت إليه.. تكوم على عتبة الباب وظل كما هو.. وقد غطاه الوحل تماماً.. أقامه الجيران من مكانه، وأرقدوه على فراش ما..

لم يكن بالإمكان تأسيس أو بناء بيت قط على شاطئ آغجه ساز.. والإنسان يرحل إلى العالم الآخر خلال شهر واحد من إصابته بالحمى... وحتى الآن لم يكن أى إنسان قد أقام بيتاً هنالك..

الآن؛ على الشاطئ الشرقى لجزيرة آغجه ساز كان هناك كوخ.. داخل الكوخ وأطرافه مغطاة بالكامل بريش البط، والإوز والسمان والحبارى، وغير ذلك من أنواع الطيور التى لا أعرفها... وقد تعلقت بالأغصان العديد.. والعديد من الريش المتنوع...

إن ما بين جبل حميدة وآغجه ساز مسطح واسع.. واد فسيح.. كل ما فيه خمس عشرة أو عشرين قرية على الأكثر.. وهكذا... فى هذه الأثناء... كان دائماً هناك رجل يحمل بندقيته على ظهره.. غاص فى الوحل.. اختلط شعر رأسه بلحيته الكثة وظل لسنوات طويلة، وهو يبيع صيده من الطيور والحيوانات للقرويين.. ذلك الرجل هو موصلو الصياد.

## عزيز نسين
## (١٩١٥ - ١٩٩٥ م)
## (١٣٣٤ - ١٤١٦ هـ)

كاتب هجائى، ساخر وفكاهى حيث يجسد بأسلوب ملىء بالسخرية كل المشاكل الحياتية للمواطن التركى الحديث والمعاصر. كان يكتب الشعر والمسرحية والرواية، إلا أن شهرته تدعمت بقصصه الفكاهية القصيرة.. نال عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧ الجائزة العالمية للقصص الفكاهية «سعف النخيل الذهبى».

ولد فى إستانبول سنة ١٩١٥ وتوفى بها فى ١٩٩٥/٧/٦ ودفن فى حديقه الوقف الذى أسسه لرعاية الأطفال الأيتام واللقطاء، وأوقف عليه كل ريع ومداخيل أعماله الأدبية.

ترك الخدمة العسكرية، وتفرغ للأدب، وكان من أوائل الأدباء الذين يتعيشون من نتاج فكرهم الأدبى. كان عضواً نشطاً فى اتحاد الكتاب الأتراك، واتحاد الكتاب الأفروآسيويين.. زار مصر والعراق.. وكان ملماً بالثقافة العربية، ويكتب أعماله

بالحروف العربية العثمانية..

ترجـمت أعـمـاله الغـزيرة جـداً إلى مـا يزيـد عن أربعين لغـة عالمية، وتجاوزت نسخها في تركيا وحدها العشرة ملايين نسخة، شهدها بنفسه خلال سنوات عمره التي بلغت الثمانين.

# خدمة وطنية

***Vatani Vazife***

اهتز السجن وانتشر الخبر فى كل العنابر والزنزانات:

– يا أخى لقد قبضوا على إحسان واظلين.

– لا تقل هذا .

– بشرفى هذا ما حدث.

– يا أخى الرجل قد تاب عن كل هذه الأعمال.

– إنه منذ فترة طويلة وهو يدير مقهى.

– إنه منذ ما يقرب من عشر سنوات لم يعد إلى مثل هذه الأعمال.

– لا تصدقه .. هذا كذب.

– ليس كذبا يا صديقى لقد أتوا به من المحكمة مع بريد المساء، رأيته من تحت الباب رأيته وهو يدخل الحمام حتى أنهم زجوا به إلى «الحجر الصحى».

– انظر يا أخى انظر إن الرجل قد نسى تماما طريق السجن

والسجون، وهم قد قبضوا عليه وأتوا به.

– يا أخى من هو إحسان واظلين هذا ؟

– أنتم لا تعرفونه، فلم تكونوا قد ظهرتم فى زمانه أنا أعرفه منذ كنت فى معسكر الصبيان فى حى مهترخانه.

– فى ذلك الزمان لم يكن هذا السجن قد بنى.

– أنا أعرف كان هناك المهترخانه، هل تفهم ؟

– نحن كنا نقضى العقوبة هناك.

– كانت يده خفيفة .. سريع .. لا يفوقه أحد.

لقد ظل إحسان واظلين خمسة عشر يوما فى سجن الكرنتينة، ثم أخذوه من هناك وزجوا به فى إحدى الزنزانات فى الدور الثانى، فكل أصحاب السوابق المسنون يعرفون من هو إحسان واظلين.

– حمدا لله على سلامتك يا أبى إحسان.

– مرحبا بك يا إحسان بيه.

– وقعت فى أى عملية يا عزيزى إحسان ؟

وزع الشاى على الجميع فى العنبر فما كان من إحسان واظلين إلا أن وضع مائة ليرة على صينية الشاى وطلب دورا آخر من الشاى المظبوط.

بدأ إحسان واظلين يقص على الذين التفوا حوله عن أحواله وما كان يقوم به قبل مجيئه، وكان من بين السجناء الذين التفوا حوله نورى بك المحكوم عليه بثمانى سنوات، وكان يجلس فى مواجهته واظلين إحسان. إن إحسان واظلين الذى يتجاوز الخمسين من عمره يتحدث إلى الذين التفوا من حوله وهو يعبث بمسبحته وكأن أحدا لا يجلس أمامه وهو يرتدى خفا فى قدمه، ويحكى نورى بك الذى كان يرتدى روبه سأل نورى بك إحسان قائلا :

– كيف حدث هذا يا أخى إحسان ؟

– والله يا سيدى مهما قلت الآن فسيبدو وكأننى أكذب عليكم ولن تصدقه، لأن ما حدث لى وما وقع أنا نفسى لا أصدقه، فقد ابيض شعرى فى هذا الطريق قبل هذا بسنوات طويلة، هل تفهمنى الآن.. ستسخر منى وكأنهم أمسكوا بى من الجامع وأتوا بى إلى هنا ربما يأتى هذا إلى ذهنى، صدقنى إن الوضع أسوأ مما تظن وأغرب مما تتوقع، إننى هنا هذه المرة فى خدمة وطنية.. لقد ألقوا بى هنا لهذه الخدمة الوطنية.. هل تفهم ؟

لدى مقهى وأديرها على ما يرام هل تفهم ؟ وذات يوم أتى إلى اثنان من المخبرين وقالا لى عليك أن تأتى معنا قليلا إلى

المديرية.

أنا أعرف المخبرين القدامى وكل رجال البوليس، أما هذان المخبرين فمن الجيل الجديد.. هل تفهمنى ؟ أنا لا أعرفهما فوجدت أن لا فائدة من المراوغة، طبعا ذهبت معهما وهناك وجدت حيدر اللطيف، هل تذكره الذى كان منذ وقت ذلك الوقت رجل أمن، والآن هو مدير الأمن لم يتغير، فكما هو بخفة ظله ودعابته لقد أطلقنا عليه حيدر اللطيف بالرغم من أنه كان– كفاك الله شره – عنيدًا وقاسٍ.. هل تفهم. وهنالك سألت حيدر بك.

– لقد طلبتنى يا سيدى، فرد على بلطف:

– تفضل بالجلوس يا إحسان، فبمجرد أن قال لى تفضل بالجلوس وأشار إلى المكان، أدركت أن هناك لعبة أخرى، فحيدر اللطيف الذى أعرفه يبدو لطيفا ولكنه حاد كالسيف سليط اللسان.

جلست حيث أشار وقلت :

– سيدى أنت تعلم أنه انقطعت صلتى بكل هذه الأعمال أنا تبت وأصلح الله من حالى.

وما إن قال لى هناك شىء أطلبه منك يا إحسان، حتى انتابتنى رجفة فأنا قد أبرأت ذمتى من كل ما كان على مع آخر

عملية قمت بها، فكيف يطلب منى شيئا الآن.

لقد فتحت القهوة بنصيبى من العملية الأخرى بعد أن أوفيت كل ما كان على وقررت التوبه، فتمالكت وقلت :

– سيدى أنت تعلم جيدا أنى كنت أعطى كل واحد نصيبه فى كل عملية أقوم بها، والفضل يرجع لك فى توبتى وقد سحبت نفسى وطهرت يدى وكل الحسابات القديمة قد انتهت بمرور الزمن وأغلقت هذا الباب تماما، والآن ماذا تريد منى ؟

وبينما أنا ألف وأدور فى دائرة اللطف واللباقة هذه فإذا حيدر باشا يقول لى :

– إن الحسابات القديمة قد أغلقت فلا تفتح هذه الدفاتر الآن مرة أخرى، فإن سبب استدعائى لك الآن شىء آخر، فأنت مطالب بأن تقوم بخدمة وطنية لهذه البلاد.

– يا سيدى ما هذه الوظائف الوطنية التى نعرفها، أهى الجندية.

– تمام. معنى ذلك أنهم استدعونى فى هذه المسألة فوجهت حديثى إلى حيدر باشا، بالله عليك يا سيدى، أقبل قدميك أنا قد قضيت الخدمة الوطنية هذه يا سيدى فى سلاح البحرية وبقيت فيها ست سنوات قضيتها فى ترسانة «ريفان خانه» فى السجن

العسكرى والتى لم يضيفوها إلى الخدمة العسكرية، فقد كنت كثير الهروب، ولكن أخيراً أنهيت الخدمة الوطنية بعد ست سنوات، أشكر الله على ذلك، كما أننى يا سيدى عمرى قد تجاوز الخمسين فأى خدمة وطنية أخرى ؟

وما إن قلت أنا هذا - أتفهمنى؟ - حتى طلب لى حيدر باشا واحد قهوة، وقدم إلى سيجارة، فى هذه اللحظة زادت حيرتى.. هل تفهمنى؟ فأى خدمة وطنية يريدونها منى. إنها لعبة، أترونهم يريدوننى أن أقرأ لهم الكف أو أنظر لهم فى البخت، وسط هذه الحيره، قلت لحيدر باشا:

- يا سيدى هل هناك أمر آخر خلاف هذه الخدمة الوطنية التى تحدثنى عنها، مرنى يا سيدى أوضح لى ستجد روحى على كفى فأنا لا أنسى أفضالك على، فموقد مقهاى هو من فضلك أنت.

فما كان من حيدر باشا إلا أن قال :

- أنت فهمت خطأ، الخدمة الوطنية المطلوبة هى ليست الجهادية أو العسكرية، إنها مسألة أخرى إنها خدمة للبلد كلها أنت الآن فى يديك أن تقدم خدمة لبلدك وتبيض بها وجه حكومتنا، فحكومتنا فى أمس الحاجة إلينا، محتاجة إليك.

فقلت: أرجوك يا سيدى لا تسخر منى ولا تلعب بأعصابى من أكون أنا حتى تحتاج إلى حكومة كبيرة كحكومتنا. أنا مجرد «نشَّال» قديم وهل من الممكن أن تحتاج الحكومة لحقير كهذا.

فقال حيدر باشا :

– هذه هى الحكومة وأمور الحكومة والسياسة لا تكون واضحة تماما، وإذا ما حانت الفرصة فإن الحكومة تكون محتاجة لكل فرد من مواطنيها وأنت الآن بما أنك من مواطنى الحكومة فالحكومة فى حاجة إليك وهى تنتظر منك خدمة.

رددت عليه فأجبته :

– مر يا سيدى، طالما أن الأمر خدمة للحكومة، أتفهمنى يا سيدى، رقبتى فداء للحكومة ولو أمرتنى بأن أقتل نفسى فسأنفذ الأمر فورا.

بعد هذا يا عزيزى قام حيدر باشا بتوضيح الأمر لى، فالحكاية يا سيدى ببساطة أن هيئة أجنبية كبيرة قد وصلت إلى بلادنا، هذه الهيئة تضم أمريكان وألمان ومنهم من الدنمارك ومن فرنسا. بين هذه الهيئة تجار وأطباء ومهندسون وأساتذة متخصصون من كل نوع، جاءت هذه الهيئة لفحص أو تدقيق أوضاع بلدنا من جميع النواحى وبناء على التقرير الذى تعده

هذه اللجنه ستقدم الحكومة المساعدات المادية لحكومتنا .. هل تفهمنى ؟

ولكن هذه اللجنة كلما ذهبت إلى أى مكان لا يعجبها العجب فى أى أمر من أمور بلادنا، فتحدثوا لهم عن الزراعة والغابات، فلم تعجبهم أعمالنا فى الزراعة والغابات، هل تفهم ؟ تحدثوا لهم عن المصانع فلم تعجبهم مصانعنا أو منتجات مصانعنا منتجات. هل تفهم ؟

احتارت الحكومة وأصبحت فى موقف حرج جدا أمام اللجنة الأجنبية، أخيراً قالت الحكومة، لابد من أن نجد شيئا يعجب هذه الهيئة، لابد من أن يعودوا إلى بلادهم منبهرين بأعمالنا...

وما إن حكى لى حيدر باشا هذا الأمر حتى قال :

- هذه هى الخدمة والأمر بين يديك يا عزيزى إحسان وكما ترى إنها خدمة وطنية.

وحسب ما فهمت يا عزيزى أن حكومتنا الحالية لم تنجح فى ترضية هذه اللجنة الأجنبية ولم تستطع أن تجعلهم يعجبون بأى شىء فى بلادنا، ومعنى ذلك أن الدور قد حان على السرقة واللصوصية والنشل وها هو الدور قد حان على.

فتوجهت بالحديث إلى حيدر باشا وقلت :

– فـهـمت يا أفندم، تريد الحكومـة أن تظـهـر أن لدينا سـرقـة ونشل بشـكل كبيـر، حتى تقول الحكومـة للأجانب إذا كـانت كل الأمـور وكل الأحـوال سـيـئـة فـإن السـرقـة قـوية جدا، وأن تعـود اللجنة وهى سعيدة لهذا الجانب. فرد على حيدر باشا قائلا :

– الأمـر هكذا تقـريبـا، إننا نود أن نقـول لهـؤلاء الناس إن البوليس قوى جدا عندنا وأن نثبت لهم أن رجال البوليس يعملون بجد واجتهاد، فقلت :

– هذا أمر صعب يا سيدى. فقال :

– نعم صعب، ولهذا استدعيناك، ولما كنت أنت مسـجل لدينا، مسـجل خطر منذ القدم ونشـال مشـهود له بمهارته وأنك لص لا يشق له غبار؛ فقد رأيناك أنسب من يقوم بهذه الخدمة الوطنية.

فى الواقع كلمات حيدر باشا هذه اللطيفة أثارت فى داخلى المشاعر وقلبت أفكار رأسى رأسا على عقب، فسألته مستفسرا :

– مثل ماذا يا سيدى ؟

فشـرح لى وقـال إنه سيـعرفنى بالفندق الذى تسكن فيـه هذه الهيئة ويعرفنى على أعضاء هذه الهيئة، هل فهمت ؟

وأنا بدورى سـأقوم بالاصـطدام ببعض أعـضـاء هذه الـهيـئـة وسـأنشل كل مـا تصل إليـه يداى، هل فـهمت ؟ وطبـعـا سـيـسـرع

أعضاء الهيئة بالتوجه إلى البوليس وتقديم بلاغ بالمسروقات وسوف يقول لهم رجال البوليس: «لا تقلقوا على الإطلاق فإن البوليس فى غاية القوة والنشاط، ولن تمر أوقات طويلة إلا وتعود إليكم مسروقاتكم»، طبعا رجال أمننا يقولون هذا وأكون أنا قد أعطيت البوليس كل ما يكون قد نشلته من هؤلاء الناس، وبالطبع سيقوم رجال البوليس بتسليم المسروقات.. هل فهمت ؟ وبالطبع سيقول أعضاء الهيئة، حسنا، حسنا، ما أنشط هؤلاء الرجال.

بعد أن أوضح لى حيدر باشا الأمر، فما كان منى إلا أن وضعت القهوة والنعمة التى أمامى وأقسمت لحيدر باشا قائلا : تعمى عينى، لا أستطيع أن أقوم بهذا، فسألنى مستغربا، لماذا؟ فقلت يا أفندم أنا منذ فترة طويلة قد تركت هذا الأمر وقد ثقلت يداى ولم يكن هناك تدريب فقال :

– أنا لا أفهم هذا الكلام لابد من أن تمشطهم .

فقلت : لقد تبت مرتين، فقال يا عزيزى إحسان يموت الزمار ويديه تعزف (تلعب)، فقلت له هناك من هم أمهر منى الآن فى النشل لو منحتهم هذا الشرف سيقومون به على أحسن ما يرام، هناك جيل جديد من النشالين وطرق جديدة من النشل.

فقال : الدهن فى العتاقى يا عزيزى إحسان، فالجيل الجديد يشرب لبنا مخلوطاً، ولا نثق بهم لأنهم سيسرقون الهيئة ويعرونهم ولن يأتوا بما نريد، ونكون نحن فى موقف لا نحسد عليه، وبينما كان يجب أن نعلى من شأن البوليس أمام تلك الهيئة فيوقعنا هؤلاء النشالون الجدد فى موقف آخر لا نحسد عليه، نحن فى حاجة إلى لص شريف مثلك، يلزمنا رجل شريف!

فقلت : عفوا يا سيدى، أقبل قدميك يا باشا لن أستطيع أن أقوم بمثل هذا العمل. وأطلت فى التوسل والرجاء.

فما كان من حيدر باشا إلا أن تغير واحتد وقال :

– لك ما تريد يا إحسان، أنت تعرف ما يمكن أن يؤول إليه حالك أنا قد أعطيتك الفرصة لكى تقدم خدمة للوطن وها أنت تتمنع، اعرف أننا سنهاجم مقهاك وأنت تعرف أننا نعلم بأنك تبيع ممنوعات فى مقهاك وأنا أعرف أن سوق البودرة رائج بين زبائنك.. فكر ألف مرة أنت تعلم ما يمكن أن يكون.

وجدت كل الطرق مغلقة أمامى، فقبلت المهمة مضطرا ولكننى قلت: ولكن يا سيدى لا تكون خدمة بدون «لحاليح» نفترض أننى أتيت إليكم وسلمتكم كل ما نشلته ماذا سيعود علينا من هذه العملية ؟

فغضب حيدر باشا وزادت حدته وقال :

– قلنا هذه خدمة وطنية، ألا تخجل من أن تقبل نقودا مقابل هذه الخدمة، وزادت حدته وعلا صوته وهو يقول ألا تخجل من طلب مقابل للخدمة الوطنية حتى قلت :

– لا تغضب يا سيدى، الأمر فى غاية البساطة فمثلا أنت تقوم بمهام رجل البوليس وهذه خدمة وطنية ولكنك تتقاضى عنها نقودا فى بداية كل شهر عداً ونقداً، فهل يمكن أن تقوم بهذه الخدمة الوطنية دون أن تقبض هذه اللحاليح؟ وأعضاء مجلس الشعب مثلا، ألا يقومون هم أيضا بالخدمات الوطنية ؟

يا سيدى، الصداقة شىء والواجب شىء والعمل شىء آخر وأمور الدين والدنيا تختلف عن بعضها البعض والواجب الوطنى شىء وأمور اللحاليح شىء آخر.

فقال : ليكن ما دام الأمر كذلك فأنت حر فى مقهاك تستطيع أن تفعل ما تريد فيها بع واشتر كما تشاء، ولكن حذار أن تخفى أى شىء مما ستنشله من أى فرد من أفراد هذه الهيئة ولابد من أن تحضر كل ما تصل إليه يداك فى التو واللحظة إلى هنا ونحن بدورنا سنقوم بإعادة المسروقات كما هى بالتمام والكمال إلى أصحابها.

– فقلت : أمرك يا أفندم

أعطانى حيدر باشا عنوان الفندق الذى تنزل فيه الهيئة الأجنبية وأرانى صور كل أعضاء اللجنة وأوصاف كل منهم على حدة، وبعدها ودعنى قائلا : هيا الله يوفقك وسنرى يا إحسان، والأمل كله معقود عليك ولو أمكنك أن تغربل رئيس الهيئة كم أكون سعيدا بك، مع السلامة.

يا عزيزى إن هذه الأمور أسهل علينا من أكل الملبن، وقفت أمام الفندق، تسمرت هناك وقبيل المساء ظهرت بوادرهم فنظرت إلى الصور التى فى يدى، تمام.. ها هو رئيس الهيئة وها هى زوجته إلى جواره اقتربت؛ ارتطمت بالرئيس وفى أثناء ارتطامى أخذت كل ما وصلت إليه يدى واصطدمت به مرة أخرى ولم أترك له أى شىء وفى هذه اللحظة أدركت أننى لم أنس حرفتى، وعلى الفور أخذت صيدى واتجهت نحو المراحيض العمومية، وهناك فتحت المحفظة التى نشلتها، ماذا أجد فيها، هل تصدق يا عزيزى لم أجد سوى عملات معدنية ممسوحة، فركبنى الشيطان وشككت فى نفسى لبعض لحظات إلا أننى كنت واثقا أننى لم أترك أى شىء حتى فى جيوب بنطالى.. هل تفهم ؟

لم أترك أى شىء، فتوجهت إلى المديرية، وما إن رآنى حيدر

باشا حتى احتضننى وهو يقول : أين أنت يا أخى العزيز، وما إن ناولته المحفظة حتى قبلنى من جبينى وقال :

– بارك الله فيك، لقد أنقذت شرفنا.

كان رئيس الهيئة الأجنبية منذ دقائق قد أبلغ أن محفظته قد ضاعت وقد قلنا منذ خمس دقائق «لا تقلق لن يصل الغد ونكون قد وجدنا لك محفظتك فلدينا البوليس فى غاية القوة».

فقلت بعد أن سلمته المحفظة :

– هأنذا يا سيدى، قد قمت بواجبى الوطنى، فاسمح لى بالانصراف لأعود إلى مقهاى فقال لى : لماذا العجلة، هذه الضربة لا تكفى، لن تكف عن نشل الآخرين. فتوجهت إليه بالرجاء، أرجوك يا سيدى، إن يدى ستعتاد العمل مرة أخرى ولن أستطيع أن أسيطر على نفسى مرة أخرى، رجوت وكررت الرجاء إلا أنه لم يسمع لى.. هل تفهمونى ؟

بدأت بكل أعضاء الهيئة واحداً واحداً وكلما نشلت شيئا اتجهت فورا إلى المديرية وسلمت ما وصلت إليه يداى، وذات مرة أفرغت كل ما لدى أحدهم، وأخذت مفاتيحه، ومنديله وولاعته وسجائره وحتى العملات الفكة التى فى جيب بنطاله وخلعت النشان الذى كان يعلقه على ياقته.

وما زال الرجل لا يدرى بما أفعله به، فما زال نائما لدرجة أننى لو خلعت حتى بنطاله من قدميه ما أحس به! أغرانى وضعه هذا بأن أقول لنفسى يا واد يا إحسان فكك هذا الرجل، فأخذت «زراير» قميصه و«زراير» كل ملابسه لم أترك شيئا، وعلى الفور اتجهت إلى مديرية الأمن ووضعت كومة المسروقات أمام حيدر باشا، فما كان منه إلا أن قال :

– عفارم عليك يا واد يا إحسان ملأت عينى الآن بارك الله فى يديك. فقلت :

– يا سيدى كنت سأترك الرجل عاريا أمام الفندق كما لو داخل الحمام، ولكنه صعب على فتركت عليه ملابسه الداخلية. لا أطيل عليكم فقد ظللت خمسة عشر يوماً وأنا أنشل أعضاء هذه الهيئة رجالها ونساءها ولم أترك أيا منهم إلا وكأنه فى طريقه إلى أن تجرى له عملية جراحية، كنت على وشك أن أقتنص حتى أكبادهم من بين ضلوعهم، ألا تفهمون، وقد صعبوا على أن أتركهم بدون أكباد، ولكن ذات مرة قلت لحيدر باشا :

– اسمح لى يا أفندم أن أجرى عملية نشل لكبد وطحال رئيس هذه الهيئة الأجنبية، ولم يتمالك حيدر باشا نفسه من الضحك، وكان يا أعزائى بين أعضاء هذه الهيئة سيدة تمكنت

من أن أفتح الحقيبة التى معها وجردتها من كل ما فيها، وأتيت بكل ما سرقته ووضعته أمام حيدر باشا فى مديرية الأمن ولكن المدهش أن هذه السيدة لم تأت إلى البوليس ولم تبلغ أى جهة أمنيه عن مسروقاتها، وانتظر رجال الأمن ثم أتوا بفرد من أفرادهم الذى يعرف اللغة الأجنبية وفتح تليفونا إلى الهيئة الأجنبية وسأل :

– هل يا ترى سرق منكم شىء، فردوا عليه قائلين :

– لم يسرق أى شىء، فقال لهم البوليس، فتشوا جيدا فلابد من أن شيئا قد سرق.

وبعد أن أحسنوا التفتيش قالوا :

– نعم لقد سرق كل ما كان فى حقيبة يد إحدى العضوات، فقال لهم رجل البوليس :

– أكان فى داخل الحقيبة قطعة قماش لونها بامبه.

– فقالوا : نعم من أين علمت؟ فقال :

– لدينا البوليس فى غاية القوة فنحن نعرف.

هل رأيت يا أخى كم أن أمننا قوى والشرطة فى غاية الجد والنشاط لدرجة أنه يخبر صاحب المسروقات حتى قبل أن تسرق، ونقبض على اللص الذى كان على وشك أن يسرق هذه

المسروقات، وبينما الهيئة تعود إلى حيث أتت التف حولها الصحفيون وسألوهم قائلين :

– ما أكثر ما أعجبكم عندنا ؟

– ولكن رئيس الهيئة من دواعى الأدب واللطف لم يجب، إلا أن أحد الصحفيين لم يسيطر على فمه وقال :

– إن الشرطة عندنا قوية جدا. وما إن سمع رئيس الهيئة هذه العبارة لم يتمالك نفسه ولم يتحمل وقال :

– نحن تسعة أفراد، بقينا فى إسطنبول خمسة عشر يوما سرق كل منا تسعون مرة.. حقا عندكم البوليس قوى، ولكن اللصوص أقوى من البوليس.

وفى اليوم التالى خرجت الصحف وهى تحمل التصريح التالى لرئيس الهيئة الأجنبية:

«إن اللصوصية فى تركيا قوية جدا ومتطورة»، وأسندت هذا التصريح إلى رئيس الهيئة.

فأى ذنب ارتكبت أنا فى هذا، أقبل أقدامكم، اشرحوا لى الخطأ الذى ارتكبته، لقد غضب رجالنا من هذا التصريح ولم يرحمونى وها هم قد ألقوا بى فى السجن ويتهموننى بأنى كنت أنشل هؤلاء الأجانب. هم الذين قالوا إنها خدمة وطنية.. هل

تفهمونني ؟

فقلت مدافعا عن نفسى لحيدر باشا:

– أنا سأحكى وأعترف بكل هذه اللعبة للقاضى، فقال :

– يا غبى لو فعلت شيئا كهذا فإنك ستتحمل القضية وحدك، فهناك مائة سرقة فاعلها مجهول وأستطيع أن أحملك كل هذه القضايا، وتمضى فى السجن ألف سنة.

هذا هو الأمر يا أخى وقد بلعت الطعم وصمتُّ ولم أتفوه بكلمه وهأنذا قد سجنت عامين فى مقابل الخدمة الوطنية. فقال أحد المستمعين الذين كانوا يصغون إلى إحسان واظلين: يا عزيزى ستمر عليك السنوات وأنت تأكل الخبز والحلاوة فى السجن، فتنقضى السنوات بمجرد أن تنظر يمينك ويسارك. فرد عليه إحسان قائلا: معك حق، ولكن فى هذا السجن لا يتحمل المرء، ولكن أحمد الله أننى كنت أقوم بخدمة وطنية، فليعش الوطن الذى قمت بخدمته.

# مجنون على السطح

*Damda Deli Var*

جميع أهالى الحى على قدم وساق من هول ما يسمعون :

– مجنون على السطح.. !

امتلأ الشارع عن آخره بهؤلاء الذين جاءوا لمشاهدة المجنون..

فى البداية توافد رجال الشرطة بعرباتهم من المخفر أولاً ثم من مديرية الأمن، ومن بعدها سيارات المطافئ، ومن وسط الزحام انطلق صوت أم المجنون وهى تستعطفه وترجوه :

– يا بنى.. يا حبيبى.. انزل تحت.. هيا يا ولدى.

كان المجنون يردد :

– إذا لم تنصبوني رئيسا للحى (مختارا) فسألقى بنفسى إلى أسفل أخذ رجال الإطفال فى الاستعداد لإنقاذه إذا ما ألقى بنفسه إلى الأسفل، فشدوا حول المبنى كله أقمشة الخيام، وأمسك بها من جميع الأطراف تسعة من رجال المطافئ الذين

أخـذوا فى اللف والدوران فى الاتجـاه الذى يتـجـه إليـه المجنون وهم يتصببون عرقاً.

وحـاول الضـابط بشىء من الرجـاء مـع شىء من التـهـديد والتخويف أن ينزل الرجل قائلاً :

– أرجوك انزل يا أخى.

– اجعلونى رئيساً وأنا أنزل وإلا فسألقى بنفسى.

ولم ينفع معه الرجاء أو الاستعطاف أو التخويف.

– يا أخى.. أقول لك انزل تحت..!

– انظروا ماذا يقول ! بدلاً من تنزلنى إلى أسفل فاصعد أنت إلى أعلى.. انبرى واحد من وسط الزحام قائلاً :

– لنقل عيناك رئيسا.

واحد آخر قال :

– لا يجوز يا أخى.. هل يصح أن يكون المجنون رئيساً ؟

– الله الله أصحيح أننا سنعينه رئيساً.

قال عجوز يتكئ على عصاه :

– لا يجوز سواء أكان بالجد أو بالهزل لا يصلح هذا حتى لو نصبتموه..

– ربما ينزل!

– لن ينزل فأنا أعرفهم.. إذا ما صعدوا مرة إلى الأعلى فلن ينزلوا أبدًا..

– المهم الآن أن ينزل وبعدها ليكن ما يكون.

– لن ينزل

فصاح واحد من بين المتزاحمين قائلا :

– لقد جعلناك رئيساً.. هيا انزل..!

– فبدأ المجنون فى التراقص وهو يلف ويدور فوق حافة الطابق الأعلى ثم قال :

– لن أنزل ! ما لم يجعلونى عضواً فى مجلس المدينة، فسألقى بنفسى..

قال العجوز لمن حوله :

– أرأيتم ؟ ألم أقل لكم ذلك... ؟

– لننفذ ما يطلب..

– مهما فعلتم فلن ينزل.. فإن الإنسان إذا ما جن مرة وصعد إلى القمة فلن ينزل أبداً. قال الضابط :

– جعلناك.. لقد جعلناك عضواً فى مجلس المدينة، فهيا يا أخى لا تجعل رفاقك ينتظرونك..!

– لن أنزل ! اجعلونى رئيساً للبلدية وأنا أنزل.

– قال العجوز :

– أرأيتم.. كان يجب الحسم فى وقتها.. الآن لن ينزل أبدا..

قال رئيس المطافئ الذى كان غارقا فى عرقه :

– ماذا سيحدث لو عيناه رئيساً للبلدية، فلنجعله ثم وضع كلتا يديه على فمه ليجعلهما كالبوق وصاح قائلا :

– انزل يا أخى.. فلقد عيناك رئيساً للبلدية.. فهيا انزل لممارسة عملك..

بدأ المجنون يرقص وهو يقول :

– لن أنزل.. ما عملى أنا بين هؤلاء الذين جعلوا مجنونا رئيسا للبلدية..؟ لن أنزل .

– إذن ماذا تريد ؟

– لو جعلتمونى وزيرا.. أنزل !

بعد جدال قصير فيما بين المحتشدين:

– ليكن ما تريد لقد جعلناك وزيرا فهيا انزل إلى الأسفل.. كما ترى الجميع فى انتظارك .

بدأ المجنون يحك لهم أنفه بيده وهو يقول :

– لن أنزل !.. هل أنزل أنا بين من جعلوا مجنونا وزيرا لهم..!

– هيـا يا أخى لقـد اخـتـرناك وزيرا والوزراء الآخـرون ينتظرونك.. هيا انزل..

– هل الأمـر فـوضـى – أو يغـمـا – أنزل حـتى تزجـوا بى فى مستشفى المجانين !.. لن أنزل.

قال الرجل العجوز :

– مـا تفـعلونه هراء.. هبـاء.. فـلا تحـاولوا .. لن ينزل ! فـأنا أعرف هؤلاء المجانين جيدا .. أنت أيضـا لو رفـعوك إلى كـرسى الوزارة أتود أن تنزل !

كان المجنون يصيح بصوت جهور :

– ما لم تجعلونى رئيساً للوزراء فسألقى بنفسى.

صاح الجميع قائلين :

– جعلناك.. جعلناك رئيسا للوزراء.

قال الرجل العجوز :

– لن ينزل !

بدأ المجنون فى الرقص ثانية ثم قال :

– اجعلونى ملكا .. عندئذ أنزل.. ما لم تجعلونى ملكا فسألقى بنفسى حتفاً...

وكأن ما قاله العجور وما توقعه يحدث، فبدأوا يستشيرونه :

– ماذا ترى هل نجعله ملكا ؟

قال العجوز :

– لقد سبق السيف العزل.. وأنتم مضطرون لتنفيذ كل ما يطلب.. وعلى أى حال فقد جعلتموه رئيساً للوزراء..

فصاحوا قائلين :

– لقد عيناك ملكاً يا أخي.. هيا.. كفى انزل إلينا. فعاود المجنون الواقف فوق الحافة الرقص وهو يقول :

– لن أنزل.

– ماذا تريد غير ذلك.. ها نحن قد جعلناك ملكاً.

– لا لن أنزل اجعلونى إمبراطوراً وأنا أنزل.. وإلا سألقى بنفسى حتفا..

قال العجوز :

– يعملها ويلقي بنفسه..

فصاحوا قائلين :

– جعلناك إمبراطوراً.. فهيا تعال.

فقال المجنون :

– أى عمل لى أنا الإمبراطور بين أناس من أمثالكم ؟

– ماذا تريد إذن ؟ أخبرنا بما تريد ونحن ننفذه.. هيا يا

أخانا انزل نحن فى انتظارك...

سأل المجنون وهو فوق الحافة :

– هل أنا الإمبراطور.. فسأفعل ما أريد.. أنزل وقتما أشاء.. وهأنذا أقول لكم لن أنزل الآن..

اشتاط الضابط غيظاً وقال :

– فليذهب إلى الجحيم.. وليلق بنفسه إلى حتفه..! ماذا سيحدث يعنى.. سينقص مجنون من العالم..! ولكنه عاود التفكير.. وفكر فى أن ذلك ربما يسبب له مشاكل مع رؤسائه.

وفى اللحظة نفسها اتجه رئيس المطافئ إلى العجوز وسأله :

– ماذا سنفعل الآن ؟ ألن ينزل هذا المجنون أبدا.. ؟

– ينزل..

– كيف ؟

– اتركوه لى وأنا أنزله..!

ساد السكون والوجوم، والجميع فى قلق لمعرفة الكيفية التى سيُنزل بها العجوز هذا المجنون.. صاح العجوز إلى المجنون الواقف على حافة السور :

– يا جلالة الإمبراطور.. ! ألا تودون التفضل بالصعود إلى الدور السادس ؟

أجاب المجنون بمنتهى الجدية :

– لا بأس.

تسلل إلى الفتحة الموجودة واتجه نحو السلالم ونزل حتى الدور السادس وبدأ يطل على الحشد من النافذة.

فسأله العجوز قائلا :

– يا صاحب العظمة.. ! ألا تودون الصعود إلى الدور الخامس ؟

قال المجنون :

– بكل سرور.

سيطرت الدهشة على كل الحاضرين .

وجه العجوز حديثه إلى المجنون الذى يطل على الجماهير من نافذة الدور الرابع قائلا :

– مولاى حضرة الإمبراطور.. ! ألا تتفضلون بالصعود إلى الدور الثالث للإطلال على شعبكم..؟

فأجاب المجنون قائلا :

– لابد.

وها هو المجنون أمام نافذة الدور الثالث ولكنه لم يعد يرقص أو يتراقص كما كان يفعل وهو على السقف بل تقمص جدية

الملوك..

فخاطبه العجوز قائلا :

- مولاى صاحب الجلالة ألا يريد أن يتفضل بالصعود إلى الدور الثانى ؟

- أريد..

وجه إليه الحديث وقد نزل إلى الدور الثانى :

- ألا يود صاحب الحشمة والعظمة الإمبراطور الصعود إلى الدور الأول ؟

أصبح المجنون فى الشارع ووسط الزحام فاتجه فوراً إلى العجوز، ووضع يده على كتفه وقال :

- يا ولد.. كم هو واضح كونك مجنونا أنت أيضا فالمجنون يفهم المجنون من حاله..

ثم وجه حديثه إلى قائد الشرطة قائلا :

- هل تعلمت الآن كيف يعامل المجنون ؟ هيا قم بواجبك.. اربطنى وابعث بى إلى المصحة العقلية..

وبينما الشرطة وغيرها مهتمون بأمر المجنون، التف جمع غفير من الشغوفين والتواقين حول العجوز لمعرفة كيفية إنزاله للمجنون وسألوه قائلين :

– يا عماه كيف فعلت ذلك بالله عليك ؟

تنهد العجوز تنهيدة عميقه وقال :

– إيييـه.. ليس الأمـر سـهـلا كـمـا تتـصـورون لقـد عـركـتنا السياسـة.. فنحن فى مـعركتنا منذ أربعين سنة.. ثم أخذ نفسا عميقا وتنهد تنهيدة وقال :

– آه.. آه لو أن سـاقـاى تطاوعـانى الآن لصـعـدت أنا أيضـا إلى القمة.. إلى السقف ولما استطاع أى إنسـان أن يعيدنى إلى أسفل .

# القطة السعيدة

## *Mutlu Kedi*

كنا بالأمس فى معرض سيراميك لإحدى أشهر فناناتنا، وكان موعد افتتاح المعرض، وقدم جميع المعارف والأصدقاء إلى هناك وكان الطقس حاراً للغاية وكانت الأحاديث تسمع من هنا وهناك، وبينما يدور الحديث بانسجام بين الجميع ظهرت إحدى فناناتنا الشهيرات أيضاً وقالت :

– أيها الأولاد، لقد رأيت الليلة الماضية حلماً.

فسألها شاعر :

– هل كان حلماً مفزعا ؟

– لا أعرف، هل يوجد من بينكم من سيفسر الحلم ؟

وبدأت تروى حلمها :

– وأنا ذاهبة إلى مكان ما كنت فى أحد الشوارع التى تعرفونها، وكنت هناك والزحام شديد والناس يروحون ويجيئون فى طريقهم إلى أعمالهم، وفجأة صرخ أحد الأشخاص من

الزحام وقال : أنا! فالتفت كل واحد إلى مصدر الصوت فقال الرجل الذى صرخ قائلاً «أنا»: ليقف الآن كل شخص فى المكان الذى هو فيه... فوقفنا جميعاً.

سأل أحد النحاتين ممن كانوا يستمعون لرؤيا الفنانة قائلاً : ولماذا وقفتم ؟

فقالت : من أين لى أن أعرف لقد وقفنا هكذا ! لقد وقف كل شخص وأنا وقفت أيضاً، أليس هذا حلماً يا عزيزى، لقد وقفت هكذا، ثم بعد ذلك صرخ الرجل قائلا : سيرسم كل واحد منكم دائرة بالطباشير حول نفسه فى المكان الذى يقف فيه.

وفجأة وفى التو أصبح فى يد كل شخص طباشير. ورسم كل شخص بالطباشير دائرة حوله. فقال بعضهم من بين الزحام لا نملك الطباشير، فصاح الرجل قائلاً : من لا يملك طبشورة فليرسم حول نفسه دائرة بالقلم.

فأخرج بعضهم قلم رصاص، وبعضهم الآخر قلم حبر وبدأوا يرسمون على حجارة الرصيف، كلٌ دائرة حول النقطة التى يوجد فيها، وأنا كذلك فتشت فى جيوبى وفى حقيبتى لا طباشير ولا قلم، فتملكنى شعور بالخوف. وارتجفت كثيراً ومثلى كان آخرون ممن لا يمتلكون قلمًا وهمس بعضهم قائلين : ليس معنا

أقلام. فصرخ ذلك الرجل قائلا : من ليس معه قلم فليرسم بأصبعه دائرة فى الهواء فاستدرت على كعب حذائى ورسمت بيدى دائرة فى الهواء.

وسأل أحد القصاصين ممن كانوا يستمعون لرؤيا الفنانة: لماذا رسمتم دائرة ؟

فقالت الفنانة : إنه حلم، هل يمكن أن نقول لماذا عن الحلم ؟ إنه حلم..

فقال أحد الممثلين : لا منطق للحلم !

وحول وجود منطق أو عدم وجود منطق للحلم، بدأ جدال بين الحاضرين، وفى النهاية أثبت أنه لا يمكن العثور على منطق للأحلام .

.. وواصلت الفنانة رواية حلمها :

– بعد أن رسم كل واحد دائرة حوله، صرخ الرجل «الآن سيبقى كل واحد فى الدائرة التى رسمها ولن يخرج أى منكم خارجها»، وسارعنا جميعا إلى البقاء داخل دوائرنا. وهكذا انتظرنا فى المكان الذى كنا فيه.

فقال أحد الشعراء :

– ألم تخرجوا من الدائرة ؟

قالت الفنانة: نحن لا نستطيع أن نخرج.

– لماذا ؟

– ممنوع.. كيف نخرج؟ ممنوع أن نتجاوز الدائرة.. ممنوع.. ألا تفهم ؟

فسأل قاص :

– لماذا ؟

– هذا حلم يا عزيزى.. هل يوجد سبب للحلم ؟ بعد ذلك.. توقفنا داخل دوائرنا .

فقال قاص :

– حسنا ولكن لا يوجد عندك دائرة.

– قالت الفنانة :

– لقد رسمت دائرة بأصبعى.. الدائرة الموجودة فى الهواء.

– الدائرة التى فى الهواء لا ترى والحدود ليست واضحة.

– ليكن لكنى أعرف الدائرة التى رسمتها من دون أن تبين.

انتظرنا جميعاً كل فى دائرته، وبدأت أشعر بالضيق، آه بدأت أفكر وأنا أقف فى الدائرة كيف أخرج ؟

– حسنا لماذا لم تخرجوا ؟

– لم يخرج أحد لكى أخرج أنا.

– لماذا ؟

– أمان أقول لك : هذا حلم وهذا فى الحلم.

– نعم ؟

– آه، إذا خرجت من هذه الدائرة أفقد روحى، فكرت فى أن أمحو الدائرة التى رسمتها فى الهواء بأصبعى وأن أخرج منها. مددت يدى وعندما باشرت بكفى محو الدائرة التى فى الهواء، صرخ ذاك الرجل ثانية : «لن يمحو أحد دائرته». وبقيت داخل الدائرة متسائلة: ما العمل ؟

فقال الممثل :

– لو لم ترسمى هذه الدائرة من البداية.

فقالت الفنانة : صحيح لو لم أرسم هذه الدائرة من البداية لكن وجدتنى أرسمها وبقيت محتجزة داخلها وأنا أنظر إلى ما يدور حولى، إنهم مثلى منكمشون ومحتجزون. فى الدائرة التى على يمينى إنسان مشلول. قال : أنا مشلول منذ عشرين سنة لم أتحرك منذ عشرين سنة من المكان الذى أسكن فيه لكننى الآن أحس فى داخلى برغبة لا حد لها فى الخروج من الدائرة؛ قلت للمشلول : «لكن قدميك لا تحملانك فكيف ستسير»؟ أجاب، «أمشى، بل حتى أركض هكذا أشعر، إننى انعزلت فى الدائرة

التى رسمتها لو لم يكن ممنوعا الخروج من الدائرة لكنت أظننى ركضت».

أما الرجل الذى كان فى الدائرة على يسارى فكان يقول: «آه، لو كان بالإمكان محو هذه الدوائر لكنا تحررنا».

– خلفى كانت تنام امرأة نظرت إليها بدقة، المرأة بلا حراك بلا روح ولكنها تتكلم.. أليس ذلك حلما ؟ حتى الميت يتكلم: «آه لو تمحى هذه الدوائر لكنا تنزهنا قليلا وتجولنا».

فسألتها: «أنت ميتة فكيف تتنزهين»؟

فأجابت: «لم أحس أبداً برغبة فى التنزه منذ أن مت».

وتابعت: «ولكن منذ أن خططت هذه الدائرة منع علينا الخروج، انبعثت فى داخلى رغبة فى التنزه والتجول، لو لم أبق معزولة فى دائرة أظن أننى كنت مثلكم أنتم الأحياء، أستطيع المشى».

أمامى شاب، كان المسكين مبتورا وأيضا يقول: «آه لو يخرج أحد ويمحو هذه الخطوط ويحررنى من هذه الدائرة».

– «أنت مبتور ولا تستطيع يداك أن ترسم دائرة لا دائرة حولك».

أجاب : «نعم لم أرسم بيدى لكنى رسمت برأسى دائرة فى

الهـواء. الآن أنا مـحـصـور داخل الدائرة التى خططتـهـا ولا أستطيع أن أخرج».

جـمـيعنا بقـينا فى الدوائر التى رسـمناها أو أعـددناها ولا نستطيع الخروج منهـا. وهـكذا كنا ننتظر ونردد «لو أحـد يأتى ويمحو هذه الدوائر»، ومع ازدياد هذه الأصوات بدأنا نصرخ «لو يخرج أحدهم ويحررنا.. لو يحررنا أحدهم ألا يوجد محرر؟ لو يخرج من يمحو دوائرنا».

كل واحـد كـان يردد الكلام نفسـه، وأنا أيضـا بدأت بالكلام مثلهم وإذ كنا نردد ذلك كانت العتمة تزداد شيئاً فشيئاً وحل الليل، سـأصـبح مـجنونة ولا أستطيع الخروج بأى شكل، وكـان العرق يتصـبب من كل جسمى، لا يستطيع أحد الخروج من دائرته.

بالضبط فى هذه اللحظة سمعنا صوتا: «لو يخرج أحـدهم لأخرج أنا، لو يخرج أحدهم من دائرته لخرجت أنا كذلك» .

صـحـيح لو يخرج أحـدهم لأخـرج أنا أيضـا قلت، وبدأ كل واحد يقول «لو يخرج أحدهم أيا كان لأخرج أنا أيضا».

ثم بدأت تتناهى أصوات.. لا يوجد واحد.. واحد ؟

على الأقل واحد ؟ «هذا الواحد» فإنه لم يكن يستطيع القول

إنه هذا الواحد.

خيم ظلام حالك، كان يلقى بثقله فى المكان كل واحد منا محبوس فى الدوائر التى خططنا أو أعددنا بأنفسنا.

فى هذه الأثناء بدأت بالتجول إحدى القطط، كانت عيناها خلال العتمة تلمعان مثل قطرتين من الشهب. كانت القطة تتنزه، تروح وتجىء من دون أن يعترضها أحد، تتنزه خارج الدوائر وبينها.

نظرت إليها إنها قطة عادية، وتذهب إلى المكان الذى ترغب فيه، فجأة توقفت وتلفتت، ثم من جديد تجولت. شعرت برغبة عميقة فى داخلى «آه لو كنت قطة».. أية مخلوقات سعيدة هى القطط !

الآخرون، اشتهوا لأنفسهم هذه الحرية وهذا التحرر وبدأوا يرددون: «آه لو كنا قططاً، لو كنا قططاً»، أما القطة فكانت فى هذا الليل الخاوى، الخاوى تماماً تتنزه وتتوقف كما لو أنها تتحدانا. استيقظت مع هذا القلق وبقيت فى عرقى.

بعد أن روت الفنانة حلمها سألت :

– الآن.. هل من يفسر هذا الحلم ؟

لم يحاول أحد من الحاضرين تفسيره. لكن أحد الكتاب قال:

- إذا لم يحسن الناس التصرف بطريقة إنسانية فإنهم لا يحظون حتى بسعادة القطط.

ثم خاطب الفنانة :

- سأكتب هذا الحلم.

فسألته :

- ولماذا تريد كتابته ؟

- ربما يقرأ حلمك أحد القراء، ويلقى بنفسه خارج الدائرة، وما إن يخرج هذا الواحد حتى يخرج الآخرون من دوائرهم التى رسموها لأنفسهم .

# أليس فى بلدكم حمير ؟

## *Sizin Memlekette Essek yok mu ?*

دخل وهو يهز رأسه إلى اليمين وإلى اليسار وقد وضع يده على وجهه وكأن ضرسه يؤلمه وبيده الأخرى كان يلطم خده وهو يردد :

– لقد فضحونا .. فُضِحنا ..

لما كان رجلاً مهذباً، محترماً وقد أخذ يردد هذه العبارة بمجرد دخوله من الباب وحتى دون أن يلقى التحية، كما أن لطمه على خديه قد أدهشنى وأزعجنى فقلت :

– أهلاً وسهلاً تفضل، أرجوك تفضل بالجلوس.

– فضحونا .. رزالة وأى رزالة.

– كيف حالك ؟

– كيف أكون أكثر من ذلك هل هناك ما هو أسوأ من ذلك.

فظننت أن مصيبة قد حلت به. أو أن هناك مكروها قد أصاب أحد أفراد عائلته.

– لقد خسفوا بنا الأرض.. لقد أصبحنا لا نساوى شيئاً.

– لماذا.. ماذا حدث.. ؟

– ماذا يمكن أن يحدث أكثر من ذلك.. ! لقد باعوا للرجل حماراً عجوزاً أجرب بألفين وخمسمائة ليرة..

فتراجعت بعض الشىء وأمعنت النظر إليه. أيمكن أن يكون قد أصابه الجنون ؟ ولم يكن فى استطاعتى أن أخفى هلعى فأردت أن أستدعى زوجتى فقلت سائلا :

– ألا تشرب القهوة.. ؟

فقال :

– اترك القهوة الآن لقد جعلوا سمعة البلد فى الحضيض، هل حمار عجوز أعرج يساوى ألفين وخمسمائة ليرة ؟

– لا أعلم لأننى لا أشترى ولا أبيع حميراً .

– يا عزيزى أنا أيضا لست بهلوان حمير أو سائسا، ولكننى أدرك أنه ليس هناك حمار يساوى ألفين وخمسمائة ليرة.

– هل أعصابك متوترة ؟

– متوترة جدا وإذا لم تفسد أعصابى أنا فمن إذن ؟ هل رأيت حماراً يساوى ألفين وخمسمائة ليرة ؟

– بالنسبة لى.. لم أر حميراً منذ ما يزيد عن عشرين عاماً.

– أنا أسألك.. هل الحمار يساوى ألفين وخمسمائة ليرة أو لا يساوى ؟

– لست أدرى ماذا أقول ربما لو كان حماراً ذا معارف أو مهارات يساوى هذا المبلغ..

– أى معرفة بالله عليك.. هذا حمار.. حمار.. وليس خطيباً.. حمار عادى.. بل حتى عجوز وأعرج زيادة على ذلك فإنه أجرب.. لقد باعوه للرجل بألفين وخمسمائة ليرة.. وما زاد الطين بلة ماذا هل تعرف.. لقد كنت أنا واسطة البيع فى هذه العملية.

– ياه... كيف حدث هذا الأمر ؟

– ذاك ما أتيت لكى أحكيه لك.. أنت تذكر أننى وزوجتى ذهبنا إلى أمريكا بدعوة منهم، لحساب جامعة إستانبول.. وتعلم أننا بقينا فى أمريكا سنة.

– أعلم ذلك..

– تعرفت فى أمريكا على بروفسير أمريكى أصبحنا أصدقاء، قدم إلى خدمات جليلة وله على أفضال كثيرة.. واستمرت المراسلة بيننا حتى بعد عودتى إلى تركيا. إنه رجل محب جدا للأتراك.. صديق الترك.

وقد أخبرنى فى إحدى رسائله أن صديقا له سوف يأتى إلى

تركيا، وأن هذا الصديق خبير فى السجاد القديم، ويعد كتاباً عن هذا الموضوع ولذا فهو قادم إلى تركيا لإجراء بعض البحوث والدراسات، ويسألنى عن إمكانية مساعدته، وقمت أنا بدورى بإعلامه أن صديقه خبير السجاد هذا، لو حضر إلى تركيا خلال عطلة الجامعة فلسوف أقدم إليه كل ما فى وسعى من المساعدة. ولما كان هذا الخبير سوف يتوجه أولاً إلى الهند وإيران للقيام ببعض البحوث والدراسات هنالك فقد أصبح الموعد ملائما لكلينا.

وجاء خبير السجاد فى شهر يوليو، وعند مجيئه أخذ من الأستاذ الأمريكى صديقه عنوانى ورقم هاتفى، وقام بالاتصال بى ذات يوم من الفندق الذى يقيم به وعلى الفور ذهبت إليه، كان الرجل كالجن، أمريكى من أصل ألمانى وعلى ما يبدو فيه شىء من اليهودية ربما كان يهوديا ألمانيا ثم أصبح أمريكيا.

لقد أحضر من البلدان التى طاف بها قبل تركيا، أربع حقائب مليئة بقطع السجاد والكليم والجوت، ففتح وأخذ يعرض علىَّ تحفه، كانت عبارة عن قطع عتيقة جدا من السجاد والكليم والجوت. وكان يبدى سعادته الغامرة من القطع التى استطاع جمعها، ويؤكد أنها لا تقدر بثمن وخاصة تلك القطع العتيقة التى

يتجاوز عرضها ثلاثة أشبار وطولها خمسة أشبار، فقد أكد أن ثمنها لا يقل عن ثلاثين ألف دولار، أما هو فقد اشتراها بدولار واحد من قروى إيرانى، زيادة على ذلك فإن هذا الإيرانى الفقير ما إن أخذ الدراهم التى تساوى الدولار حتى أخذ يردد دعواته فى دهشة وانبهار..

فسألته عن سر ارتفاع ثمن هذه القطعة القديمة إلى هذا الحد، قال: «لأن فى كل سنتيمتر مربع من قطعة السجاد هذه ثمانين عقدة إنها خارقة للعادة.. رائعة».

وفى الغالب كان يشعر بلذة ونشوة غريبة وهو يتحدث عن السجاد.. فعلى وجه الأرض كلها لم تكشف إلا قطعة واحدة من السجاد فى كل سنتيمتر مربع منها مائة عقدة، وهى موجودة فى أحد المتاحف، وكانت سجادة من ذلك النوع الذى يعلق على الجدران.

ثم أرانى قطعة جوت أو خيش أو ما شابه ذلك، وقال «لقد اشتريتها بخمسين سنتا» وكان يضحك بخبث ولؤم ينمان عن نشوته وتابع حديثه قائلا : إن قيمتها لا تقل عن خمسة آلاف دولار.

فسألته وكيف يتسنى لك شراء هذه الأشياء القيمة بهذا

الثمن البخس ؟

فقال: «منذ أربعين سنة وأنا فى خضم هذه العملية، كما أن هناك أصولا خاصة بنا» وشرح لى أصوله تلك التى جعلتنى أقف فاغر الثغر من الدهشة، فقد كان من أصحاب السيطرة والنفوذ العالمى فى صناعة وعالم السجاد، وله ألبومان من السجاد وكتابان من تأليفه، كما أنه واحد من أصحاب أكبر مجموعة للسجاد بالعالم.

بدأنا سوياً جولة فى الأناضول وكنا نطوف بكل الأقاليم إقليما إقليما ومركزا مركزا، وكان يقوم بتصوير قطع السجاد التى نصادفها فى المساجد وتروق له تصويرا ملونا كما كان يسجل ملاحظاته أولا بأول.

كما اشترى من بضعة أفراد قطعًا من السجاد والكليم والجوت والخيش.. وحسب أقواله.. إن ما اشتراه لا يساوى شيئا بالقياس لما اشتراه من الهند وأفغانستان وتركمانستان وإيران، وكان يضيف إن هناك سجاداً تركيا رفيع المستوى ذا قيمة عالية ولكننا لم نصادفه بعد..

وصلنا إلى منطقة حفريات أثرية كانت تعمل بها بعثة آثار أمريكية وأخرى ألمانية وقد أقاموا معسكرهم على بعد يتراوح

بين خمسة وعشرة كيلو مترات، وعمليات الحفر مستمرة، بحيث إنهم قلبوا باطن الأرض وجعلوا جبالها وتبابها كقطن الحلاج المندوف، ومنطقة الحفريات تغطى مركزاً تقريبا، فالعديد من الخيام مبعثرة هنا وهناك، ففى هذه المنطقة تكمن أطلال عدة حضارات منذ القرن العاشر قبل ميلاد عيسى وحتى عصرنا الحاضر وقد تراكمت فوق بعضها البعض، وتمكنوا من اكتشاف عدة مدن تحت سطح الأرض فيها كثير من القصور والمزارات والمشاهد.. وكما جذب هذا المكان أنظار الباحثين والمنقبين عن الآثار فقد جذب كذلك إليه العديد من السواح الشغوفين بمثل هذه الحضارات القديمة وأطلالها فهم يفدون بالسيارات أفواجا، وفى كل كيلو مترين أو ثلاثة يمكن أن تصادف خمسة أو عشرة سياح.

أما القرويون الذين يعيشون فى ضواحى منطقة الحفريات هذه فقد ملأوا المكان، يبيعون للسياح كل ما يخرج من تحت سطح الأرض وله سمة تاريخية كقطع الخزف والفخار والمعادن، ويتخاطف السائحون هذه الأنتيكات، حتى أطفال القرى وقد اصطفوا على جانبى الطريق يبيعون لهم كل ما أخرجوه من باطن الأرض كالحلقات والقطع الحجرية المنقوشة أو المكتوبة

وقطع الخزف وبقايا المزهريات وكانت الفتيات الصغيرات جنباً إلى جنب مع الصبيان يركضن جميعا حافيات القدمين خلف أى سائح يرددن صائحين: وان دولار، توو دولار، وكل من الصبية والصبيان يحاول أن يكون هو الفائز.

وقلت فى نفسى طالما أتيت إلى هنا، فلآخذ أنا الآخر أى شىء من هنا كتذكار، فاقتربت من فتاة فى العاشرة من عمرها تمسك بزهرية وبجانبها ولد قد أمسك هو الآخر بحجر أزرق صغير على شكل رأس إنسان ففكرت أن يكون هذا الحجر فصاً فى خاتم فقلت :

– بكم هذا يا صغيرى ؟

فطلبت الفتاة لمزهريتها أربعين ليرة أما الولد فقد طلب لذلك الحجر خمس عشرة ليرة، لم يكن الأمر كما تصورت فقلت :

– غال.

فبدأت الفتاة والولد يشرحان لى بطور يفوق سنهما أيمكن أن يكون هذا غاليا!

إن والدهما قد أمضى أياماً فى تقليب الأرض وقد وجدهما على عمق خمسة أمتار من سطح الأرض.

وكنت على وشك شرائهما لولا صديقى الأمريكى خبير

السجاد قد شرح لى أن لا قيمه لهما سواء من الناحية الأثرية أو التاريخية، وأضاف أنه رأى نفس الشىء وصادفه فى كل بلاد الشرق التى زارها «هناك أيضا نفس الشىء - فكل القرويين نسائهم ورجالهم صبيانهم وأطفالهم - فى المناطق التى تتم فيها حفريات.. يقطعون الطريق على أى سائح ويحاولون خداعه وبيعه أى شىء يقع فى أيديهم بحجة أنه أثرى عتيق..».

وهؤلاء القرويون الماكرون يقومون بتقليد تلك الآثار القديمة بمهارة فائقة مما يجعلهم يخدعون حتى كبار الأثريين الذين يشترون منهم تلك القطع بأسعار خيالية، بل وصل بهم الأمر أن باعوا إلى سائح أمريكى جسد واحد من كلاب الرعى، بعد أن حلقوا شعره واجتزوا وبره، وكان هذا الخبير يضحك بخبث وهو يحكى نوادرهم تلك، ولكن هؤلاء المزورين لا يستطيعون دس مقالبهم تلك إلا على الهواة المبتدئين وإن كانوا هم فى الوقت نفسه يتمتعون بمهارة فائقة فى التقليد، فمثلاً.. ذلك الحجر الأزرق الذى كان على هيئة رأس إنسان ويحاول الطفل بيعه ليس عملا بسيطا أو سهلا. استمرت رحلتنا بالجيب الذى استأجرناه وكان الهواء حاراً.. رأينا على قارعة الطريق بضع شجرات من أشجار الحور وبئراً.. فتوقفنا لكى نتناول طعامنا

فى ظل الشجر وكان هناك قروى عجوز قد تمدد تحت الظل وقد غالبه النوم وبالقرب منه حماره الذى كان يرعى..

ألقينا السلام على القروى الذى تنبه لوصولنا وبدأنا الحديث وكنت أقوم بترجمة كلام القروى إلى الإنجليزية لذلك الصديق الأمريكى.

– ما المحاصيل التى تكثر فى هذه القرى ؟

قال العجوز القروى :

– لا ينبت هنا أى محصول... فى الماضى كان هنا زرع وقلع.. ومحصول وحصاد، كانوا يزرعون القمح والحبوب ولكن منذ أن بدأت هذه الحفريات منذ حوالى عشرين سنة تكاسلوا وأصبحوا لا يزرعون أى شىء.

– قال الأمريكى :

– نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى..

فسألت العجوز :

– حسنا، وبم يتعيش هؤلاء القرويون.. ؟

– بما يخرج من باطن الأرض من قطع خزفية وفخارية منذ أن أصبح تقليب بطن الأرض «موضة» وهم يتعيشون بما يخرجون.. أحجار.. معادن، فكل قادر على الحفر بدأ حفره..

وكل ما يستخرجه.. مهما وجد يبيعه إلى الأجانب الذين يجوبون تلك الضواحى.

قال الأمريكى :

- نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى.

قال العجوز :

- إن مواطنينا هنا سفهاء فلقد باعوا خزائن البلاد بسعر بخس للأجانب، فلقد خرج من تحت الأرض أحجار وأعمدة ومزارات لا حصر لها ولو عرفنا قيمتها ولم نبعها لأعدنا بناء عشر بلاد أخرى كتركيا..

- فمن هم هؤلاء الذين تدعوهم أجانب ؟

- كلهم لصوص.. فقد قاموا بتهريب كل الكنوز التى خرجت من تحت باطن أرضنا وبهذه الأشياء أعادوا وشيدوا مدنا عظيمة فى بلادهم بعضهم يحفر بنفسه والبعض الآخر يشترى ما يخرجه القرويون بثمن قليل، إن هذا خداع...

- نفس ما يحدث فى المناطق الأخرى...

قال القروى :

- خلاص لم يعد هناك حتى روث يمكن أن يستخرج من تحت باطن الأرض.. وحتى لو وجد فإن الحكومة تيقظت للأمر

ولم تعد تسمح لأى فرد بامتلاك مثل هذه الأشياء.. وإذا كان هذا الأجنبى سينهب شيئا فإنه بذلك ينهب الحكومة بينما الحكومة تبيع نفسها بسعر آخر..

فقال الأمريكى :

– نعم.. نفس ما حدث فى المناطق الأخرى

– إذا كان الأمر كذلك فكيف يعيش القرويون الآن..؟

– لا تسأل.. فى هذه الناحية ست قرى.. اذهب إلى منازلهم تجدها خاوية.. ولن تجد فيها أى شىء فقد باعوا حتى الخيش، الأوانى، القلل، الصوانى.. كله، البيوت خاوية.. ؟

– لماذا ؟

– ماذا لماذا ؟ يبيعونها إلى هؤلاء السائحين لم يبق فى البيوت شىء، كل ما لديهم حولوه إلى أنتيكات يبيعونه، يدفنونه تحت الأرض ليصدأ ويفسد ويبيعونه على أنه أثر عتيق، إن أخلاقيات الناس قد فسدت هى الأخرى يا سيدى. تصور.. أمس وجدت طفلا كعقلة الإصبع يحاول أن يسرق الخرز المعلق فى رقبة حمارى.. كان سيسرقه ويدفنه تحت التراب هل فهمت.. وبعد فترة يخرجه من تحت الأرض ويحاول تدليسه إلى أى أجنبى على أنه أنتيكا، حتى الفتيات العرائس تحولن إلى

صانعات عاديات قديمة.. يحفرن الحجارة ويشكلنها إلى ما لا يخطر على البال.. لقد صنعن من حدوة الحمير ميداليات ونقوداً قديمة.

فقال الأمريكى :

– لقد قلت لك ذلك يا عزيزى يحدث نفس الشىء فى المناطق الأخرى.

فسألت القروى العجوز :

– كيف تعيش أنت ؟ وأى عمل تعمل ؟

قال :

– أنا تاجر حمير.. أبيع وأشترى..

وبينما كان يقول ذلك كان يخرج ماء من البئر.. وقدم فى كفيه الماء لحماره وبينما حماره يشرب هب الأمريكى فجأة وذهب إلى جوار الحمار وكنت أنا والقروى نتحدث.

– هل تستطيع أن تتعيش من تجارة الحمير.. ؟

– الحمد لله منذ خمس سنين وأنا أتعيش بهذا العمل. أشكر الله.

– كم تكسب مثلا ؟

– يصعب التحديد.. ذلك متوقف على الحمار.

– كم من الزمن يستغرق بيع الحمار ؟

– وهذا أيضا يصعب تحديده.. ترى أحيانا أظل ثلاثة أو خمسة أشهر بدون أى بيع وأحيانا فى يوم واحد أشترى خمسة حمير.

اقترب الأمريكى منى وهو فرح مسرور وإن كان يحاول ألا يظهر ذلك وقال :

– هناك على ظهر الحمار قطعة سجاد.. هل رأيتها؟ ولما كان يتحدث الإنجليزية فإن القروى لم يفهم، كان على ظهر الحمار قطعة من الجوت أو البشت البالى الموحل فقلت له :

– تلك الخرقة المتسخة.. ؟

قال :

– يا إلهى إنها خارقة شاهقة رائعة لا مثيل لها فقد كنت أقوم بفحصها وأنت مشغول بمحادثته. فإن ألوانها خرافة.. الصنعة فوق العادة فى كل سنتيميتر مربع مائة وعشرين عقدة بالكامل ليس لها مثيل فى العالم ولم ير العالم شيئا كهذا.

فسألته :

– هل ستشتريها ؟

– نعم.. ولكن لا يجب أن يفهم أننى سأشترى السجادة فأنا أعرفهم جيدا فما إن تحاول أن تشترى ما كانوا سيلقونه فى

المزابل حتى يغالوا فى الثمن ظناً منهم أنها تحفة نادرة، ومهما أعطيت فلا يملأ عيونهم سوى التراب كما يقال.. ولذلك لا يجب أن يفهم القروى مقصدنا.

فى هذه الأثناء قال القروى الهرم :

– ماذا يقول هذا الكافر.

قلت :

– لا شىء.. إنه أعجب بتلك الناحية.

– ماذا أعجبه منها تلال.. سنج.. تباب لا شىء غير ذلك.

قال الأمريكى:

– ألم أقل لك إن لى طرقًا معينة وأصولاً خاصة للشراء الرخيص.. انظر.. الآن سأستخدم طريقة منها..

– كيف ؟

– لن نطلب السجادة بل سنشترى الحمار وطبعا لما كان هذا القروى لا يعرف قيمة السجادة فإنه سيتركها على ظهر الحمار، على أنها قطعة من البشت أو الجوت المتسخ ونحن سنأخذ السجادة وبعد مسافة قليلة سنطلق الحمار..

عليك الآن أن تخبره أننى أريد شراء الحمار.

فقلت للرجل:

– كنت تبيع الحمير أليس كذلك ؟

– أيوه.. نعم أبيع الحمير والأتن..

– بكم تبيع هذا الحمار مثلا.. ؟

– حسب المشترى..

فضحكت..

– هل تهزأ بى.. ؟ ماذا يفعل مثلك بالحمار..

– ما لك أنت وهذا يا عمى.. لنشتر نحن هذا الحمار.. بكم تبيعه؟

– إذن قلت لك حسب المشترى هل أنت المشترى أم ذلك الكافر ؟

– هو المشترى..

– من أى ملة هذا الرجل.

– أمريكانى .

– هيـ.. ليس غريبا يعتبر منا.. قل له. إن هذا حمار مسن لا يصلح له.

قلت ذلك للأمريكى فقال :

– حسن سيبيعه رخيصا.

– ليكن... هو موافق .

– ولكن هذا عيب سيقول الأمريكانى بعد أن يعود إلى بلده إن الأتراك خدعونى.

قلت ذلك للأمريكى فقال :

– إن القروى الشرقى عامة والتركى خاصة ساذج صادق.. لو كان ذلك فى مكان آخر لباعه فورا ولكن طالما أنه رجل طيب القلب فسأعطيه مبلغاً كبيراً .

– فقلت للقروى إن الأمريكانى موافق..

– حسنا.. ولكن يا سيدى إن هذا الحمار سينفق قبل أن يصل إلى أمريكا.. زيادة على ذلك فإنه أجرب لقد هتك الجرب جانبيه..

– ما لك أنت يا عزيزى الرجل يريده هكذا.

– الله الله يا أخى هذا ليس جحشا ولا بغلاً حتى يستفيد به ماذا سيفعل بهذا الحمار الأجرب المهكع..؟

– ما عليك أنت فكر أنت فى المبلغ الذى تطلبه.. والآن بكم ستبيع الحمار ؟

– لقد شوقتنى أرجوك اسأل هذا الأفندى الأمريكانى أليس فى بلادكم حمير قط ؟

فسألته :

وبعد أن فكر الأمريكى قليلا قال :

– قل له إن بها ولكن ليست مثل هذا..

فقلت للقروى الذى همهم فى نفسه وقال :

– لا يعجبه الحمير الأمريكية وهو شغوف بالحمير التركية، ما علينا لقد أبرأت ذمتى لقد عددت أمامه كل عيوب الحمار وليس من المعقول أن نكسر خاطر هذا الأفندى الأجنبى من أجل حمار أجرب لنبيعه إذن... بكم ؟ من إجلكم عشرة آلاف ليرة فقط.

– ماذا هل جننت أنت لابد من أنك مخبول، فأجود خيول السباق العربية لا يتجاوز ثمن الواحد منها ألفى أو ثلاثة آلاف ليرة إذا كان كذلك، فلماذا هذا الحمار فليشتر مهرا عربيا.

وما إن قلت للأمريكى أن الرجل يطلب عشرة آلاف ليرة حتى قال :

– ألم أقل لك ذلك.. ما إن تصير مشتريا الشىء حتى يفعلوا ذلك كما لو كان قيمته عالية فيغالون فى السعر.. فلو طلبت هذه السجادة لطلب مائة ألف سأدفع العشرة آلاف ليرة فى هذا الحمار.. ولكن لو فهم ذلك سيرفع الثمن إلى عشرين ألفا ولو وافقت سيرفعه إلى خمسين ولذلك يجب أن نساوم كثيرا.

فقلت للقروى :

– قل الصدق بكم اشتريت الحمار ؟

قال: أنا لا أكذب وأنا مازلت على وضوئى ولن أكذب طبعا.. أنا اشتريت الحمار بخمس ليرات لكى أسلخه وأستفيد من جلده فى صنع الغرابيل فهو كما ترى كان على وشك النفوق لأنه لا يصلح لأى شىء آخر.

– أين العدل يا أخى كيف تفكر أن تبيع حمارا اشتريته بخمس ليرات بعشرة آلاف ليرة ؟

– يا عزيزى أنا لم أعرض البيع أنتم الذين عرضتم الشراء، قلت : عجوز، قال الرجل موافق، قلت أجرب، قال الرجل موافق، كسيح، قال الرجل موافق، قلت لن يخرج عليه الغد، قال الرجل موافق.. ها تذكرت كنت على وشك أن أنسى أن هذا الحمار أعرج رجله الخلفية مقصرة..

– ليكن..

– هل رأيت؟! معنى هذا أن له قيمة أو أن له كرامة لا أفهمها أما إذا لم يكن كذلك فما معنى أن يتمسك به هذا الأمريكى الكافر ويصر على شرائه حماراً عجوزا ذكرا، أعرج أجرب.. أليس كذلك؟ عشرة آلاف أقل من هذا لا يفيد. لن أبيع..

فقلت للأمريكى لا يخفض السعر هل نعطيه العشرة آلاف؟

– لو واقفنا على العشرة سيطلب عشرين عليك بالمساومة.. استمر.

استمرت المساومة والفصال فى السعر ساعتين وتظاهرنا أكثر من مرة أننا صرفنا نظر ومشينا فلم يحرك ساكنا فعدنا إليه، فقال: كنت واثقا بعودتكم. كيف لا أثق يا أخى... ؟ لقد وجدتم حمارا لقطة كهذا بسعر بخس فكيف تضيعونه !

طلبت من سائق الجيب أن يسبقنا بعض الشىء وينتظرنا بعد مسافة على الطريق.. كنا سنترك الحمار هناك ونركب الجيب..

وبعد مساومة حادة يا سيدى استطعنا أن نرضيه بألفين وخمسمائة ليرة.. عددنا النقود فى يده.. وما كان من القروى يا سيدى إلا أن سلمنا مخمصة الحمار فى أيدينا بعد أن أخذ قطعة الجوت التى كانت فوق ظهره قائلا :

– بارك الله لكما فيه.. على أى حال لقد تنازلت عن حمارى الأعرج الأجرب بهذا السعر الرخيص ولكن بارك الله لكما فى مالكما.

فغر الأمريكى فاه وبحلقت عيناه لقطعة السجاد التى فى يد القروى.. ماذا سيحدث الآن ؟

فقال الأمريكى :

- أرجو ألا تظهر أى شىء ولنذهب قليلا بالحمار وبعدها وبدون أى اكتراث نعود ونقول له: إن ظهر الحمار متسلخ أعطنا هذه الرقعة لنغطيه بها.. حذار أن يفهم الرجل أننا نطلب قطعة السجاد.

سحبنا الحمار وسرنا - عفواً - قلت سرنا.. لقد سرنا قليلاً والأمريكى يدفع من الخلف وأنا أسحب من الأمام وبالرغم من كل محاولاتنا أصر الحمار على عدم المشى فالحمار العجوز لم تعد به قوة للمشى..

ولو خلصنا السجادة من يد القروى لتركنا الحمار وسرنا..

كل ما استطعنا قطعه حوالى ثلاثين خطوة ونحن نجر ونسحب الحمار.. حتى سمعنا صوت الرجل.

- انتظروا قفوا لقد نسيت شيئا للحمار.

شملنا الفرح وأخذنا منه العمود الحديدى وفى طرفه حلقة فخاطبنى الأمريكى :

- هيا لقد حانت الفرصة اطلب منه السجادة الآن حذار.. لا تبد شيئا قل له: أعطنا هذه الرقعة البالية..

فقلت للقروى :

– هذا الحمار ضعيف.. ومريض أيضا.. سيبرد المسكين، وقد غطيته أنت بجوال قديم أو شيء كهذا.. فأعطنا هذه الرقعة حتى نغطيه بها..

قال :

– لا.. لن أعطيكم الجوال أنتم اشتريتم منى الحمار وليس الجوال..

– صحيح اشترينا الحمار.. فلتغطه بالجوال خاصة وأنه يبدو قذراً وقديما أيضا.

– ولكننى لن أعطيكم إياه.

– لماذا.. ؟

– لن أفرط فيه يا سيدى.. إنه ذكرى من والدى وقد ورثه عن جدى.. إنه ذكرى الأجداد.. لذا لن أفرط فيه.

فقلت للأمريكى: «إن الرجل لا يوافق لأنه ميراث وذكرى من أجداده، فقال اسأله عن فائدة ذلك له».

فسألت القروى قائلا :

– ما فائدة هذه القطعة القذرة لك.. ؟

فتقمص العجوز طورا جديدا فجأة وقال :

– ما معنى هذا.. ؟ كيف لا يكون لها فائدة لى.. الآن

سأشترى حمارا أجرب آخر وسأضعها على ظهره ولو لى نصيب سأصادف من هم مثلكما وبإذن الله سأبيعه هو الآخر.. إن هذا الجوال يجلب لى الحظ.. الحظ.. ألم أعطكما العامود الحديدى مجانا وبدون مقابل هل طلبت فى مقابله شيئا؟

– لندفع لك يا عمى بضع قروش وأعطنا هذا الجوال لنغطى الحيوان المسكين...

– بالله عليك كيف سأبيع الحمير بعد ذلك؟ منذ خمس سنين وأنا أبيع حميرا جرباء عرجاء بقطعة الجوال هذه. هيا مع السلامة بارك الله لكما فى مالكما.

فتأبطت الأمريكى خشية أن يسقط مغشيا عليه من هول الموقف.

وبعد أن ابتعد القروى عنا بضع خطوات صاح قائلا :

– لو كنتم ستتركون الحمار فلا تتعبوا أنفسكم وتجرونه مسافة بعيدة على الأقل حتى لا أتعب أنا. فتركنا الحمار فى مكانه وسرنا على الأقدام حيث كان ينتظرنا الجيب.

قال الأمريكى خبير السجاد : هذا ما لم أصادفه فى أى مكان آخر.. لم يحدث مثله لى قط كلهم سواء.. ولكن هذه نمرة أخرى.

ركبنا الجيب.. ومازال العمود الحديدى فى يده.. لم يشأ أن يلقى به.. فسألته :

– ماذا سنفعل بهذا العمود الحديدى ؟

فقال :

– سأضع هذا العمود الحديدى بين مجموعة السجاد التى جمعتها طوال حياتى.. ليكون ذكرى.. إنه عمود قيم.. لقد أخذناه رخيصا.. ألفين وخمسمائة ليرة فقط.

– حقا.. فضحنا أمام العالم.. فضيحة.. وأخذ يضرب رأسه وخديه بيديه وهو يردد فضحنا.. فضيحة.. رزالة..

# مدفأة الكيروسين

***Gaz Sobasi***

أنا لا أفهم هذا أو ذاك.. الناس يشتغلون.. يعملون بدون توقف وكلما زادت مكاسبهم. ولو قيل إن النقود لا تُكسب بالعمل.. هذا كلام فارغ.. يدخل من أذنى ويخرج من الأخرى، فيجب العمل من أجل النجاح فى الحياة...

أصغوا إلى، فلأحك لكم قصة حياة أناس مجتهدين، وخذوا مثالاً.. ونموذجاً.. لأقص عليكم قصة واحدة فقط.. وأنتم احسبوا الباقى.. سأقص عليكم حكاية عائلة باديتو.. فحكاية هذه العائلة.. هى نموذج جيد لكيفية نجاح الذين يعملون.. وكيف أنهم ينجحون فى كل أعمالهم.. مما لا شك فيه أن هناك فى هذه الدنيا من هم أكثر اجتهاداً من عائلة باديتو.. فلسوف أقص عليكم نجاحاتهم..

عائلة باديتو.. عائلة كبيرة.. منتشرة، سالامون باديتو بن جوزيف باديتو.. جوزيف باديتو ابن شقيق ماركو باديتو.. ماركو

هو عم يانكو.. يانكو هو الأخ الأصغر لموردخاى.. موردخاى باديتو هو صهر ميشيل باديتو.. وميشيل باديتو أيضاً هو حمو مويز.. ومويز باديتو أيضاً. تمهلوا تمهلوا.. سيختلط الأمر عليكم.. من الأفضل أن أقص عليكم حياة هذه العائلة ونجاحاتها عن طريق مدفأة كيروسينية.. فمدفأة الكيروسين سهلة الفهم عليكم وتسهل مهمة القص والحكاية علىّ. نحن الآن فى شارع الاستقلال.. وهأنتم ترون دفايات الجاز المعروضة فى فترينات العرض فى المتاجر الكبيرة.. أحجام مختلفة، وأنواع متعددة.. بأيهم أعجبتم.. ؟ حسنا.. نعم جميلة جداً.. ولكن.. انظروا جيدا الى السعر المعلق... ٢١٢٠ ليرة ألفان ومائة وعشرون ليرة.. الأفضل لنا أن ننظر إلى تلك المدفأة الكيروسينية والمكتوب عليها سعرها المعلن وهو ٧٥٠ ليرة، سبعمائة وخمسون ليرة وثلاثة وستون قرشا.. هذه المدفأة وحدها كافيه لتبين لكم كم أن عائلة باديتو عائلة مجتهدة.. جادة.. وتستحق عن جدارة المبالغ التى تكسبها نتيجة عملها واجتهادها..

يوجد لإيزاق باديتو أرض فضاء تقع بين سوق الخميس وجامع عرب.. ولابد من أنكم رأيتم أناسا يجمعون الخرق

والورق.. والعلب والصفائح ومخلفات الحرائق والزجاج المكسر، وقطع الحديد من الشوارع والأزقة والأسواق والأماكن المحترقة.. نعم.. هؤلاء جميعا يأتون إلى أرضية إيزاق باديتو.. تتجمع.. وتفصل حسب أنواعها.. وبفضل إيزاق باديتو يكسب مئات من مثل هؤلاء الناس نقوداً كثيرة، كما أن لإيزاق باديتو منافع جمة يقدمها للدولة.. إنه يدفع ضرائب.. فيفيد الدولة.. ولكن نحن كنا سنقص حكاية المدفأة الكيروسينية.. هل ترون جبال الصفيح والزنك والحديد المتراكم.. إن إيزاق باديتو يبيعها لابن أخيه مويز باديتو سعر الكيلو ١٢ قرشا.. ولما كانت عملية البيع تتم فى المكتب فكلاهما لم ير تلك الخردة... فلا صاحبها إيزاق ولا صاحبها الجديد مويز قد رآها.

يطلب مويز باديتو صهره فردى باديتو بالهاتف ويبيع الخردة والصفيح والحديد للمصدر الفردى باديتو سعر الكيلو ١٥ قرشا ويبيع المصدر الفردى باديتو الذى لم ير وجه الخردة لجاك باديتو المقيم فى إنجلترا بسعر الكيلو ١٧ قرشا.. وتذهب الخردة بالسفينة إلى ميناء إنجليزى..

الشغل شيء جيد جداً.. فبسبب مويز وفردى يعمل كثير من الناس: كتبة.. سكرتارية.. محاسبون.. خفراء.. حراس.. الكل

يكسب نقوداً.. بل يجلبون للبلاد عملة صعبة.. بالإضافة إلى أنهم يدفعون الضرائب.. يبيع چاك باديتو الخردة التي اشتراها لعمه داوير باديتو بسعر الكيلو عشرين قرشا.. يقوم داوير باديتو بتحويل هذه الخردة إلى ألواح وأسلاك وأسياخ فى مصنعه ويبيعها داوير بالاشتراك مع آدم باديتو بسعر الكيلو مائتي قرش.. لآدم باديتو مصنٍّع مدافئ الجاز من الزنك والحديد ثم تدهن وتجلى وتلمع..

إن شركة «آدم باديتو آند برازرس» ترسل كاتلوجاً لصور المدافئ التى يصنعها مصنعه، مع عرض أسعار إلى جوزيف باديتو ممثلها ووكيلها فى إستانبول.. إن أسعار المدفأة التى تراها معروضة فى الفترينة كما هو وارد فى الكاتلوج خمس وثمانين ليرة تركية، ويقوم جوزيف باديتو وكيل المصنع فى إستانبول ببيع حق استيراد هذه المدافئ لأخيه المستورد أورام باديتو بنسبة تمثيل تجارى ٢٠٪ وبسعر ١٠٢ ليرة تركية ويبيع أورام باديتو السماح بالاستيراد لهذه المدافئ بنسبة ٢٠٪ إلى حاييم باديتو وفيصبح السعر مائة واثنين وعشرين ليرة وأربعين قرشا..

ولكى يضمن حاييم باديتو تسيير أموره وأعماله بسهولة أكبر

فقد أسس شركة مشتركة مع أحمد تورك اوغلو.. هذه الشركة تملك ثلث رأس المال «بنك نريان» يقترض حاييم باديتو من بنكه الخاص بفائدة ٨٪.. بهذا يصبح سعر المدفأة التى سوف يستوردها مائة وأربع وثلاثين ليرة وأربعة وأربعين قرشاً. فيقوم أحمد تورك اوغلو بأخذ الموافقة الاستيرادية باسم الشركة.

وبالتالى يقوم حاييم باديتو ببيع هذه الشهادة بمكسب قانونى ٨٪ أى أنه يبيع المدفأة لباديتو بمائة وخمس وأربعين ليرة وعشرين قرشا، ويقدم ميخائيل باديتو العملية بـ ٢٠٪ مكسباً للشمسار باديتو.. العمل شيء عظيم.. والاجتهاد أعظم.. وبسبب هذا الاجتهاد يرتفع سعر المدفأة التى بقيت فى المخازن فى إنجلترا إلى ١٧٤ ليرة وأربعة وعشرين قرشا..

يترك الشمسار ميشون باديتو العملية إلى صالامون باديتو صاحب شركة النقل، وبإضافة قيمة الشحن والنقل يصبح سعر المدفئة ٢٠٣ ليرات وأربعة وتسعين قرشاً. ويؤمن ميشون باديتو صاحب شركة النقل على بضاعته عند خاله يسّاف باديتو صاحب شركة التأمين بنسبة ٦٪ وتصل المدافئ إلى دائرة الجمارك وقد أصبح سعرها ٢٢١ ليرة وثمانية وأربعين قرشا..

العمل شيء طيب وبسبب عائلة باديتو العظيمة المجتهدة

يكسب العديد من البشر حياتهم.. وعدا ما سبق يتم دفع جمارك على المدفأة مبلغاً وقدره ٣٢٪ فى دائرة الجمارك، تنفتح ميزانيتنا.. ويصير ثمن المدفأة الجاز بالجمارك ٢٩٢ ليرة وستة وثلاثين قرشا.. وليس فى الأمر أى شىء يثير الدهشة.. فلكل صاحب حق حقه ولا ظلم على الإطلاق.. فالحسابات تتم بالقرش وبالتمام ..

ويحول ياسف باديتو المدافئ التى وصلت إلى الجمارك إلى زوج ابنته ميشال باديتو بإضافة ٢٠٪ على السعر ليصبح سعر المدفأة ٣٥٠ ليرة وأربعة وثمانين قرشاً..

ولما كان ميشال باديتو قد ترك المدافئ التى وصلت فى الصيف فى مخازن هيئة الجمارك فقد دفع عليها أرضية تساوى ٦٪ مما أوصل سعر المدفئة إلى ٤٤٦ ليرة وثلاثة وثمانين قرشاً..

لا آدم ولا ميخائيل ولا ميشون.. لا ياسف ولا ميشال يعنى أى من آل باديتو كلهم لم ير أى منهم شكل هذه المدافئ ولو لمرة واحدة.. إنها مجموعة من الأوراق والمستندات تجىء وتروح بين المكاتب، ومجموعة من التوقيعات توضع فوق مجموعة من الطوابع التى تلصق فوق الأوراق.. هذا هو كل الشغل.. كما أنهم فى كل هذه العمليات الشرائية لا يتسلمون نقودا فى

أياديهم.. ولا يعدون أى مبالغ.. ولكنهم بسبب اجتهادهم وعملهم لا يتوقفون عن تحقيق المكاسب والأرباح..

إن موردخاى باديتو يبيع هذه المدافئ التى لم ير شكلها بمكسب ٢٠٪ كمكسب استيراد وبسعر الجملة لفدون بائع الجملة.. ويبيع فدون باديتو هذه المدافئ التى لم يرها لابن أخته بمكسب ٢٠٪ فيصبح سعر المدفأة الجاز ٦٢٥ ليرة واثنين وخمسين قرشا.. ويقوم بائع الجملة فدون باديتو ببيع المدفأة الكيروسينية بمكسب ٢٠٪ أى بمبلغ ٧٥٠ ليرة وثلاثة وستين قرشا فى محلات زوج أخته إيزاق باديتو.

هكذا.. هذه المدفأة التى نراها فى المتاجر تباع نقداً بمبلغ ٧٥٠ ليرة وثلاثة وستين قرشاً وبالتقسيط ٨٩٠ ليرة وأربعة وثمانين قرشاً ولكن هذا أيضاً بالإكرام.

إن من يملكون نقوداً يشترون هذه المدفأة.. ويصيبها العطب بعد أربع أو خمس سنوات.. ولم تعد صالحة للاستخدام... فيلقون بها فى المهملات.. فيأخذها شخص ما من المزابل ويبيعها على أرضية إيزاق باديتو بسعر الكيلو خمس ليرات... ومن هذا الباديتو إلى باديتو آخر... إن هذه الماكينة الدائرة والدوارة ليست من اختراع چون أحمد، بل من اختراع عائلة

باديتو.. لقد قرأتم فى الفيزياء أن كل شىء فى الطبيعة لابد له من وجود وها هو إثبات ذلك واضح للعيان..

أنا لا أفهم هذا أو ذاك إن العمل شىء جيد.. إن اجتهاد آل باديتو كان سببا فى أن يكسب الآلاف من البشر أسباب معيشتهم، ويدفعوا ضرائب للدولة بالآلاف... بسبب سعيهم تصبح المدفأة التى سعرها ٢٧ ليرة بمبلغ وقدره ٨٩٠ ليرة.

· أيواه... ما أجمل الشغل.. وكم هو شىء طيب، إن صديقا لى قد اشترى مدفأة الجاز هذه بالتقسيط وبسبب كسل هذا الصديق لم يكن يدفع أقساطه.. يا للعار..! فهل هناك فى العالم ما هو أسوأ من أن لا يدفع المرء دينه.. ؟ ولكن آل باديتو ساقوه إلى المحكمة.. وتم إجراء الحجز على دولابه والراديو الذى يمكله.. وأخذوا مالهم عداً ونقداً ولم ير أى من آل باديتو وجه صديقى أو شكل المدفأة.

هل تعلمون لماذا قصصت عليكم فائدة اجتهاد آل باديتو والذى جعلهم مضرب المثل..؟

لأننى كسلان جدا... منذ أربع سنوات وأنا أتمنى أن أشترى مدفأة كيروسينية.. ولم أتمكن بأى وسيلة.. فأنا كلما مررت من هذا الطريق أقف أمام هذه الفاترينات.. وأنظر إلى المدافئ التى

بالداخل... فإن عائلة باديتو.. فى كل سنة.. ما إن يدخل إليها صهر جديد.. أو يتحول أحد صبيانهم إلى رجل أعمال أو صاحب عمل ما حتى يرتفع سعر المدفأة، ففى هذه السنة.. ولأن نسيم باديتو قد أصبح عريسا فإن سعر المدفأة قد ارتفع بنسبة ٢٠٪ زيادة عن كل عام. إن الكسل شىء سيئ... فلن أتمكن من شراء هذه الدفاية بأى شكل من الأشكال فأنا بالكاد أستطيع أن أجد وأجتهد ثمانى عشرة ساعة يوميا فقط.. ولو أمكننى أن أعمل الأربع والعشرين ساعة فلربما أشتريها.. ولكن الكسل صفة سيئة.. فمن أجل النجاح فى الحياة يجب العمل كثيرا جدا.. وها هى عائلة باديتو خير مثال فى الميدان..

## ناس ظرفاء

*Sakaci insanlar*

الحياة مؤلمة أيها السادة.. الحياة طريق شوكى.. الحياة.. عندى ثلاثة دفاتر مشحونة.. وقد شحنتها كلها بفلسفة الحياة، وحتى الآن.. قد كتبت أقوالاً عن الحياة تجاوزت الستة عشر مقولة مأثورة عن الحياة.. هى الحياة.. تلك هى الحياة.. هكذا تكون الحياة.. مُلئت دفاترى بكثير من هذه الأقوال.

الحياة معاناة.. الحياة مطلع حاد وشديد الانحدار.. الحياة سيل جارف.. الحياة هى خشبة مسرح.. وفى نهاية كراستى الأخيرة، كتبت الآتى عن الحياة: «ما الحياة..؟» نعم.. هكذا.. نعم أيها السادة.. الحياة ألم.. لأقص عليكم هل الحياة ألم.. أم لا.. وقولوا أنتم..! لم يكن لدى عمل أو وظيفة.. وليس هذا لأننى من أصحاب الميراث، بل لأنى لم أجد عملاً، كنت أعيش لمدة يومين على الماء والهواء فقط. كنت ذات يوم أجلس فى منتزه أفكر فى كل ماهية الحياة.. وبينما الرجل الذى كان يجلس

بجانبى قد انتهى من قراءة جريدته وطواها وعلى وشك أن يضعها فى جيبه، قلت له :

– أتسمح بها للحظة.. ؟

مد الرجل الجريدة.. وعلى الفور ألقيت نظرة على الإعلانات الصغيرة، وما إن قرأت واحداً منها حتى دب الأمل فى داخلى.. جارى البحث عن عمال من كل الأعمار.. رجلاً كان أو سيدة فأعدت الجريدة إلى الرجل.. فلا وقت للضياع. جمعت كل قواى.. وهرعت إلى العنوان الموجود فى الإعلان.. فى الدور الخامس من متجر عظيم فى مكان التجارة والأعمال الكبير فى المدينة.. ولم أستخدم المصعد خوفاً من التوبيخ والتأنيب.. وما إن وصلت إلى الدور الخامس حتى كنت ألهث، وقد جلست على درجات السلالم من الإرهاق والتعب.. سأطلب عملاً.. ها هو رقم ١٨ فى مواجهتى، وسرب من البشر يدخلون ويخرجون.. الداخلون يملأهم الأمل أما الخارجون فهم غضبى ومتجهمون، استرحت بالقدر الكافى الذى يجعلنى أدخل على أصحاب العمل وأنا مفعم بالحيوية، ودخلت من الباب رقم ١٨ وسألت أول من صادفته قائلاً :

– لقد قرأت إعلاناً فى الجريدة... فأشار الرجل الذى يبدو

أنه الفراش بيده :

– ادخل.. وانتظر..

كانت الكراسي والمقاعد في الصالون مكتظة.. ست سيدات.. وثمانية رجال يجلسون.. وخمسة رجال وقوف على أقدامهم.. اقتربت من مسكين مثلي وقلت :

– يا ترى أي عمل.. ؟

قال :

– لا أدري.. إنهم يأخذون بالدور.. هكذا، البعض يبقى بالداخل ١٠ دقائق والبعض نصف ساعة ثم ينطلقون إلى الخارج صائحين متصايحين.. وفجأة فُتِح باب الصالون الذي نجلس فيه إلى الداخل بقوة، وانطلق رجل ضخم الجثة من الداخل، وهو غارق في عرقه، ووجهه في حمرة الطماطم.. وانصرف وهو يسب ويلعن قائلاً :

– عديمو الشرف.. حقراء.. رزلاء.

فقلت :

– لابد من أنهم لم يأخذوه.. لذلك فهو غاضب.

فقال الرجل المجاور لي :

– هكذا.. غالباً.. فكل خارج.. هكذا يخرج وهو يزعق

ويصيح..

سأل البواب قائلاً :

– الدور على من.. ؟

قالت سيدة شابة وهى فى قمة زينتها ومكياجها..

– عليَّ..

دخلت وهى تسير متبخترة متدللة..

فسألت واحداً من المنتظرين أمثالى قائلاً :

– يا ترى، ماذا يفعلون بالداخل.. ؟

قال :

– أظنهم يعقدون امتحاناً.

فأخذت أراجع مع نفسى كل ما درسته فى المدرسة، وكل ما يأتى إلى ذهنى، ولما كان هذا مكتبا فى مكان تجارى.. فلابد من أنهم سيمتحنون فى الحساب.. فكررت مع نفسى جدول الضرب، ثم بدأت فى تذكر كيف يتم عمل حساب الفوائد والربح المركب وما إلى ذلك وأنا فى هذه الحالة.. إذا بصرخة امرأة تأتى من الداخل.. وانخبطت ضلفة الباب إلى الخلف، وانطلقت المرأة وأحمرها أحمر.. وأزرقها أزرق.. وانصرفت وهى تسب وتلعن..

– حقراء.. بدون أخلاق.. عديمو الشرف.

كانت تُسمع من الباب المفتوح قهقهة رجال تنطلق فى راحة وزحمة وجهورة..

فقلت :

- يا ترى هل عملوا شيئاً لهذه السيدة.. ؟

فقال الذى بجانبى :

- لا أظن.. لو كانوا قد عملوا شيئا لما زعقت هكذا.. ربما سألوها شيئاً صعباً..

فقال شاب :

- حقا.. لابد من أنه كان صعباً على المرأة..

الرجل المجاور لى قائلاً :

- حتى الذكور يصرخون يا أخى..

الفراش :

- الدور على من.. ؟

فدخل الشاب الذى قال منذ برهة قليلة لابد من أن الأمر كان صعباً عليها، وكنت أنا بدورى ما زلت أراجع حساب الفوائد المركبة.. وما هى إلا برهة حتى انطلق الفتى خارجاً وهو يصيح:

- أى نوع من العمل هذا.. وألقى بنفسه ناحية السلالم..

فقال الرجل الذى يجاورنى :

– إن هذا الفتى لم يتحمل حتى بالقدر الذى تحملته المرأة السابقة.

جاء بعدى أربعة أشخاص طالبين للعمل، وقد دخلوا فى الصف.. وكان ومازال هناك المتوافدون..

وكان كل من يحين عليه الدور يدخل، وما هى إلا خمس أو عشر دقائق حتى يخرج وهو أحمر الوجنات، يتصبب عرقاً، وينصرف وهو يسب ويلعن..

حانت فرصة.. فأمسكت بالبواب الذى دفع بمن حان عليه الدور وسألته :

– ماذا يفعلون بالداخل..؟

فقال ضاحكاً :

– يعملون تجربة... وانصرف..

سيدة مسنة، ورجل عجوز وكأن كلا منهما يود أن يلوذ بالفرار، انطلقا خارجين وهما يصيحان ويسبان ويلعنان.. وكان عقب خروج كل من يخرج تسمع من الداخل تلك القهقهات المتصاعدة، وكنت كلما خرج أحدهم هكذا صائحاً، زاعقاً أزداد أنا أملاً.. إن هذا يعنى أنهم لم يقبلوهم فى العمل.

ويزداد احتمال قبولى فى هذا العمل، ولكن من ناحية أخرى

كان الخوف يتملكني.. فأى نوع من التجارب يجربونها بالداخل، حتى يخرج كل هؤلاء الناس وهم يسبون ويلعنون.. كان الخوف قد استبد بى ولو لم أكن جوعاناً ولم أتناول شيئاً منذ يومين لتركت العمل.. وتركت التجارب وانصرفت، ولكن وسط هذا الخوف كنت أنتظر على أمل ربما يمنحوننى هذا العمل.. خرج العجوز الذى يسبقنى ولونه كالرماد، خرج من الباب كسابقيه وهو يسب ويلعن.. ولم يبق فى صوته رمق فسألته قائلا :

- ماذا يفعلون بالداخل يا عماه.. ؟

فرد قائلاً :

- بالله عليك لا تسأل.. ادخل.. وسترى أنت أيضاً..

سأل البواب قائلاً :

- الدور على من.. ؟ لم أخرج صوتاً..

فقال الذى يتلونى :

- الدور دورك..

فقلت :

- تفضل أنت.. فلست متعجلاً..

فقال :

- لا يجوز.. أنا لا أحب أن آكل حق أحد..

الشيطان.. لو كان فى الترومای أو الحافلة لما نظر أو احترم الدور، ولكان قد قفز من فوق كتفى..

– أرجوك.. تفضل بالدخول..

– لا.. لا يجوز.. والله.. لابد من أن تتفضل أنت أولا..

دفعنى البواب من الخلف.. وأغلق الباب.. كنت أتوسل إلى الله فى سرى قائلاً :

– «يا إلهى الحى.. أتوسل إليك أن لا تخذلنى..امنحنى القوة يا ربى حتى أجتاز هذه التجربة.. أو هذا الامتحان.. واجعل هذا العمل من نصيبى حتى أكون صاحب قوة..».

فى الوقت الذى ولجت فيه إلى الداخل كانت عيناى غاشيتين.. ربما من الجوع أو ربما من الخوف.. هنا.. مكتب ضخم.. فخم.. مؤسس تأسيساً رائعاً.. فى الداخل.. لم أعدهم بالكامل.. ولكن ربما حوالى عشرة أفراد.. مازالوا يضحكون ويطلقون قهقهاتهم على ذلك الشخص الذى سبقنى.. كانوا يمسحون الدموع التى سالت من عيونهم من كثرة الضحك جميعهم مكتنزون.. كروشهم بادية.. حلوقهم ظاهرة، مما يجعل الضحك يتناسب مع أحجامهم.

مررت بحيث أصبحت فى مواجهة الرجل البدين الذى يجلس

أمام مكتب ضخم فوق زجاج لامع.. وكان سؤال الرجل الأول لي:

– هل تحب المزاح.. ؟

بماذا يجب علىَّ أن أجيب لكى أشغل هذا العمل..؟ تفحصت الرجال واحداً واحداً.. لم يكن بينهم من هو مثلى.. جميعهم حسنو المظهر.. يتسم الجميع بالأناقة.. والبدانة.. تبدو عليهم علامات الثراء.. والتغذية.. أناس تتقطر الدماء من وجناتهم.. لابد من أن هؤلاء الناس يحبون المزاح.. جال هذا الفكر فى خاطرى فاعتصرت الابتسامة.. وقلت :

– نعم.. لابد من أننى أحب المزاح يا سيدى وأحبه جداً.. وهل ذلك الذى لا يحب المزاح يكون إنسانا قط.. ؟

فقال :

– ما دمت تحب المزاح.. إذاً.. فاجلس على هذا الفوتى..

كنت غير قادر على الوقوف على قدمى من الجوع.. ولكن لابد من التصرف باحترام.. ولذلك قلت :

– أظل واقفاً يا سيدى .

– لا.. لا يجوز.. مادمت تحب المزاح.. فاجلس..

لم أجد أى رابطة أو علاقة بين المزاح والجلوس.. ولكى أبدو

مطيعاً.. قلت :

- أشكرك يا سيدى.. وجلست..

- لا.. لا.. ليس هذا الكرسى وإنما ذلك الفوتى...

جلست حيث أشار... فقال :

- كل من تراهم هنا... كلنا نحب المزاح جداً...

- رائع يا سيدى... وعبدكم أيضاً مغرم بالمزاح..

بدأ الرجل يتحدث من هنا.. وهناك.. وكنت أجيب على ما يسأل بكل ثقة وأدب واختصار.. ولكن كانت تحدث لى بعض الأمور.. لا تؤاخذنى فقد شعرت بحرارة شديدة فى مقعدى.. شىء لا يحتمل وتزداد الحرارة رويداً رويداً.. لم تعد تلك حرارة.. بل نار متقدة.. صرت كحبة الكستانة التى وضعت فوق الطاسة.. بدأت أشوى من أسفلى.. الله.. الله.. هل أنا محموم..؟ وما أعلمه أن حرارة الإنسان تبدأ من رأسه، وليس من أسفل.. بدأت أتقلب ذات اليمين وذات اليسار.. غير محتمل.. وكلما تلويت أنا كانوا هم ينظرون لى ويضحكون.. فالرجال ظرفاء يحبون المزاح، إن حالى لم تكن تدعو للضحك..!! روحى تحترق ولكن كنت أنا أيضا أنظر إليهم وبدأت فى الضحك.. كانت النيران تأتى من تحتى وكأنها سوف تلتهم ما حولى

وسأشتعل.. فقال ذلك الذى فى مواجهتى :

- ماذا بك.. هل أنت مريض.. ؟

لو قلت إنى مريض فربما لم يمنحونى العمل.. ولذلك قلت :

- لا.. صحتى على ما يرام.. أنا كالجذر..

- لماذا تتلوى هكذا.. ؟

كان الرجال يهتزون من القهقهات.. ولكى أجد مخرجاً.. قلت:

- معذرة.. فعندى فتق.. لو سمحت لى لأقف.. لا أستطيع الجلوس..

كانوا هم من الضحك سيرقدون على الأرض... كان العرق يتصبب من جميع جوانبى فمسحت العرق المتدفق من جبينى، ونهضت واقفاً.. كنت على وشك أن أصيح قائلاً «لماذا تضحكون..؟» ولكن الناس ظرفاء يحبون المزاح.. وماذا لو أنهم لم يأخذونى لهذا العمل..!

ضغط الرجل الجالس أمام المكتب على زر الجرس وقال للساعى:

- أحضر شاياً..

فرحت لذلك.. معنى ذلك أنهم أعجبوا بى.. وكانت معدتى تزمجر من الجوع.. ولو شربت شاياً ساخناً.. فلسوف يطغى

على الجوع.. أحضر الساعي الشاي، كنت واقفاً.. أخذت الكوب في يدى.. وما إن ألقيت بقطعتين من السكر فى الكوب حتى تناثر الزبد فى كل اتجاه... تعجبت لما أصابنى.. ألقيت بالكوب مضطرا.. فبقيت وسط رغاوى الشاى وزبده المتناثر.. كما لسعت يداى من الشاى الساخن.. على أى حال.. فقد كسرت بوتقة... وكان الرجال يتلوون على الأرض من الضحك وفى الحقيقة، كنت فى حالة تستوجب الضحك.. فيما بين الضحكات.. والقهقهات قال واحد منهم :

– افتح هذا الباب المواجه.. هناك ملف فوق المنضدة.. أحضره..

فتحت الباب الذى أشار إليه الرجل... لم يكن هناك دوسيه أو ما يشبه ذلك، بحثت.. وفتشت فلا يوجد أى شىء.. يا إلهى.. لو قلت لا يوجد..

فيا ترى يمكن أن يظنونى بلا حيلة.. ؟ قلت... وجلاً :

– لا يوجد يا سيدى..

– فقال الرجل الذى مازال يضحك.

– كان هنا.. أقبل..!

وبينما كنت أقبل عليه.. قال :

– بالله عليك.. لقد تركت الباب مفتوحاً.. أغلقه فوراً.. أغلقت الباب فبدأ واحد آخر فى سؤالى.. ولكن لم يكن فى مقدورى أن أجيب عن أسئلته... فقد تملكتنى نوبة عطس شديدة.. وبدأت تتراكم المعاكسات .

– ما اسمك.. ؟

– اسـ... هبث... مى.. هبث.. مـ... هبث.. حـمـد.. هبث.. هب..ش اسمى محمدت.. شت..

كان الرجال يتلوون من الضحك.. وأنا لا أدرى ماذا بى وماذا أصابنى.. ولست أدرى ماذا أقول..؟ منذ أربعين سنة لأول مرة تحين فرصة عمل.. وها هى النار تشتعل من أسفلى.. وها هو العطس يتملكنى..

– كم عمرك..؟

– وا... هبث... حـد... هبث.. أر... هبث... بعـ... هبث.. ين.... هبث.. كاد الضحك يخنقهم.. فقال واحد منهم :

– هناك حنفية مياه.. اذهب واغسل وجهك..

وما إن غسلت وجهى واسترحت قليلاً.. وذهب العطس.. ولكن هذه المرة بدأت الدموع تتساقط من عينى.. لم تكن دموعا فقط بل كان بكاءً.. ليس شيئاً معتاداً... لم تصبنى مثل هذه

النوبات... فيا ترى هل هذا هو الجوع.. ! لست أدرى..! لقد أصبحت مسخرة.. وهل من الممكن أن يأخذوا رجلاً ينتابه العطس.. ثم يتلوه البكاء إلى أى عمل..

– لماذا تبكى.. ؟

– أنا.. ؟ لا أدرى.. أمى توفيت..

كانوا يضحكون.. وأنا أجهش بالبكاء.. فقام أحدهم وأخرج زجاجة كولونيا من الدولاب.. وقدمها قائلا :

– تنسم قليلاً.. ينشرح صدرك.. ويزول..

أخذت نفساً عميقاً.. مستنشقاً من الكولونيا التى صبها فى راحة يده.. يبدو أنها غاز أعصاب... أووووه انشرح صدرى إلى حد ما.. لابد من أنه قد أصابنى شىء ما اليوم.. هذه المرة تملكتنى نوبة من النحيب.. ماذا دهانى ؟ ربما يظنوننى جننت.. بكاء... نحيب... عطس... دموع.. ولم أدر لماذا لم يطردونى حتى الآن..

– بماذا كنت تشتغل.. ؟

– أو.. هيك.. أولا.. هيك.. نقـ... هيك.. حيك.. نقاش.. هيك..

– يا إلهى.. كفى.. اصمت.. هكذا كانوا يصيحون وهم على وشك الموت من الضحك..

- أيمكن أن تفتح هذا الدولاب..؟

بينما كنت أفتح ضلفة الدولاب.. فكأنها ارتطامة كرة : جووووم، فتدحرجت على الأرض من الخوف.. لا يمكن أن يكون الحظ معاكساً إلى هذا الحد انتهى الأمر فلن يأخذونى إلى العمل... ليس مهماً.. سأقتل هؤلاء الرجال بالضحك.

قام أضخمهم بنفخ الغبار الموجود فوق المكتب.. وبعد قليل... ووسط تلك القهقهات العالية التى تكاد تخنقهم.. سألنى قائلاً :

- لماذا تهرش هكذا ؟

- أقسم بالله إنى نظيف.. وقد استحممت أمس.. ولكن.. لست أدرى سبب هذا الهرش الذى حط على..

لو قلت برغوثا.. فليس كذلك؛ فالبرغوث يدخل من مكان ما فقط، أما أنا فكل أطرافى تهرش.. هارت.. هارت... هارت..

سألنى أكبرهم سناً :

- ما دراستك.. ؟

- أنهيت الدراسة فى كلية الآداب..

قرب أذنه من فمى وقال :

- ارفع صوتك فسمعى ثقيل..

فصحت بصوت مرتفع - وأنا أهرش - وكانت فى أذنه

سماعة لمن سمعهم ثقيل.. قائلاً :

– كلية الآداب .

– هـ...!

فلصقت فمى فى السماعة..

وبينما كنت أزعق قائلاً.. الآداب.. فإذا بالمياه تنطلق من السماعة التى على أذنه وكأنها نافورة مياة...!! تعجبت لما أتعرض له.. وانهرت فى المكان الذى كنت فيه.. إن هذا ليس مكتباً.. إنه بيت للأشباح.. وبدأت عيناى تدوران من الجوع... وتملكتنى الدوخة.. لم أكن وحدى على الأرض.. فقد كانوا قد انبطحوا على الأرض من شدة الضحك.. وانتابتهم بعد القهقهات نوبة وكأنها نوبة صرع.. ولكن بعد أن أفاقوا.. وعادوا إلى أنفسهم.. نهضوا واقفين.. ولم يعودوا يضحكون.. واكتسب كل منهم جدية رجل الأعمال.. ولم يعد هناك مزاح.. أو هزار.. وقال أحدهم :

– عفارم.. تحملت بشكل جيد.. ربما حضر إلينا الآن أربعون شخصاً ولم يتحمل أى منهم حتى النهاية.. بل كان هناك من يهرب بعد أول تجربة.

– لم أفهم يا سيدى.. ماذا تحملت.. ؟

– إن هناك فى أمريكا شركة تصنع موادًا تثير الضحك.. وعرضت علينا العمل معهم.. وأرسلت إلينا بعض من هذه المواد..

– ثم..

– بعض هذه المواد المضحكة تكون ثقيلة أحياناً.. وبعضها يكون خطراً.. ولهذا أردنا أن نجربها أولاً..

ثم بدأوا فى الحديث مع بعضهم البعض كما يلى :

– هناك فى أمريكا عشرة آلاف محل لبيع هذه المواد...

– نعم.. نعم.. تحقق أرباحاً تتجاوز العشرين مليون دولار فى العام..

– هنا أيضاً ستحقق مبيعات طيبة.. وأظهرت التجارب أنه لا خطر منها على الإطلاق.

– إن الشركة تعرض علينا خمسين نوعاً من المصنوعات..

– لنطلب أيضاً من الأنواع الأخرى.. فكلها مكاسب هكذا.. لأن شعبنا أكثر ظرفاً ومزاحا من الأمريكان.. نحن أناس نحب المزاح والهزار.. انبرى أكبرهم سناً.. وأكثرهم ضخامة إلى القول والإملاء على واحد أظنه كاتبهم قائلاً :

– سجل.. ألفي لوحة تسخين المقاعد مما توضع على

الكراسى.. وعشرة آلاف علبة غبار هرش، وخمسمائة صندوق من كولونيا النحيب، وخمسة آلاف سماعة أذن ترش الماء.. عشرين ألف قنينة ماء تدمع العين.. خمسة أطنان سكر مجنون، ثلاثين ألف صندوق كابسولات متفجرة... اكتب كل هذه الطلبات، وليرسلوها فوراً.

ولما كنت قد نلت تقديرهم، فلابد من أنهم سيأخذوننى للعمل معهم.. ولكن فى الحقيقة.. لم أستطع أن أفهم أو أن أدرك نوعية عملى هذا.. وقد كانوا قد أهملونى تماما وهم يتحادثون مع بعضهم..

فتوجهت إلى هذا الذى كان أكثرهم انشغالاً معى وقلت :

– سيدى.. هل يا ترى قد قبلت فى العمل..؟

فقال :

– هـ..، عذراً فقد نسيتك.. حقاً.. لم يكن بين كل المراجعين من هو فى تحملك.. لقد ألحقناك بالعمل.

والتفت إلى كاتبه :

– قل للمحاسب، أن يخبر الخزينة أن تعطى هذا الرجل ليرتين ونصف.

ثم خاطبنى قائلا :

– إن شركتنا ستستورد من المصنع الموجود فى أمريكا كل شهر هذه الأدوات، وغيرها الكثير، عليك أن توجد هنا فى الثالث من كل شهر لنجرب عليك المعدات الجديدة التى سنستوردها منهم.. ثم تتجه إلى الخزينة فوراً وتتقاضى ليرتين ونصف الليرة.. لا تنس.. الثالث من كل شهر..!

فقلت ضاحكاً :

– هـ.. هى..

فضحك هو أيضاً..

– أنت ظريف جداً تحب الهزار جدا.. وأنا أيضا أحب الهزار..

كنت أضحك.. وهو أيضاً كان يضحك.. كنت جوعاناً.. ولكن لا جوع ولا خلافه.. جمعت كل طاقتى وبكل قوتى أنزلت لكمة قوية فوق أنف الرجل.. فتقهقر إلى الوراء.. وسقط فوق مؤخرته.. وكانت الدماء قد تفجرت من أنفه.. وقد أصيب الآخرون بدهشة. فقلت :

– لقد جربت معك نوعاً بسيطا من الهزار..

– ولكن ليس هناك هزار مثل هذا.. هذا هزار الحمير...

– ماذا نفعل نحن الفقراء... ولا يمكننا أن نشترى لعبة من

الألعاب الفكهة التى تستوردونها من أمريكا بمبلغ الليرتين ونصف التى نكسبها شهرياً، أمن أجل خاطركم!.. أيجب علينا ألا نعمل مزاحاً أيضاً.. إن الهزار والمزاح بدون آلات أو معدات بالكاد يكون هكذا..

انطلقت وأغلقت الباب – شاط – خلفى. خرجت وتوجهت على الفور إلى بيتى وكتبت ما يلى فى آخر كراستى المشحونة بفلسفة الحياة :

«الحياة مهزلة موجعة..».

## فقير بايقورت
## (١٩٢٩م - ١٣٤٨هـ)

ولد سنة (١٩٢٩م – ١٣٤٨هـ) فى قرية آفچه كوى من أعمال بوردور على البحر الأسود. كانت دراسته زراعية، وعمل مدرساً فى المنطقة، وبعد أن أنهى معهد التعليم العالى، عين مفتشاً فى التربية والتعليم، وقد أتاحت له هذه الفرصة التجول فى قرى ومراكز الأناضول.

جسد كل ما شاهده أو رآه أو عايشه من مشاكل المجتمع القروى والفلاحى فى مجموعاته القصصية.. منذ أواسط الخمسينيات.. نال شهرة كبيرة إثر نشر رواياته حول أوضاع الفلاحين والمزارعين، وقد حصل على جائزة الرواية عام (١٩٥٨م – ١٣٧٨هـ) عن عمله المسمى «انتقام الأفاعى».

هو كاتب حديث ومعاصر بكل المقاييس.. يعتبرونه من رواد رواية القرية أى التيار القروى من الرواية التركية الحديثة والمعاصرة.. وأشهر مجموعاته القصصية: «الصراع مع

الشوربجية»، و «بياض الثلج» و «محمد القزم»، وأشهر رواياته: «السلاحف..» و«المراعى» و «انتقام الأفاعى..» و «ملحمة قره أحمد»، وغيرها الكثير من الأعمال القصصية والروائية والتى حوِّل معظمها إلى أفلام، ومُسرِحت وحولت إلى مسلسلات تلفازية.

# قطفوا الثمرة التى لم تنضج بعد

- «ركبتى تؤلمنى كثيراً.. الروماتيزم يقتلنى.. لنذهب إلى أوفاجيك حتى يرقونى بالماء المقدس».. سئمت سماع هذا الكلام.. وعلى هذا المنوال من أمى..

قررت أن أستأجر عربة خيول لأحملها إلى الطبيب.. ولكن هذا يلزمه الكثير من المال.. كما أن ثمن أدوية الروماتيزم فاقت كل القدرات.. صارت أغلى مما كانت عليه فى زمن الحرب.. بل وصلت إلى أنها لا توجد إلا فى السوق السوداء.. وزاد الأطباء تعريفتهم أضعافًا.. وأضعافًا... وتحول سائقو العربات إلى جزارين.. كيف نذهب إلى الطبيب..؟! وافقت، ولكن لست أدرى.. كيف :

- حسنا يا أمى.. لنذهب..

تهيأنا تماماً؛ اغتسلنا.. غسلنا رءوسنا وأجسادنا جيداً.. بدلنا الثياب الداخلية... الراقى عثمان آغا فى أوفاجيك قد طبقت شهرته الآفاق.. ورث هذا العمل عن أجداد أجداده.. كل أفراد

سلالته كانوا رقاة.. يأتيه المرضى من أنطاليا وكركوت، يستأجرون العربات.. يتوجهون إليه وهم محمّلون بالهدايا القيمة.. الهدية هى شرط الانطلاق على الطريق.. جمعنا كل ما توفر من الحمص والبازلاء.. والفاصوليا الجافة.. وأخذنا «القره جيب» الجيب الأسود، وفاطمة «المصفحة بالحديد» لا نملك خيولا.. فاستخدمنا الحمار والأتان.. عند مطلع الفجر كنا على الطريق مع الحمارين لكى نتمكن من العودة مع المساء.

كان الوقت لطيفًا.. فالخريف فى منطقتنا موسم جميل.. لا يحل البرد فجأة.. ويبدو أن الله قد تجاوز عن خطايانا.. فقد أرسل علينا من المطر ثلاث زخات، فأوحلت الطرقات.. ولكن سرعان ما جففتها الشمس الخريفية.. كما تلبدت وتجمدت تلك الطرق تحت وطأة النعال العريضة للفلاحين، والكادحين.. بحيث إن فلاحى آيدين عندما يسلكون هذه الطرق، يظنون أنها عبدت بمساعدة مشروع مارشال!

مع بزوغ الشمس، وانقضاء وقت الفجر، كنا قد تجاوزنا منطقة البئر الجافة.. ولم تكن أمى تتوقف عن الأدعية خوفاً ورهبة ورجاءً.. بل كانت تردد :

– ادعُ.. ادعُ أنت أيضا يا بنى...

كانت تنصحنى :

– من أين لنا أن نعرف ماذا يمكن أن يحدث لنا فى هذه المناطق القاحلة..

كنت أنا أستمتع بجمال الحقول فى هذا الوقت المبكر.. لم تكن الأدعية تشغلنى أو تحتل مكاناً فى عقلى.. وهل دعواتى ستكون أجمل من دعوات أمى.. ! لتدع وتناجى هى.. فدعواتها وتوسلاتها ستطولنا معاً.. سيصيبنى من الحب جانب..!

مررنا بالحقل الذى قضت فيه أختى نحبها عندما داهمتها آلام الوضع.. كانت تقوم بجز الخراف والأغنام مقابل ليرة وبضعة قروش كأجر يومى.. شملتنى رعدة.. وتغير مزاجى.. ها هو حقل الآغا.. وها هى شجرة الكمثرى..

– ما هذا الظل الأسود على الشجرة يا بنى..؟

عدت إلى نفسى على صوت أمى.. هنالك على أطراف الحقل الكبير.. توجد شجرة أجاص وحيدة.. يتيمة.. أمعنت النظر.. حقاً.. على الشجرة.. حيث تنمو الأفرع فإن شيئا أسود قد تبدى..

– لابد من أنه نسر يا أمى..

– إنه لا يشبه النسر يا بنى..

– هيه.. لا تخشى شيئاً.. سوقى الحمار..

مـا إن اقـتـربنا من الظل حـتى اخـتنقت أمى من الخـوف.. فبـدأت تردد الأدعيـة والحوقلة وتسـتعيـذ وتبسـمل.. وتردد دون انقطاع «بسم الله.. أسلم نفسى إليك يا الله.. إنا لله...».

قلت :

– إنه إنسان يا أماه..

– لا تنخدع بأن هذا يشبه إنساناً.. هكذا يبدو.. ولكن بعدها يخرج شيئا آخر..

وعندما وصلنا إلى الشجرة، تحرك الظل.. نصب «قره جيب» أذنيه.. وتوقف.. أصدرت كحة خفيفة.. فرفع الظل الشبح يديه إلى أعلى.. وبدأ يدعـو مـثل أمى.. إن الشـبح.. لم يكن سـوى امرأة.. سيدة متسربلة بالسواد.. أصدرت كحة أخرى، فبدأت بالنزول من فوق الشجرة.

– أسرع.. أسرع يا بنى.. لنمر بسرعة..

– لن تأكلنا يا أماه.. لنتوقف قليلا.. لنرى..

جاءت السيدة.. توقفت أمامنا.. بدأت تستعد لكى تقول شيئاً ما.. لكن أمى بادرتها قائلة..

– أفسحى الطريق.. بسم الله.. هاى.. أنت.. أروح أنت.. أم

ماذا تكونين..؟

- لست روحاً.. إنني إنسانة كما ترين...

- ماذا تفعلين على الشجرة..؟

- أمضيت الليل فوقها..

- وهل يمضي إنسان الليل على الشجرة.. ألا تخافين..؟

- لماذا أخاف.. ومن ماذا..؟ الله يحميني..

- والبرد.. ؟

- البرد لا يصلني.. فأنا أحترق وأشتعل من الداخل...

وكزت أمي الحمار.. وأردفت:

- هيه.. هكذا.. كل واحد له همومه... غير ممكن أن يكون الجبل بلا ضباب.. ولماذا أمضيت الليل هنا فوق الشجرة..؟

- تركت «حيدرلي» بعد ظهر البارحة.. وصلت قريتكم.. غابت الشمس.. واصلت السير.. ظننت أنه يمكنني أن أصل قريتنا.. ساد الظلام... لم أعد أرى شيئاً من العتمة.. ولم يعد في مقدوري أن أتابع المشي.. تملكني الخوف.. طلعت الشجرة..

- الآن إلى أين أنت ذاهبة.. ؟

- أنا ذاهبة إلى «أوفاجيك».. إنها قريتي..

تجاوزت المرأة الأربعين من عمرها.. سارت بمحاذاتنا..

وجهها لا يبدى أى شيء.. ولكن حركاتها وصوتها يظهران أن الألم يعتصرها.. نزلت عن الحمار.. وقلت لها :

– يا خالتى... تعالى واركبى..

لم تقبل.. ولكن بها ألما كبيراً.. ويبدو أنها امرأة فاضلة..!

سألتها أمى:

– هل كنت فى نزهة فى «حيدرلى»... ؟

– وهل هذا وقت نزهات!.. لقد ذهبت أبحث عما يشفى غليلى.. ويداوى جراحى..

– أعندك فتاة للزواج؟ أم أن هناك من يهددك من الرجال؟ أم أن عملاً قد خبئوه تحت عتبة بابك.. أبنك مريض..؟ أم أن زوجك قد أصابه الشلل...؟

– آه.. ليت كان عندى رجل.. حتى ولو كان مصاباً بالشلل.. لو كانت هذه مصيبتى...

وفى بساطة متناهية، وعفوية بدأت المرأة تجتر آلامها أمام أمى..

– مصيبتى أثقل.. وهمى فاق كل الهموم.. ربنا لا يكتبه على أحد.. ثلاث عشرة سنة انقضت على وفاة زوجى.. تركنى مع أربع فتيات.. والخامس كان فى أحشائى... «لنجرب هذه المرة..

لعله يكون ولداً».. كانت هذه رغبة المرحوم.. لكن جاءت الخامسة رعيتهن.. كبرن.. لم أتزوج أنا.. لم أفسح الفرصة لأى يد تمتد لتلطم إحداهن.. زوجت الأربع.. وحان الدور على الخامسة.. لم يكن قد آن الأوان بعد.. ولكن ألحوا، قالوا «ها هو الوقت قد حان» لم يمنحونى الفرصة لكى أفرح بها..

كنا جيرانا.. الباب فى الباب.. البيوت فى الحى نفسه.. المواشى ترعى فى المكان نفسه نعرف عن بعضنا كل شىء.. أعرف كل أمور عائلة محمد.. ويعرفون كل أحوالى.. عقب انتهاء الدراسة هذه السنة.. جاءنى محمد.. وقال:

– «شريفة.. انظرى.. نحن جيران.. الباب فى مقابلة الباب.. ونحن نعد أقارب إلى حد ما.. ونعرف أوضاع بعضنا البعض.. مساحة أرض كل منا وحدها قليلة.. لا تكفى فقط لرعى مواشينا.. فإذا أخذنا «قيزبان» لإبراهيم.. فلسوف نجمع الأرض، وتصبح حقلاً واحداً.. فكرى وأعطينى الرد..».

فكرت.. وطال تفكيرى.. ثم قلت :

– «ابنتى مازالت صغيرة يا آغا.. صغيرة جداً..».

لكن لم يقتنع.. وقال :

– لا.. ليست صغيرة.. ليست صغيرة.. البنت ما أن تبدأ فى

الثانية عشرة.. إما أن تتزوج.. وإما تبقى فى بيت أبيها.. ليكن نبينا مثلاً : «زوجته الثالثة لم يصل عمرها الثانية عشرة عندما ذهبت عنده..».. هكذا قال :

كان يرسل المرسال وراء المرسال.. الرجل عقب الرجل.. أخيراً قلت:

– «مشيئة الله..».

قبلت. أعطيت «قيزبان» الصغيرة.. بعد أسبوع توجهنا إلى المركز.. إلى المدينة لاختيار الملابس.. والشوار.. إنهم بخلاء.. لم يشتروا شيئا يذكر لابنتى الجميلة.. عائلة محمد هذه مشهورة بالبخل فى قريتنا.. ففى القرية يقولون: «تنام الأفعى أمام أموال عائلة محمد.. فلا يستطيع أحد أن يقترب منها..».

باختصار.. خاطوا.. فصلوا.. جهزوا كيفما كان.. بعد أسبوعين.. كان العرس.. أصعدوا صغيرتى على الكرسى.. أركبوها الجواد.. طافوا بها القرية.. زفوها.. ثم أعادوها إلى الحى نفسه.. ابنتى جميلة.. متناسقة بدت لى وهى فى ثياب زفافها أنها أكبر سناً مما هى عليه.. ولكننى فى قرارة نفسى أعرف أنها صغيرة.. وأنها غير مهيأة للزواج..

هذه الليلة الموعودة، بقيت وحدى فى بيتى أجتر وحدتى

وحـزنـى.. فـمـا هو الشيء الذى تمتلكه الأرملة فى مـثل هذه الأمـور.. جلست وبكيت.. وأنا غـارقـة فى بكائى جـاءنـى صـوت المرتل الذى يقرأ المولد.. وأدعية النكاح.. أخذ الشباب والرجال العـريس إلى الجـامع القـريب.. باركـه الإمـام عـقب الصـلاة.. أحضـروه.. وأجلسـوه بجوار ابنتى.. أتابع وأرى بعينى فالباب أمام الباب... ربما انقضت.. آه.. ربما لم تنقص خمس أو عشر دقائق حتى كات ابنتى شبه عارية.. «قيزبان» الصغيرة نصف عارية.. جرت من الغرفة.. هرعت إلىَّ وهى هكذا.. طار لونها.. بادرتها :

– ماذا جرى لك يا ضناى.. ؟

لم أكد أتفوه بذلك حتى سارعت :

– خائفة.. إنى خائفة يا أماه...!

ارتمت على الأرض.. رجوتها.. توسلت إليها :

– «اذهبى.. اذهبى يا بنيتى.. هيا يا طفلتى الصغيرة..!».. ألححت فى الرجاء، لكنها أبت الذهاب..

جاء الآغا محمد وزوجته.. أمسكوها من يديها، وقادوها من جديد.. وهما يرغبان:

– «سنعطيك عنبا.. سنخصص لك حديقة.. حديقة سوف

نعطى..».. وعدوها ثم أدخلوها الغرفة.. الفتى فى الداخل.. والفتاة أدخلوها.. الأم والأب.. محمد آغا وزوجته وقفا أمام الباب تماماً.. هما يصرخان :

«إبراهيم.. هيا يا بنى.. كن رجلاً»..

أيواه.. يا أختاه.. صغيرة.. قيزبان.. كانت صغيرة.. نضرة كالغصن المزهر..

بدأت المرأة فى البكاء المكتوم أحياناً.. والنحيب مرة أخرى.. ولم أعرف أنا أو أمى كيف نواسيها.. لم تسعفنى الكلمات.. أنست همومُ المرأة أمى همومها وألمها.. أكملت المرأة سرد مأساتها..

– كان الأب والأم يصرخان أمام الباب.. وكان إبراهيم فى الداخل يقول هو الآخر شيئا.. سمعت الصوت.. لم أستطع فهم ماذا يقصد.

أخيراً غضب الآغا محمد.. صرخ.. «أمسك بقوة.. اربط يديها.. انه هذا العمل بسرعة.. أوثقها.. اخلص..».

لم يأت خبر سار من الداخل.. كلما تأخر وصول الخبر كان محمد يزداد غضباً.. واسترسالاً فى الإيضاح..

– «حيوان مع حيوان».. يصرخ مرة أخرى.

– ألا تستطيع أن ترى فاتورة فتاة..!! حيوان..! على الأقل افتح الباب قليلا.. لتدخل أمك وتساعدك..

سقط قلبى فى قدمى.. تهاويت عند سماع ذلك.. ووقعت على الأرض . عند الفجر.. ولم تكن الشمس قد بزغت بعد.. أو ظهرت تباشير الصباح.. العتمة مازالت.. لا أستطيع أن أميز الأشياء.. من هو الصديق.. ومن هو العدو.. جاءتنى ابنتى من جديد طرقت علىّ الباب منادية :

– يا أمى.. يا أمى..!

أسرعت إليها.. وصحبتها إلى الداخل.. ثياب ممزقة.. الخدوش والرضوض بادية من الأيدى والأظافر.. الدماء تغطى الوجه.. آثار الضرب بادية على كل مكان من جسدها.. محمد وزوجته يبحثون عنها.. كلاب مسعورة؛ نعقوا.. قالوا :

– إيه.. كم أنفقنا.. كم تكلفنا.. لنا أصدقاء.. وأعداء.. كيف نظهر أمام العالمين.. عليك أن تدركى أن ابننا إبراهيم لا ذنب له فى هذا الأمر.. الذنب ذنب ابنتك المدللة..

كلام.. كلام.. لا يدركه العقل.. أو يفهمه.. كلمات لا يستطيع أن يلوكها الإنسان.. لو سمعت كلمة واحدة مما قالوه لأصابك الجنون يا أختاه.. يمكن أن يصيبك الخبل.. قالوا.. وتفوهوا بكل

ما جاء إلى أفواههم.. مهما قلت أنا لم يصغ أى منهم لما قلت.. آذانهم صماء.. ماذا يمكن أن أفعل..؟ أينما هربت.. وحينما توجهت كانوا سيسدون كل الطرق أمامى.. ابنتى صغيرة.. مازالت صغيرة.. شهود زور من هنا.. وهناك.. وبهذا وذاك.. زادوا من سنها.. وفعلوا كل ما فعلوا.. والآن يلقون بكل الهم والغم والذنب على ظهرى أنا..

صباحاً.. أتى الذين يودون أن يروا العروس.. فماذا قالوا لهم: «العروس عند أمها..» .

ما هى إلا نصف ساعة حتى عم الخبر كل القرية... حتى السماء خجلت مما سمعت.. لم يتركوا كلمة نابية حتى ألقوا بها علينا.. ألفوا حتى الأغانى بهذه المناسبة :

– الجوزة..

الجوزة

الجوزة.. طلعت عفنة..

وقيزبان خرجت عفشة..

عندما حل المساء.. وكأن شيئاً لم يكن.. توسط الجيران.. وجاء والد العريس ووالدته.. رجونى من جديد.. توسلوا، وقالوا:

– أعيدى البنت..

مـاذا كنت أسـتطيع أن أفـعل...؟ لـم يعـد فـى مـقـدورى أن أقاوم.. أعدتها... بالصراخ.. والبكاء اقتادوها.. اقتادوها وسط دموعى وآهاتى.. لكن ابنتى لم تتحمل.. هربت مرة أخرى.. ومرة أخرى طرقت بابى.. أدخلتها... تركوها.. مضت عدة أيام.. لم يطلبوها.. لعل الخوف الذى يلم بها يزول ثم يطلبونها.. لكن هذا الانتظار لم يجد.. قلب فتاتى لم يطاوعها.. ولم تعد..

وحسب المثل القائل «إذا وقع الثور كثرت السكاكين».. أو.. «إذا غرق الحمار فى الوحل، كثر المتبرعون ببيان الدرب».. قال الجميع.. نصح الجميع.. نفذت كل ما قالوا.. أخيراً نصحنى أحدهم بالذهاب إلى «قره حافظ» فى قرية «حيدرلى» إنه شيخ باتع.. قادر على تحضير الأرواح.. وفك الطلاسم وأن يعمل عملاً لابنتك حتى تميل إلى الفتى وتمنحه قلبها.. ونفسها..

انطلقت البارحة صباحاً... ذهبت إليه.. قصصت عليه كل شىء.. لكنه قال فاقتضاب:

– «يجب أن تأخذى فى الاعتبار بعض التكاليف..».

رددت عليه :

– مهما تكن التكاليف... فأنا أقبلها.. إننى موافقة على كل شىء.. كل ما أتمنى أن تزول الوصمة عن ابنتى.. أقبل..

قرأ الأدعية.. أطار الأدخنة.. أحضر الأرواح.. قلب صفحات أحد الكتب قص قطعة من المشمع.. أعطانى بعض الأشياء وقال:

– هذا.. تخيطينه فوق ظهر الفتاة.. هذا تدفنينه تحت عتبة الباب.. وهذا تضعينه فى سريرها..أما هذا.. فسوف تضعينه فى الإبريق الذى تشرب منه الماء.. دفعت كل ما طلب.. وهأنذا أحمل كل هذه الأشياء.. فليساعدنى الله.. إذا ما سارت الأمور كما أحب.. فلن آسف أبداً على كل ما أنفقت.. بل سوف أمنح الشيخ «قره حافظ» خمسة أضعاف ما طلب.

قالت المرأتان معاً:

– الله يعطى..

قبيل الظهيرة.. بدت قرية «أوفاجيق».. قرية من ٧٠ إلى ٨٠ بيتاً. قرية صغيرة.. ليس بها أى مدرسة... فى منخفض كالحفرة.. الأزقة غارقة فى الوحل، الدور وسط الأحياء.. الأبواب مقفلة.. كل شىء باهت.. معتم.. ولا أحد يرى فى القرية.

مسحت مرافقتنا بطرحتها السوداء عينيها المغروقتين بالدموع.. ثم أسرعت أمامنا.. واقتادتنا إلى بيت المشعبذ... عذراً.. الراقى.. عثمان آغا.. تلت أمى الأدعية.. الواحد بعد الآخر.. ثم دخلت بقدمها اليمنى عتبة الباب الكبير.. ثم.. ثم بعدها... أنا.

## المحتويات

الطيور المهاجرة...

الشمام.. والبطيخ...

الصياد...

**عزيز نسين :**

خدمة وطنية...

مجنون على السطح...

القطة السعيدة...

أليس فى بلدكم حمير... ؟!

مدفأة الكيروسين...

ناس ظرفاء...

**فقير بايقورت :**

قطفوا الثمرة التى لم تنضج بعد..

## المترجم

– د. الصفصافى أحمد المرسى القطورى

– من مواليد ١٩٤٠

– دكتواره فى اللغة والأدب التركى من جامعة استانبول

– حاصل على الجائزة الأولى فى ترجمة الأعمال الأدبية والقصة التركية القصيرة من رابطة الأدب الإسلامى العالمية فى ٢٠٠٢م.

– صاحب أول معجم فى العالم من التركية الحديثة إلى اللغة العربية.

– عمل فى عدد من الجامعات العربية وفى جامعة صوفيا ببلغاريا.

– يعمل حاليا أستاذاً للغات الشرقية وآدابها بجامعة عين شمس.

## صدر من آفاق عالمية

١- تنبـــؤات
شعر : بيفر /زاجراجن
ترجمة : د. يسرى خميس

٢- اعتراف منتصف الليل
رواية : چورچ ديهامل
تعريب : د. شكرى عياد

٣- الزيتونة والسنديانة
نصوص شعرية مترجمة ودراسة عن الشاعر :
عادل قرشولى
د. عبد الغفار مكاوى

٤- بلبل واحد لا يصنع ربيعا
مختارات من القصة العالمية
ترجمة د. حمادة إبراهيم

٥- شـــراك القــدر
مسرحية : انطونيو بوريو بييخو
ترجمة : د. طلعت شاهين

٦- الأرض الخراب وقصائد أخرى
شـــعر : ت . س. اليوت
ترجمة : د. لويس عوض
تقديـــم : د. ماهر شفيق فريد

٧- فى البحث عن ڤاليرى (رواية)
تأليف : لـــيج مايكـــلــز
ترجمـــة : مى رفعت سلطان

٨- زديج أو القضاء (قصة شرقية)
تأليف : ڤولتيـــر
ترجمـــة : د. طه حسين
تقديم : نبيل فرج

٩- قصائد امرأة سوداء بدينة
شعر : جريس نيكولز
ترجمـــة : نانسى سـمير

١٠- عاشق من مونت كارلو (مختارات قصصية)
تعريب وتقديم : عبد القادر حميدة

١١- الحب والأسى (مسرحية صينية)
تـأليف :(باى فنجكسى)
ترجمة وتقديم : سمير عبد ربه

١٢- ذلك العالم المدهش
(حوارات مع كتاب عالميين)
ترجمة وتقديم : حسين عيد

١٣- شعر السبعينيات في إسبانيا(دراسة ومختارات مترجمة)
د. حامد أبو أحمد

١٤ - المسرح الهندى (التراث والتواصل والتغير)
تأليف : نيميتشاندرا جين
ترجمة : د. مصطفى يوسف منصور
مراجعة : أ. د. منى أبو سنة

١٥ - مختارات من روائع المسرح العالمى
ترجمة وتقديم د. نعيم عطية

١٦- الأغنية الأخيرة
مختارات من الشعر الصينى
تأليف : تشانج شاينج - هو
ترجمة : زكريا محمد

١٧- أفضل صديقاتى (مختارات من القصة العالمية)
ترجمة : مفرح كريم

١٨- الطاغية (ومسرحيات أخرى)
ترجمة د. جمال عبد الناصر

١٩- يقظة امرأة (رواية)
تأليف: كيت شوبان
ترجمة : د. أحمد الشيمى

٢٠- مختارات من حكايات الشعوب
ترجمة وتقديم: رأفت الدويرى

٢١- خمس مسرحيات نو حديثة
تأليف: يوكيو ميشيما
ترجمة عبد الغنى داود
أحمد عبد الفتاح

٢٢- سر بين اثنين
(مختارات من القصة القصيرة العالمية)
ترجمة: محمد رجب

٢٣- ملحمة جلجاميش
ترجمها عن الألمانية: د. عبد الغفار مكاوى
راجعها على الأكدية: د. عونى عبد الرءوف

٢٤- شعراء وقصائد
باقة من بستان الشعر اليونانى الحديث
ترجمة عن اليونانية ودراسات: د. نعيم عطية

٢٥- فى الحب والحرية والمقاومة
مختارات من الشعر العالمى
ترجمة وتقديم: د. حسن فتح الباب

٢٦- الحجر ليس بريشة
مختارات من شعر بيثنته ألكساندر
ترجمة وتقديم: عبد الهادى سعدون

٢٧- تدابير ضد السلطة
مختارات من القصة الألمانية فى القرن العشرين
ترجمة وتقديم: د. محسن الدمرداش

٢٨- تحولات الجحش الذهبى (رواية)
تأليف : لوكيوس أبوليوس المداورى
ترجمة: د. على فهمى خشيم

٢٩- «حسن البغدادى» (مسرحية)
تأليف جيمس الروى فليكر
ترجمة وتقديم: محمود محمد مكى

٣٠- صورة للبقاء
شعر وترجمة: روديكا فيرانيسكو

٣١- ممنوع اللمس (وقصص أخرى)
مختارات من إسبانيا وأمريكا اللاتينية
ترجمة: أحمد عبد اللطيف

٣٢- دميان (رواية)
تأليف: هرمان هيسه
ترجمة: عبده الريس

٣٣- مشجوج بفأس (مختارات شعرية)
ترجمة: فاطمة ناعوت
تقديم: حلمى سالم

٣٤- الحضيض (مسرحية)
تأليف: مكسيم جوركى
ترجمة: فؤاد محمود دواره
تقديم: أحمد عبد الرازق أبو العلا
مراجعة: د. محمود السعران

٣٥- مناظر من أرض جديدة
قصص لكاتبات من أمريكا اللاتينية
ترجمة: إيزابيل كمال خليل

٣٦- مدن لا مرئية (رواية)
تأليف: إيتالو كالڤينو
ترجمة : ياسين طه حافظ

٣٧- حكايات الجن الألمانية
جمعها وصنفها: الأخوان جريم
ترجمة : د. توفيق على منصور

٣٨- مـــاراصـــاد وأنشودة غول لوزيتانيا (مسرحيتان)
تأليـــف: بيترفايس
ترجمة وتقديم : د. يسرى خميس

٣٩- حكايات شاعرية
قصائد قصصية من الأدب الألمانى الحديث
تعريب: د. عبد الغفار مكاوى

٤٠- الفهـــد چـــورچ (وقصص أخرى)
تأليف: دوريس ليسنج
ترجمة: عنـــان الشهاوى

٤١- النغـــم المتصاعـــد (وقصص أخرى)
تأليف : دينو بوتزاتى
ترجمة: چـــورچ سالم
تقديم : محمد الراوى

٤٢- مسرحيات قصيرة جدا
ترجمة وتقديم : د. محمد شيحه

٤٣- همـــس المـــاس
تقديم : بشير رفعت